المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية اللغة العربية

الدراسات العليا العربية

القضية الفلسطينية

بين الروايتين العربية والإنجليزية المعاصرة ، دراسة مقارنة .

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في تخصص الأدب والبلاغة والنقد

إعداد الباحثة

هيفاء حامد سند العصيمي

الرقم الجامعي

٤٣١٨٨٢١٠

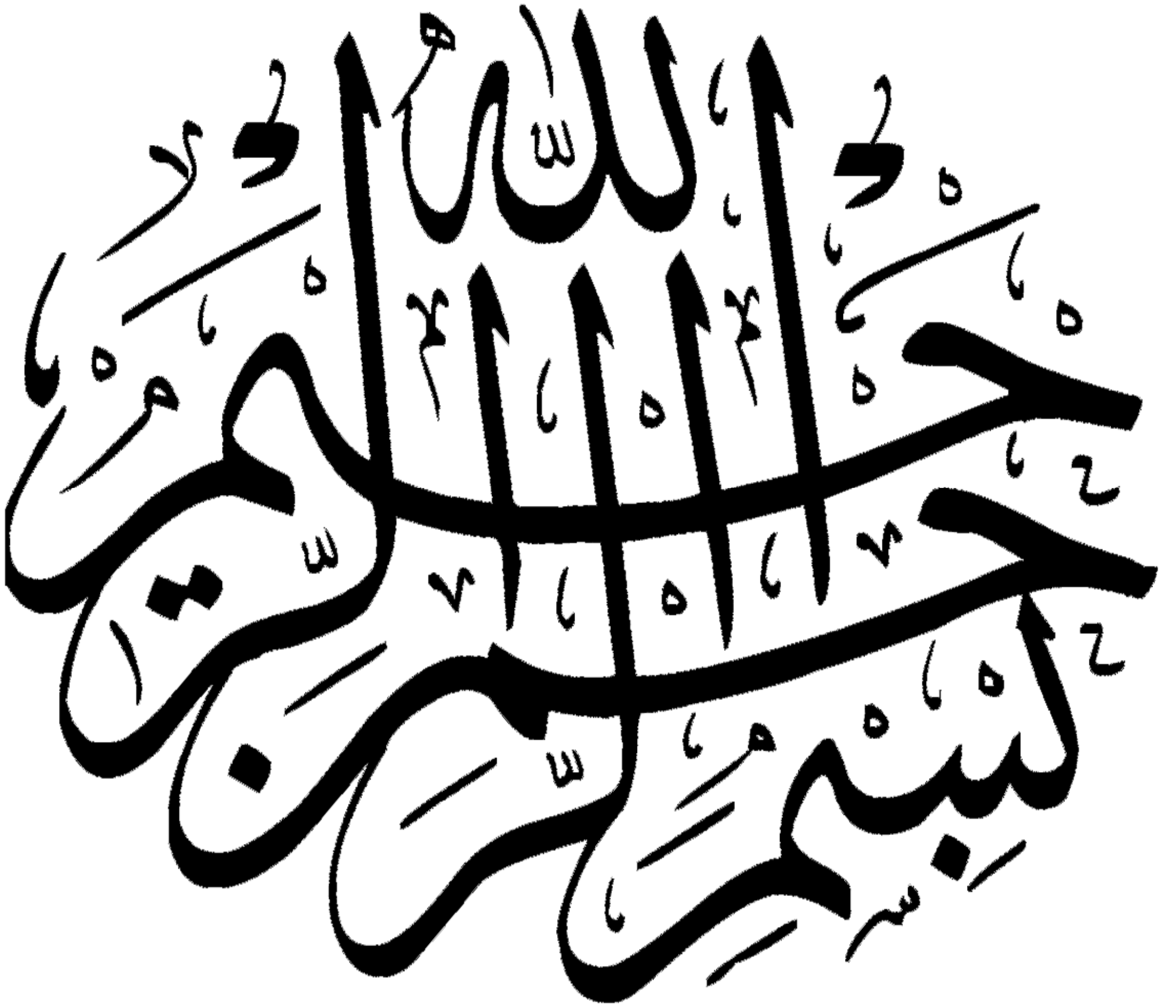
إشراف :

الدكتور : ناصر شبانه

ومن قسم اللغة الإنجليزية

الدكتورة / عفاف جميل خوقير

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــــداء

إلى من علمني النجاح والصبر

إلى من أحن لرؤيته و يرتعش قلبي لذكره

إلى من لا أزال في حضرته تلك الطفلة الصغيرة، إلى والدي رحمه الله.

وإلى من تعبت وعانت معي

إلى من أهدتني أصدق الدعوات والأمنيات، إلى أمي أطال الله في عمرها.

إلى رفيق دربي، وشريك حياتي، إلى من أضاء طريقي، وعلمني معنى الحياة إلى زوجي.

إلى الشموع التي أضاءت حياتي، إلى من تمدني نظراتهم بالأمل والتفاؤل، إلى بسمة الحياة، أطفالي عبد الله، وراضي، وماء السماء.

إلى أخي العزيز سند الذي أعانني في توفير المراجع والكتب اللازمة.

إلى شخصيات الروايات التي تركت آثارها في نفسي، فعشت معهم أجواء الحرب والألم، وتعلمت منهم أن الأمل يجب أن يظل حاضراً رغم كل شيء.

ملخص البحث

يسعى هذا البحث إلى المقارنة بين الروايتين العربية و الإنجليزية في رسم صورة القضية الفلسطينية. ومحاولة البحث عن الهوية العربية في الروايات محل الدراسة، ودراسة البنى السردية التي ساعدت في تحقيق رؤى الكتّاب في تصويرهم للصراع.

يتكون البحث من مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول:

الفصل الأول: جدلية الأدب بين الاستقلال والاستغلال، وجاء في ثلاثة مباحث.

المبحث الأول: مدى تأثير الصراع السياسي والحروب على الإبداع العربي والغربي.

المبحث الثاني: الاتجاه القومي في الروايات العربية والإنجليزية.

المبحث الثالث: قضايا وموضوعات إنسانية في الروايتين العربية والإنجليزية .

الفصل الثاني: صورة الإنسان في الروايتين العربية والإنجليزية.

المبحث الأول: الفلسطيني: تحديات الوجود والهوية.

المبحث الثاني: صورة المرأة الفلسطينية في الروايتين العربية والإنجليزية.

المبحث الثالث: الطفل الفلسطيني بين الروايتين العربية والإنجليزية.

المبحث الرابع: نماذج مختلفة للمحتل بين الروايتين العربية والإنجليزية.

الفصل الثالث: تقنيات فنية أم مرايا كاذبة.

المبحث الأول: عناصر الرواية.

المبحث الثاني: تقنيات سردية.

اسم الباحثة:	المشرف:	وكيل الكلية:
هيفاء حامد سند العصيمي	**الدكتور: ناصر شبانه**	**الدكتور: دخيل الله الصحفي**
	الدكتورة: عفاف جميل خوقير	

ABSTRACT

This research is designed to compare Arabic and English novels that address the issues surrounding the realities of the Palestinian cause. The novels will be analyzed to provide a portrayal of the Arabic identity and the narrative structures that the authors used to depict the conflict. The research consists of an Introduction, Preface, and three chapters.

Chapter One contains a discussion of the dialectic of literature between independence and exploitation. Three topics will be addressed in this chapter: (1) the impact of political conflict and wars on literary works, (2) the national trend in Arabic and English novels, and (3) humanitarian cases and topics in Arabic and English novels.

Chapter Two is a comparison of the image of humans in the two Arabic and English novels. The four topics that will consist of comparisons are: (1) The Palestinian: the challenges of existence and identity, (2) The depiction of Palestinian women in the two Arabic and English novels,(3) The depiction of Palestinian child in the novels, and (4)examples of the occupier in the two novels.

Chapter III consists of the artistic techniques of false and lying mirrors. Two topics in this chapter will contain a literary analysis of the novels on the following aspects: (1) elements of the novels, and (2) narrative techniques.

Researcher: Haifa Hamid Al-Osaimi

Supervisors: Dr. Nasser Shabana / Dr. Afaf Jamil Khogeer

Vice Dear: Dr. Dakheel Allah Alsahafy

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وبعد:

تُعد صورة الشعوب في الآداب والثقافات من المباحث المهمة في الدراسات الأدبية المقارنة. فعند تجاور شعبين، أو احتكاكهما، لأي سبب من الأسباب، يحصل نوع من التأثر والتأثير بينهما، مما يجعله هو الآخر أحد المباحث الأساسية، في مجال الأدب المقارن.

وعند الحديث عن صورة العرب عموماً، في الأدب الغربي، نجدها قد مرت بعدة مراحل. فبداية وقبل القرن السابع عشر، كانت صورة نمطية، رسخت في العقل الجمعي، للشعوب الغربية عن العرب. كانت صورة مظلمة، ومغلوطة، وغير مبنية على علم، أو سابق معرفة. فقد رأى الصليبيون في الإسلام القادم إلى إسبانيا خطراً على شعوبهم، فأخذوا يرسمون صوراً ملطخة بالدماء للمسلمين القادمين من الشرق.

ومن أبرز من كتب في هذه المرحلة "تشوسر"، فقد أظهر الشرق في أدبه بصورة سلبية، وهي صورة عامة عند كثير من أدباء العصور الوسطى، الذين لم تكن لهم صلة بالشرق، وإنما كانوا يتبعون النمط السائد في مجتمعهم. وهكذا فقد سار الأدب الإنجليزي في تشويه صورة الشرق الإسلامي، متجاهلاً الأعمال القليلة التي قدمت معلومات حقيقية عن المسلمين، وقد كان أغلبها مترجماً عن الفرنسية.

وفي عصر النهضة، زادت الصلات بين الشرق والغرب، عن طريق التجارة والرحلات

الاستكشافية، التي قام بها الغربيون للمشرق. فكتبوا يصفون مناظر البلاد، وما بها من آثار، وما يسودها من نظم، وما يحكمها من عادات وثقافات، مثل رحلة "جون كابون" وهو المستكشف والرحالة الإيطالي الذي قام بأول رحلة من إنجلترا إلى أمريكا الشمالية عام ١٤٧٩، و" د ي فون هارف" ، والشاعر الإنجليزي في القرن الرابع عشر "جيفري تشوسر"، الذي وصف في قصائده، جمال المدن الشرق أوسطية، كدمشق وغيرها.

وهكذا، فقد أصبح بمقدور الرحالة الإنجليز التجول في البلدان العربية، ونقل ثقافاتها وآدابها إلى لغاتهم. ومن أهم ما نقلوه كتاب " كليلة ودمنه" لابن المقفع، وكتاب " ألف ليلة وليلة"، الذي كان له أثر كبير في الأدب الإنجليزي. استوحى شكسبير في كثير من مسرحياته، شخصيات عربية من كتاب ألف ليلة وليلة، ولم تكن الشخصيات وحدها هي المستوحاة، بل كان هناك الكثير من المجازات، والاستعارات العربية، ومضامين لأشعار عربية، مثل قول الملك "سافواك" في مسرحية الملك لير: ليست الأرض بغيتي، فلو كنت هناك لغدا القفر الموحش أهلاً وأنيساً. فهذا شبيه بحسب الباحثين بقول قيس بن الملوح:

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

ومن هنا يبدأ التحول في الاهتمامات الغربية، من الجوانب الدينية الإسلامية، إلى الجوانب الفنية الإبداعية في الإنتاج العربي، ومحاكاة المواضيع التي تناقش واقع العربي واهتماماته[١].

بالإضافة إلى كون صورة العرب في الأدب الغربي،تتغير وفقاً للأحوال السياسية في الغالب، فما الأدب إلا وسيلة مثل باقي الوسائل الإعلامية المستخدمة في تكوين الصور التي تتفق وسياسات الدول، ومن أبرز القضايا العربية، التي لاقت اهتماماً كبيراً من العالم أجمع

[١] انظر: تطور صورة الشرق في الأدب الإنجليزي، ناجي عويجان، ترجمة تالا صباغ، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة ، ٢٠٠٨ ، ص٢٠

قضية فلسطين .

فالصراع العربي الإسرائيلي أصبح موضوعاً عالمياً، وعاملاً فاعلاً في تشكيل المناخ الأدبي العالمي، فكتب العديد من الأدباء والشعراء، عن الإنسان الفلسطيني في الأرض المحتلة، وعن معاناته بسبب الحروب، "وخرجت أعمالٌ أدبية تندد بالاحتلال، وتدعو لحماية الإنسانية، كشعر مستر نايت، وروبرت غرين وغيرهما[١]".

وكان للرواية الغربية نصيب كبير في التحدث بإسهاب عن فلسطين الأرض والشعب، فنقلت للقارئ الغربي الأحداث، وصورت له الحياة في الأرض المقدسة تحت ظل الصراع.

وقد عزمت بإذن الله تعالى على دراسة القضية الفلسطينية بين الروايتين العربية والإنجليزية المعاصرة، دراسة مقارنة. في محاولة للبحث عن ملامح التشابه بين رؤية العربي والآخر الغربي للموضوع ذاته، التي لا تخلو بالطبع من انعكاسات التأثر والتأثير.

لم تركز الدراسة على محاولة تتبع علاقات التأثر والتأثير، وإثبات الصلات التاريخية بين الروايات العربية والغربية، كما هو متعارف عليه عند المدرسة الفرنسية، بل اتبعت في دراستي المنهج الأمريكي، الذي وسع من مجالات الدراسة المقارنة. فلم تقتصر مجالات البحث عنده على مجالات التأثر والتأثير، التي تقتضي وجود صلات تاريخية بين الأدبين، كما تذهب إلى ذلك المدرسة الفرنسية. ووجدت فيها، أي المدرسة الأمريكية، المرونة من حيث اهتمامها بالمواضيع المختلفة، التي لم يثبت تأثر أحد كتابها بالآخر، فكانت دراستي للتأثر والتأثير في الروايات محل الدراسة، مبنيةً على انبثاقها من تجارب إنسانية متشابهة، وقد بينت في هذه الروايات هذا التماثل والتأثر، كما بينت لحظات الاختلاف في التشكيل والرؤية والهدف، وتأثيرها في الأدب بوجه عام.

---

[١] انظر : www.vtjp.org

يرى رينيه ويليك – وهو ناقد ومؤرخ أدبي أمريكي من أصل سلافي، ترك أثراً عميقاً في تطور النقد الأدبي الحديث، لاسيما الدراسات المقارنة في الولايات المتحدة وفي أجزاء متفرقة من العالم– ضرورة أن يدرس الأدب المقارن كله من منظور عالمي، ومن خلال الوعي بوحدة التجارب الأدبية والإبداعية. وأخذ على المدرسة الفرنسية، أنها تحصر الأدب المقارن في المنهج التاريخي، بينما تتسع الرؤية الأمريكية، لتربط بين المنهج التاريخي والمنهج النقدي باعتبارهما عاملين ضروريين(١)". فوسع بذلك من دائرة الأدب المقارن، لتصبح المقارنة هنا بين الآداب العالمية، باكتشاف العلاقات المشتركة، وإن كانت دون صلات تاريخية.

ومما يجدر الإشارة إليه هو تأثر الروائيين الغرب – في الروايات محل الدراسة – بشخصيات وأحداث حقيقية صادفتهم، فقد زارت "Elizabeth Laird" الكاتبة البريطانية فلسطين والتقت بالأطفال الذين يعيشون تحت الحصار، وسمعت منهم معاناتهم، وحكاياتهم مع الجنود، فشكل ذلك المادة الخام لروايتها A Little Piece of Ground. وعاشت "Barbara Goldscheider" جزءاً من حياتها في تل أبيب قبل انتقالها لأمريكا. بينما زارت الكاتبة "Dixiane Hallaj" المخيمات الفلسطينية، و التقت النساء والرجال ولامست آلامهم في ظل الاحتلال، فجاءت روايتها متأثرة بواقع الاحتلال وما أحدثه من آلام ومعاناة يرزخ تحت نيرها الفلسطينيون منذ عقود. و التقى الكاتب "Victor Sasson" شخصيات فلسطينية وإسرائيلية، بالإضافة إلى زياراته الدائمة لفلسطين، فأثر ذلك بطبيعة الحال على روايته وعلى أحداثها وشخصياتها، التي عكست الواقع ومفارقاته. فأدى تشابه الرؤى والأفكار، ووحدة الموضوع في الروايات إلى تشابه الكتابة من حيث الفكرة العامة، ولكنها اختلفت في الشكل وفي طريقة تناول الموضوع.

(١) انظر : مفاهيم نقدية، رينيه ويلك، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، ١٩٧٨م، ص٣٠٣

تظل الرواية أكثر من غيرها قدرة على التعبير عن القضايا القومية الكبرى، لما فيها من إمكانيات كثيفة مستبطنة، ومساحة كافية لعرض الأفكار بطريقة مباشرة، أو عن طريق الرمز، فتكون أكثر تشويقاً. والقصد من هذه الدراسة، هو المقارنة بين الروايتين العربية والإنجليزية، في رسم القضية الفلسطينية. ومحاولة رصد تأثير الصراع السياسي والحروب على الإبداع العربي الغربي، و معرفة مدى موضوعية الروايتين العربية والغربية في نقل الأحداث. والكشف عن الجوانب الإنسانية المنصفة في الرواية الإنجليزية، المنادية بإعطاء الفلسطينيين حقوقهم، ووقف الانتهاكات بحق فلسطين الأرض والشعب.

وبناء على ما سبق فإن البحث تركز على عدة محاور أساسية :

١. كيف صورت الرواية الغربية الصراع الفلسطيني في مقابل الرواية العربية ؟
٢. دراسة دوافع الكاتب الغربي وراء انحيازه لأحد أطراف الصراع في روايته.
٣. غائية الرواية العربية في ظل التحولات السياسية ومدى انعكاس ذلك على الأدب العربي وظهور ما يُسمى بأدب المقاومة.
٤. إجراء دراسات مقارنة جزئية في كيفية توظيف كل كاتب لتقنيات فنية معينة في تثبيت رؤيته لأحداث الصراع.

وقد جاءت دراستي لهذا الموضوع في مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول:

سأتحدث بإيجاز في التمهيد عن التطور التاريخي لمصطلح الأدب المقارن، وعن مجالات البحث فيه. ثم سأعرض بعض التعاريف التي وضعها الدارسون في محاولة منهم لرسم حدوده بدقة، التي قادت بطبيعة الحال إلى سهولة التمييز بين مدارسه واتجاهاتها وطريقتها في البحث فيه.

فكان هناك المدرسة الفرنسية، وهي الأقدم والأكثر ذيوعاً، والمدرسة الأمريكية، وهي تختلف في رؤيتها للأدب المقارن عن المدرسة الفرنسية.

الفصل الأول: جدلية الأدب بين الاستقلال والاستغلال، وجاء في ثلاثة مباحث.

المبحث الأول: مدى تأثير الصراع السياسي والحروب في الإبداع الأدبي العربي والغربي. وسأتناول فيه مدى تأثير الحروب على الروائيين العرب والإنجليز، ومدى تأثر إنتاجهم بالصراع الدائر في الأرض المحتلة، وكيف رصدوا آثاره الداخلية على النفس الإنسانية، والخارجية، على الوطن والشعب. وأهمية الشكل الثقافي في المقاومة، الذي لا يقل أهمية عن المقاومة المسلحة، ومدى تأثر لغته بالصراع.

المبحث الثاني: الاتجاه القومي في الروايات العربية والإنجليزية.

سأتناول فيه معنى القومية، وتأثيرها في القضية، و هل انعكس ذلك على الروايات العربية الإنجليزية، فنادى الكتّاب بها.

المبحث الثالث: قضايا وموضوعات إنسانية في الروايتين العربية والإنجليزية.

سأتناول في هذا المبحث النزعة الإنسانية في الروايتين العربية والإنجليزية، ومدى اهتمام الروائيين بالقضايا التي تناقش انشغالات الإنسان وهواجسه في ظل الاحتلال. وهل كان للاختلافات الموجودة مثل الدين، والعرق، والجنس أثر في انحياز الكتّاب لأحد الجانبين، أم أن تصوير المعاناة الإنسانية وهمومها وعذاباتها وحيرتها التي خلفتها الحروب جاء من جانب إنساني محض بعيداً عن كل اعتبار.

وجاء الفصل الثاني بعنوان: صورة الإنسان في الروايات العربية والإنجليزية:

المبحث الأول: الفلسطيني: تحديات الوجود والهوية.

سأتناول فيه مدى تمسك الفلسطيني بهويته، وثقافته، ولهجته، ورصد تأثيرها على استمراريته ومقاومته. و مدى تأثر الروائيين الغرب بالشخصية الفلسطينية وتصويرها، ومقارنة ذلك بالهوية الإسرائيلية.

المبحث الثاني: صورة المرأة الفلسطينية في الروايتين العربية والإنجليزية.

سأناقش في هذا المبحث صورة المرأة الفلسطينية في الرواية العربية والإنجليزية، فهل بدت أكثر إشراقا وتفاعلاً مع أحداث القضية، وأصبحت مشاركة للرجل في رحلة الكفاح. وسأقارن مفهوم "حرية المرأة" بين الروايتين العربية والإنجليزية.

المبحث الثالث: الطفل الفلسطيني بين الروايتين العربية و الإنجليزية.

سأتناول فيه مدى تأثر الروائيين العرب والغرب بموضوع الطفل ومعاناته في الحرب، وتعرضه للقتل والتشريد والإرهاب.

المبحث الرابع: نماذج مختلفة للمحتل بين الروايتين العربية والغربية:

سأقوم في هذا المبحث بالمقارنة بين صورة الجندي في الروايتين العربية والغربية، وكشف المواطن التي التقت فيها الروايتان في تصويرهما له، وأسباب تجاهل تصويره في بعض الروايات العربية.

الفصل الثالث: تقنيات سردية أم مرايا كاذبة

المبحث الأول: عناصر الرواية

١.الشخصية:

سأطرح تساؤلاً في هذا المبحث عن مدى اتفاق الروايتين العربية والإنجليزية في الاهتمام بالشخصيات الروائية، ورصد تطورها الفردي، وكشف عالمها الداخلي والخارجي ومحاولة

تحليلها نفسياً." فمصطلح "نفسي" لا يعني أن الشخصية تُحلل نفسياً، أو أن كل شيء يُقدر كما لو كان داخل وعي الشخصية. ولكنه يعني على الأصح أن الأسس المترابطة في الرواية، أو مناطق التركيز فيها، هي الانعكاسات والتطورات التي تتجسد في شخصية أو مجموعة من الشخصيات[١].

٢.الزمان والمكان:

سأقارن في هذا المبحث بين الروايتين العربية والإنجليزية، في توظيفهما لعنصري الزمان والمكان. فلكل رواية زمانها ومكانها الخاص، الذي يؤطر أحداثها، ويعطيها الأصالة في الأحداث والأقوال والأفعال، وسأبين مدى ارتباط الروايات بالمكان بوصفه جزءاً محورياً في الصراع.

٣. اللغة:

سأقوم بكشف مدى انعكاس الأحداث (القتل، العنف ، التشرد) على لغة الروايات وبنيتها. وهل استغل الروائيون إمكانياتها للتأثير في المتلقي، وإيصال الرسائل المبطنة له.

المبحث الثاني: تقنيات سردية:

١. موقف الراوي:

سأستعرض في هذا المبحث أنواع الرواة، وأهمية وجودهم في العمل الروائي، من حيث قدرتهم على توصيل وجهة نظر الكتّاب بطريقة غير مباشرة، وتنقلهم بين الأحداث والشخصيات، بطريقة تخدم الفكرة العامة التي آمن بها الروائيون.

٢. الفلاش باك "الاسترجاع" :

---

[١] تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم، محمد بوعزة، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط ١، ٢٠١٠ م، ص ٢٥

تعد تقنية الفلاش باك من التقنيات المهمة في العمل الروائي، التي تضيف بعداً زمنياً أعمق، يتيح للكاتب العودة للوراء، لماضي الشخصيات والأحداث، واطلاع القارئ عليها، بطريقة تخدم الموقف أو المشهد وتزيل غموضه. لذلك سيكون هذا المبحث للمقارنة بين الروايات العربية والغربية في كيفية توظيفها للفلاش باك، وما أضافه استخدام هذه التقنية على العمل الأدبي ذاته.

٣. النهايات المفتوحة والمغلقة:

للنهاية أهمية كبيرة، فهي أكثر ما يترك أثراً في نفس القارئ، فتبقى صورة المشهد الأخير مرسومة في ذهنه، محققةً له نوعاً من المتعة المتوقعة، أو الألم الصادم. سأناقش في البحث مدى تشابه نهايات الروايات العربية والإنجليزية، وأقارن بينها مع محاولة لتحليل أسباب هذه النهايات التي اختارها الكتّاب لرواياتهم.

٤ . تسريد العنوان حكائياً:

العنوان هو أول ما يشد المتلقي إليه، فيبتدئ به ويتوجه بعد ذلك للنص. وسيذهب هذا المبحث لبيان دلالته ودوره في خدمة النص، وكشف المعاني الخفية التي تضمنتها العناوين.

استدعى البحث في هذه القضية الاشتغال على مجموعة من المناهج العلمية والآليات الكفيلة باستقصاء الصورة من كافة جوانبها. لعل المنهج التاريخي يسهم في معرفة الخلفيات التاريخية للروايات المقرر دراستها، ومدى مصداقيتها ومطابقتها للواقع. وسيمكننا المنهج الوصفي الاستقرائي التحليلي، من الوقوف على الظاهرة الروائية لاستقصائها، ووصفها، وإجراء المقارنة اللازمة، التي لا تصح إلا بعد تمام عملية الوصف، من أجل الوصول لنتائج موضوعية. وسيكون المنهج النفسي معيناً في تفسير سلوك الشخصيات، والتغيرات التي تصيبها، والتمكن من دخول عالمها الداخلي والخارجي، وقراءة آثار الصراع، و شروخه النفسية التي

أصابتها. أما المنهج البنيوي فسيكون سبيلاً لدراسة التقنيات الفنية للرواية، وأثرها في تشكيل الصورة الكلية للقضية الفلسطينية في الروايتين العربية والغربية.

وفي الختام فهذا جهد المقلّ، فإن كان صواباً فمن الله وحده، و إن كان غير ذلك فمن نفسي التقصير وحسبي أني حاولت والله المستعان.

و لا أنسى أن أتوجه بالشكر الجزيل لسعادة الدكتور ناصر شبانة والدكتورة عفاف جميل خوقير، اللذين كانا عونا لي في بحثي، ونوراً يضيء الظلمة التي كانت تعترض في بعض الأحيان طريقي، فقدما لي المساعدة وأفدت من علمهما وفكرهما، فجزاهما الله عني كل خير.

وأتوجه بالشكر كذلك للمقرر الدكتورة نوره السفياني، والمناقشين الكرام الدكتور عبدالله الزهراني، الدكتور إبراهيم النعانعة، والدكتور حميد سمير ، اللذين تفضلوا بقراءة الرسالة وأغنوها بملاحظاتهم القيمة التي ستكون عوناً لي بإذن الله في سد فجوات البحث حتى يرقى للمستوى الأفضل.

التمهيد

نبذة عن الأدب المقارن :

لم يقف جدار اللغة حاجزاً بين التقاء الشعوب، والتعرف على ثقافاتها وأفكارها وآدابها. فإن من أهم عوامل ازدهار أي حضارة هو احتكاكها بالحضارات الأخرى، ومحاكاتها، مع الحفاظ على أصالتها، بوصفها قاعدة تستند إليها وتنطلق منها.

لعبت الحروب القديمة، وما تبعها من رحلات واستكشافات، أثراً كبيراً في اتصال الشعوب ببعضها، فنتج عن ذلك التأثر والتأثير فيما بينها. فمن الصعب على أي حضارة أن تتطور وتنمو وتزدهر، بمعزل عن غيرها من الأمم. فإن الأمة المنكفئة على نفسها، تكون أكثر عرضة للانهيار والزوال والانحطاط. فالفكر الإنساني دائم البحث عن التجديد والتطور، ويسعى إلى زيادة علومه ومعارفه، التي لا تتعارض مع دينه، و أصالته الموروثة.

لا يمكن لثقافة أن تدرك مدى تميزها وتفوقها، إلا بمقارنتها مع غيرها، وكشف مدى تأثر غيرها بها، فكان هذا أحد أهم الأسباب التي كانت وراء نشوء وتطور الأدب المقارن في فرنسا، "الذي نشأ نشأة طبيعية، انطلقت من الأدب القومي، وكانت تهدف إلى خدمته، من خلال الكشف عن أصالته والبحث عن مصادره[1].

لعل من المفيد أن نمعن النظر في تاريخ اصطلاح الأدب المقارن، وأن نورد معانيه في اللغات الشائعة، لأنه شاع قدر كبير من الجدل، والتفسيرات، وسوء الفهم، بين النقاد والأدباء.

يوضح "رينيه ويلك" في كتابه "مفاهيم نقدية" سبب تأخر ظهور مصطلح الأدب المقارن في الآداب العالمية فيقول: "كلمة الأدب بالإنجليزية، كانت تعني في السابق "المعرفة والثقافة الأدبية"،

---

[1] الأدب المقارن من منظور الأدب العربي، مقدمة وتطبيق، عبد الحميد إبراهيم، دار الشروق، ط١ ،١٩٩٧، ص١١

دام هذا الاستعمال حتى القرن التاسع عشر، عندما ألقى "جيمس إنغرم" محاضرته الافتتاحية حول فائدة الأدب الأنجلو سكسوني، قاصداً بذلك فائدة معرفتنا باللغة الأنجلو سكسونية. أو عندما كتب "جون بثرهام" موجزاً تاريخياً، عن تقدم الأدب الأنجلو سكسوني ووضعه الراهن في إنجلترا، حيث تعني كلمة الأدب بلا شك دراسة الأدب[١].

ويتضح سبب تأخر ظهور الاصطلاح الإنجليزي للأدب المقارن، "إذا أدركنا أن اللغة الانجليزية، لم تكن تفضل جمع الكلمتين "الأدب المقارن" معاً لأن كلمة الأدب فقدت معناها القديم "معرفة أو دراسة الأدب" وأخذت تعني "الكتابات الأدبية بشكل عام" أو "كتابات فترة معينة أو بلد معين أو منطقة معينة". ومما يدل عليه رفض الأستاذ "لين كوبر" من جامعة كورنل مثلا أن يدعو القسم الذي كان يرأسه، قسم الأدب المقارن، وأصر على تسميته "الدراسة المقارنة للأدب"، ذلك لأنه يعد الأدب المقارن اصطلاحاً لا أصل له، ليس له معنى ولا مبنى[٢].

أدى تغير مصطلح الأدب، وتعدد معانيه في اللغة الإنجليزية، إلى تأخر ظهور مصطلح الأدب المقارن. أما في فرنسا فالأمر يختلف، فقد حافظت كلمة "Literature" على معنى الدراسة الأدبية لوقت طويل. وعرّف "فولتير" الأدب، في مقالته الناقصة بأنه:" معرفة الأعمال ذات الذوق الرفيع، مع العلم بشيء من التاريخ والشعر والفصاحة والنقد[٣]. ولذا فقد أمكن في أوائل القرن التاسع عشر، أن يظهر تعبير الأدب المقارن، الذي أوحى به فيما يبدو كتاب "كوفييه" الشهير "التشريح المقارن"، أو كتاب ديجيراندو "التاريخ المقارن للنظم الفلسفية". غير أن الذي أشاع الاصطلاح في فرنسا، هو من غير شك "أبيل فرانسوا فلمان" الذي نشر بحثاً بعنوان

(١) مفاهيم نقدية، رنيه ويلك، ترجمة محمد عصفور، ص٢٥٠

(٢) المرجع السابق، ص٢٥١

(٣) المرجع السابق، ص ٢٥٥

"صورة الأدب الفرنسي في القرن الثالث عشر"، وردت فيه تعبيرات مثل "صورة مقارنة" و دراسات مقارنة" و "تاريخ مقارن" إلى غير ذلك من المصطلحات[١]".

"وترجمت كلمة مقارن في ألمانيا، بكلمة "Vergleichend" في السياقات العلمية. ففي عام ١٧٩٥م كتب "غوته" مقالة بعنوان،" مخطط أولي لمقدمة عامة في التشريح المقارن". واستعمل "أوغست فلهلم شليغل"، اصطلاح "النحو المقارن". ولكنها واجهت صعوبات في الاندماج في الأدب، مردها إلى الأسباب نفسها ، التي وجدناها في اللغة الإنجليزية. جاء كتاب "كورتس كاريبره" المعنون "بجوهر الشعر وشكله" ليكون أول كتاب يستعمل اصطلاح تاريخ الأدب المقارن[٢]".

إشكالية المصطلح ومجالات البحث فيه:

لقد أثار استعمال مصطلح الأدب المقارن- مثله مثل الأدب العالمي- خلافات حول مجاله، وطرق البحث فيه. فبعد عرض موجز لتاريخ المصطلحات المستخدمة في اللغات الرئيسية، لاحظنا صعوبة تحديد مفهومه عند كثير من الأمم، مما أدى إلى تأخر دراسته، وقيامه كعلم مستقل. "و اختلف الأدباء والنقاد منذ القدم حول مصطلح "الأدب المقارن"، فهم يرون أنه غير دقيق في مدلوله على المعنى المراد، لأن الأدب المقارن هو منهج في الدراسة، وليس أدباً إبداعياً، والصواب أن يقال في المصطلح "الدراسة المقارنة للآداب [٣]".

يرى الدكتور محمد غنيمي هلال في كتابة "الأدب المقارن" أن تسميته بالأدب المقارن، فيها إضمار، إذ كان الأولى أن يُسمى "التاريخ المقارن للآداب" أو "تاريخ الآداب المقارن"، ولكنه

---

[١] المرجع السابق، ص ٢٥٧

[٢] المرجع السابق، ص٢٧٥

[٣] الأدب المقارن من منظور الأدب العربي مقدمة وتطبيق، عبد الحميد إبراهيم، ص ١٤

اشتهر باسم "الأدب المقارن". وهي تسمية ناقصة في مدلولها، ولكن إيجازها سهّل تناولها، فغلبت على كل تسمية أخرى(١).

وتتضح أهمية الأدب المقارن، في كونه ضرورياً لتاريخ الأدب والنقد، في معناهما الحديث، لأنه يكشف عن مصادر التيارات الفنية والفكرية للأدب القومي. "فكل أدب يلتقي حتماً في عصور نهضاته، بالآداب العالمية، ويتعاون معها في توجيه الوعي الإنساني أو القومي، ويكمل وينهض بهذا الالتقاء، ولكن مناهج الأدب المقارن، ومجالات بحثه مستقلة، عن مناهج تاريخ الأدب والنقد، لأنه يستلزم ثقافة خاصة، بها يستطاع التعمق في مواطن تلاقي العالمية(٢)".

"ولا تقف أهمية الأدب المقارن، عند حدود دراسة التيارات الفكرية، والأجناس الأدبية، والقضايا الإنسانية في الفن، بل إنه يكشف عن جوانب تأثر الكتّاب في الأدب القومي بالآداب العالمية(٣)".

بين القومية والوطنية:

إن الأدب المقارن مهما أوغل في عالميته، فهو يحمل في داخله مفهوماً قومياً، مكتوباً بلغة خاصة، وفكراً خاصاً ببلد معين. "فالعالمية والقومية يتداخلان في مفهوم الأدب المقارن، فهو يبدأ من نصوص مكتوبة بلغة قومية، قد تكون هي العربية، ثم يصعد فوق هذه النصوص، ليكتشف علاقتها مع نصوص كتبت بلغة أخرى، قد تكون هي الفرنسية(٤)". فالأدب المقارن، يقف على كل ما هو مشترك بين الآداب الإنسانية، و يتناول الموضوعات العامة، التي تعبر عن تجارب إنسانية متقاربة بين الأمم.

---

(١) الأدب المقارن، محمد غنيمي هلال، نهضة مصر للطباعة والنشر، ط٩ ، ٢٠٠٣م، ص١٣

(٢) المرجع السابق، ص١٤

(٣) المرجع السابق، ص ١٤

(٤) الأدب المقارن من منظور الأدب العربي مقدمة وتطبيق، عبد الحميد إبراهيم، ص ١٠

وهذا يختلف عن الدراسات التي توازن بين النصوص الأدبية، داخل اللغة الواحدة، كالدراسات الأدبية التي توازن بين شعر أبي تمام والبحتري وغيرها، فهذه دراسات داخل أسوار اللغة الواحدة. "فهي تهدف لاستثارة ذوق المتلقي، وتبين أوجه التلاقي والافتراق بين النصوص، وكشف أوجه التأثر والتأثير بين أديب وآخر(١)".

إن التأثر والتأثير بين الأدباء، لا يعني أن يذوب المبدع في الأدب الآخر، بل إن من أهم شروطه هو محافظة الأديب على أصالة أدبه القومي، وهو بذلك يختلف عن التقليد، الذي يتخلى فيه المبدع عن شخصيته الإبداعية، فيذوب في الأدب الآخر، وينقله بحذافيره، بدون أي إضافة تبرز شخصيته عن غيرها.

فنرى كثيراً من دارسي الأدب المقارن، يتتبع المراحل التي مر بها هذا الأدب، حتى اكتمل نموه، وأصبح علماً مستقلاً بذاته، له أدواته وأهدافه التي يسعى إليها، فأصبحت نتائج بحوثه عماد الأدب والنقد الحديث معاً. "فأقدم ظاهرة في تأثير أدب في أدب آخر، وأعظمها نتائج في القديم ما أثر به الأدب اليوناني، في الأدب الروماني، ففي عام ١٦٤ق. م انهزمت اليونان أمام روما، ولكنها ما لبثت أن جعلتها تابعة لها ثقافياً وأدبياً(٢)".

" وفي عصر النهضة "القرن الخامس عشر والسادس عشر"، كان للعرب دور في توجيه الأنظار إلى قيمة النصوص اليونانية، بترجماتهم لفلسفة اليونان وخاصة أرسطو، فعاد رجال الأدب إلى نظرية المحاكاة، محاكاة الأقدمين من يونانيين ولاتينيين. وفي القرن الثامن عشر، جد من العوامل ما كان حرياً أن يجعل من المقارنات العلم الأدبي المنشود. فتوثقت الصلات بين الآداب الأوروبية، أكثر مما كانت عليه في القرن السابع عشر، واشتد شوق الباحثين إلى التعرف

---

(١) المرجع السابق، ص ٩

(٢) الأدب المقارن، محمد غنيمي هلال، ص ٢٣

بآداب أخرى لم تكن معروفة، مثل أدب أهل شمال أوروبا، والأدبين الإنجليزي والألماني في فرنسا، وتعددت الرحلات وكثرت الترجمات(١)".

"وفي القرن التاسع عشر، كان هناك تقدم ملحوظ في البحوث العلمية، والحياة الاجتماعية، فتوفرت رغبة قوية في استيعاب نواحي البحث في العلوم الأدبية، وفي تعرف الشعوب بعضها ببعض. ونشأ عن ذلك كله اتجاهان عامان، أثرا في نشأة الأدب المقارن وفي نموه عن طريقين مختلفين هما: الحركة الرومانتيكية والنهضة العلمية(٢)".

مدارس الأدب المقارن:

المدرسة الفرنسية:

ثمة عدة تعريفات للأدب المقارن، نجدها في دراسات الباحثين المختصين فيه، نستطيع أن نفرق بها بين مدرستين أساسيتين في هذا المجال هما: المدرسة الفرنسية، وهي الأقدم والأكثر ذيوعاً، والمدرسة الأمريكية، التي تختلف في رؤيتها للأدب المقارن عن المدرسة الفرنسية.

يعرف محمد غنيمي هلال الأدب المقارن:" بأنه دراسة مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة، وصلاتها الكثيرة المعقدة، في حاضرها أو في ماضيها، وما لهذه الصلات التاريخية من تأثير أو تأثر، أيا كانت مظاهر ذلك التأثير أو التأثر: سواء تعلقت بالأصول الفنية العامة للأجناس والمذاهب الأدبية، أو التيارات الفكرية، أو اتصلت بطبيعة الموضوعات والمواقف والأشخاص التي تعالج أو تحاكى في الأدب، أو كانت تمس مسائل الصياغة الفنية،

(١) المرجع السابق، ص ٢٥

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠

والأفكار الجزئية في العمل الأدبي، أو كانت خاصة بصور البلاد المختلفة كما تنعكس في آداب الأمم الأخرى[١]".

أما عبد الحميد إبراهيم فيعرفه بقوله:" تقرير المتشابهات والاختلافات بين كاتبين أو مشهدين أو موضوعين من لغتين أو أكثر، فهذا هو نقطة البدء الضرورية التي تتيح لنا اكتشاف تأثر أو اقتباس أو غير ذلك، وتتيح لنا أن نفسر أثراً بأثر تفسيراً جزئياً [٢]".

أما محاولة ريماك لتوسيع مدلول الأدب المقارن فهي أوسع وأرحب فيقول: "إن الأدب المقارن هو دراسة الأدب بحيث تتعدى حدود القطر الواحد، ودراسة العلاقات القائمة بين الأدب من ناحية، وبين مجالي المعرفة والمعتقدات الأخرى مثل الفنون، والفلسفة، والتاريخ، والعلوم الاجتماعية، والعلوم البحثية والأديان[٣]".

نرى ارتباط المدرسة الفرنسية بالمنظور التاريخي للأدب، إذ يرى دارسو الأدب الأعمال الأدبية في صورة أعمال منتظمة في نسق تاريخي، ويطبقون مقولات التاريخ، وفلسفته، ومناهجه في دراساتهم الأدبية. ويشترطون وجود الصلات التاريخية، التي تثبت عمليات التأثر والتأثير بين الآداب المختلفة. "فتصبح أهمية الأدب المقارن من ثم، هي المساهمة في إعادة بناء الماضي، بالإخضاع المرن للأحداث المتداخلة، و الظاهرة المأخوذة عبر حركيتها الكاملة، حيث يتعلق الأمر بتحديد وجودها وأنماط انتقالاتها[٤]".

"وقد كان الباحث الفرنسي "جون جاك أمبير" من أوائل من نبهوا إلى الأهمية التاريخية، لدراسة الأدب المقارن، حين قال في محاضراته في السربون عام ١٨٣٢م "سنقوم أيها السادة

---

[١] الأدب المقارن، محمد غنيمي هلال، ص١٣

[٢]الأدب المقارن من منظور الأدب العربي مقدمة وتطبيق، عبد الحميد إبراهيم، ص ١١

[٣]مفاهيم نقدية، رينيه ويلك، ترجمة محمد عصفور، ص ٢٦٠

[٤] مدارس الأدب المقارن، سعيد علوش، المركز الثقافي العربي، ط١ ١٩٨٧م، ص ٥٩

بتلك الدراسات المقارنة، التي بدونها لا يكمل تاريخ الأدب". فلا يُعد من الأدب المقارن – بحسب المدرسة الفرنسية– ما يعقد من موازنات بين كتاب من آداب مختلفة، لم تقم بينهم صلات تاريخية، كمن يعقد موازنة بين الشاعر الإنجليزي "ملتن" والشاعر العربي أبي العلاء المعري، لأن كليهما أعمى، وأنتج خاضعاً لهذه العاهة، ثم على الأخص، لأن لكل منهما آراء متطرفة فيما يخص الدين. وذلك أن كلا الشاعرين لم يعرف الآخر، ولم يتأثر به، فتشابه آرائهما وظروفهما، أو مكانتهما الاجتماعية ليست لها قيمة تاريخية [١]".

المدرسة الأمريكية:

تزعمها عدد من الدارسين مثل هنري ريماك، و رينيه ويلك، وغيرهم. "الأدب المقارن عندهم هو دراسة أية ظاهرة أدبية، من وجهة نظر أكثر من أدب واحد في اتصاله أو عدم اتصاله بعلم واحد أو بأكثر من علم[٢]".

"ينتقد رينيه ويلك المدرسة الفرنسية، في اشتراطها ضرورة إثبات الصلات التاريخية بين الآداب، فلا يستطيع دارس الأدب المقارن بهذا المعنى الضيق أن يفعل أكثر من دراسة التأثيرات، والأسباب، والنتائج. ولن يكون قادراً على دراسة أي عمل أدبي مفرد، لا تربطه صلة تاريخية بعمل أخر، يتفقان في الموضوع، وفي التجربة الإنسانية. بالإضافة إلى رغبتها– أي المدرسة الفرنسية– في تنمية مدخرات أمة الباحث، عن طريق إثبات أكبر عدد ممكن من التأثيرات، التي أثرتها أمة في الشعوب الأخرى، أو عن طريق إثبات أن أمة الكاتب قد هضمت أعمال أحد العظماء الغرباء وفهمته، أكثر من أي أمة أخرى[٣].

---

[١] المرجع السابق، ص ١٥

[٢] انظر: http://abdulkareemokelan.maktoobblog مدارس الأدب المقارن

[٣] مفاهيم نقدية، رينيه ويلك، ترجمة محمد عصفور، ص ٣٠٣

لم تنشأ مدرسة عربية تتخذ طريقاً مميزاً لها، فتأخر ظهورها حتى الربع الثاني من هذا القرن، "فنشأتها لم تكن نتيجة لحركة فكرية، واتجاهات فلسفية، ومنحى علمي، ومنهج نقدي عميق، يؤمن أصحابها أن هذا العلم ضرورة ملحة لا غناء عنها، ولا محيد من الاستجابة إليها، بل هو نوع من التأثر بالجامعات الأوروبية. ولكن الحاجة الفكرية والعلمية والفنية إلى هذا العلم كانت قوية، بحيث أظهر النقاد ذوو الثقافات الغربية، مدى حاجتنا إلى الدراسات الأدبية المقارنة، لتمييز عناصره الأصيلة، من عناصره الدخيلة عليه[١]".

ثم تزايد الاهتمام بهذا العلم شيئاً فشيئاً، وصار له رواد مختصون فيه، يسعون لجعله يتبوأ المكانة التي يستحقها بين العلوم في جامعاتنا العربية. يعيب عبد الحميد إبراهيم في كتابه "الأدب المقارن من منظور الأدب العربي"، ميل الدراسات المقارنة، في مصر والعالم العربي، إلى التركيز على تأثر العرب بغيرهم، وخاصة بالكتاب الأوربيين، ولم تعط مثل هذا الاهتمام للجانب الآخر، الذي يركز على تأثير العرب في غيرهم، من كتاب الشعوب الأخرى. وانطلقوا يبحثون عن مصدر لكل أديب عربي، فطه حسين هو فولتير الشرق، والعقاد هو كوليردج، والحكيم هو أفلاطون، وصلاح عبد الصبور هو إليوت. ويؤكد على أن تأصيل الأدب المقارن في العالم العربي، يتطلب قدراً مماثلا من الاهتمام بالصورة الأخرى، فوجب على الباحث أن يصحح الوضع، ويستكمل الصورة، ويحقق الموضوعية التي تستغرق الجوانب كافة[٢]".

---

[١] الأدب المقارن، محمد غنيمي هلال، ص ٧٣

[٢] الأدب المقارن من منظور الأدب العربي مقدمة وتطبيق، عبد الحميد إبراهيم، ص ١٧

الفصل الأول: جدلية الأدب بين الاستقلال والاستغلال

المبحث الأول : مدى تأثير الصراع السياسي والحروب في الإبداع الأدبي العربي والغربي.

المبحث الثاني: الاتجاه القومي في الروايات العربية والإنجليزية.

المبحث الثالث: قضايا وموضوعات إنسانية في الروايتين العربية والإنجليزية.

المبحث الأول:

مدى تأثير الصراع السياسي والحروب في الإبداع العربي والغربي :

إن الأدب نتاج عقول ومشاعر إنسانية، تتأثر – بطبيعة الحال – بالعوامل المحيطة بها. فقد يتغير طابع الأدب، شعراً ونثراً، من حزن إلى فرح، ومن تفاؤل إلى تشاؤم. فيستطيع به الأديب نقل القارئ إلى تجارب إنسانية ومشاعر متضاربة، تعكس حيرته وقلقه لقاء ما يصادفه في حياته من تجارب أثّرت في إبداعه. فالأديب كالمصور اليقظ الذي يصور أبرز ما يجري على الساحة، يطرح رؤيته واستقراءه للحدث، وقد يكشف عن نبوءات مستقبلية لواقع الصراع وصيرورته. ولكن هل تُصنف الروايات التي تتناول القضية الفلسطينية بأنها سياسية بالدرجة الأولى أم أنها تبتعد عن لغة السياسة المضللة وتخاطب إنسانية الإنسان ؟

الحروب من أقوى ما يؤثر في إبداع الأديب، فيحاول الأديب أن يمد القارئ بخيط يصله بالأحداث الدموية البشعة، فكأنه حاضر في المعركة، وشاهد على ما يجري هناك، ينقل المبدع هذه المشاهد بلغة أدبية بعيدة كل البعد عن التقرير والمباشرة.

تأخذنا الروايات – محل الدراسة – إلى عمق النفس الإنسانية، لتترجم معاناتها وتنقل مشاعرها المتأرجحة بين الحزن والإحباط والمقاومة والتفاؤل بغدٍ أفضل. أدى الصراع بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي إلى مناقشة تداعيات هذه الحروب، وأسبابها، ونتائجها، وتأثيراتها في كل من يُشارك فيها أو يكون ضحيتها، بلغة فنية تدمج بين جمال الأدب وإمكانياته اللغوية، وبين القضية الأكثر دموية على مدار عقود.

كان للصراع في تلك البقعة المحدودة جغرافياً تأثير في الإبداع العربي و الغربي . فقد اكتسبت فلسطين أهمية منذ القدم لكونها ملتقى الأديان الثلاثة، وتعاقب عليها الفاتحون عبر

التاريخ، "ولكن الوجود العربي كان هو الأطول، وهو الذي خلّف حضارة وثقافة بقيت مئات السنين، إلى أن جاء الآخر اليهودي محاولاً محوها وإزالة كل ما يشير إليها[١]".

كان أدب المقاومة نتيجة حتمية للحرب العربية الإسرائيلية، "فللكلمة تأثير يساوي تأثير الرصاص، ولها حرية الانطلاق في الفضاءات، فلا يستطيع المحتل قتلها أو سجنها ومصادرتها[٢]".

"أدب المقاومة هو ذلك الأدب المعبر عن الذات الجمعية الرافضة للحرب في مواجهة الآخر المغتصب، فيضع الكاتب نصب عينيه أمته وآمالها وتطلعاتها وتوقها للحرية، محافظاً على القيم والتقاليد التي تؤمن بها، كاشفاً للعدو، ومبيناً لأخطاره وأخطائه[٣]". فأدب المقاومة لا يُعلم الناس السلوك بطريقة مباشرة، بل يحثهم على الحصول على الحرية ورفض الظلم، يظهر ذلك في إشارات واضحة يبثها الكاتب للقارئ بين السطور .

إن المقاومة المسلحة ثمرة لزراعة ضاربة جذورها في عمق الأرض، وإذا كان التحرير ينبع من فوهة البندقية، فإن البندقية تنبع من إرادة التحرير، وإرادة التحرير ليست سوى نتاج طبيعي ومنطقي وحتمي للمقاومة. فتتخذ المقاومة شكلاً في العمل السياسي والعمل الثقافي، ومن هنا فإن الشكل الثقافي في المقاومة يطرح أهمية قصوى، ليست أبدا أقل قيمة من المقاومة المسلحة ذاتها[٤].

---

[١] انظر : حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكبة، عبد الرحمن ياغي، المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت، ص ٣٩

[٢] انظر : الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨م – ١٩٦٨م غسان كنفاني، الطبعة الثالثة، مؤسسة الأبحاث العربية، ص ٩

[٣] المرجع السابق، ص ١٠

[٤] المرجع السابق، ص ١٢

إن الأدب هو نشاط إنساني يقاوم عوامل الضعف والخور التي تلم بالنفس البشرية في لحظات الانكسار، فليس هناك أيّ عمل أدبي جاد في تاريخ الإنسان القديم والحديث يمكنه أن يخلو من هذه السمة البارزة وهي المقاومة[١]. فهو يتناول وجهاً من وجوه الصراع، بين الكون والطبيعة والإنسان، أو بين الإنسان والإنسان. ومن أهم ما يميز هذا اللون من ألوان الأدب هو أنه من عوامل التجمّع لا من عوامل التفرقة، ويركز على شحذ الهمم لمقاومة الواقع والثورة عليه. ويتصف بإنسانيته وشموليته واختراقه لغلاف القومية الضيق، واستحضاره لنماذج تدل على الانتصار والتضحية والصبر وعدم الاستسلام للواقع الرديء المعيش .

يُساوي غسان كنفاني في روايته أم سعد بين الأم التي ترسل أبناءها لساحة المعركة ليقاتلوا العدو، وبين الكاتب الذي يرسل كلماته للملأ، كلاهما يسعى للهدف نفسه، وهو الدفاع عن الوطن "أنت تكتب رأيك، أنا لا أعرف الكتابة، ولكنني أرسلت ابني إلى هناك، قلت بذلك ما تقوله أنت، أليس كذلك[٢]".

يسعى الاحتلال لإضعاف الناس، فكان لابد من وجود الأدب الذي يُناقش القضية، وينشر معاناة الشعب، ويسعى لإذكاء روح المقاومة، و يساعد القارئ على الفهم الواعي للقضية التي يدافع عنها، و بلورة مفاهيم وقدرات المقاومة في مواجهة الآخر المغتصب .

يختلف أدب الحرب "Literature of War" عن أدب المقاومة "Resistance Literature" في تركيزه على التأريخ للحرب بعد انتهائها وتناوله لأحداث أمة قومية محددة، وما أحدثته الحرب فيها. " إن وجود الروايات التي تسجل وقائع الحرب وتؤرخ الأحداث مهم جداً، فهي تقدم لنا قصصاً ومواقف للمقاتلين أثناء المعارك وبعدها، حتى تجعل القارئ يعيش

---

(١) أدب المقاومة ، غالي شكري، دار المعارف، ١٩٧٠م، ص ٧

(٢) أم سعد، غسان كنفاني، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٤، ص ٣٣

تفاصيل تلك الأحداث ويتفاعل مع شخصياتها. يحاول الروائي ترجمة آثار هذه الحروب على الإنسان، وما أحدثته فيه من شروخ نفسية يصعب التئامها. والأهم من ذلك هو طرحها لسؤال وجودي مهم عن سبب هذه الحروب؟ وماذا يريد منها المجتمع والمقاتلون [١] ؟"

عمد كنفاني لتصوير الطبقة الفقيرة، التي ذاقت ويلات الحرب، ودفعت الثمن غالياً، نقل همومهم، وحجم تضحياتهم، ومعاناتهم، ثم تنبأ بمستقبل أكثر إشراقاً في آخرها، بعد ذهاب سعد للمقاومة، وقيام أطفال المخيم بالتدريب للحرب، عندها فقط برعمت الدالية [٢]. بعد أن جعل شخصيات الرواية ترفض الظلم وتسعى للحرية وتقاتل من أجلها، تغير الوضع المأساوي، فبدت بارقة أمل تلوح في الأفق . يستخلص القارئ من الرواية أهمية المقاومة، وأنها الوحيدة القادرة على قلب المعادلة غير المنصفة، "لو هيك من الأول ما كان صار لنا شيء[٣]".

تذكر أم سعد قصتها مع صاحب العمارة، فقد كانت تعمل في إحدى العمارات الكبيرة وسط المدينة، إذ مضت لمدة شهر وثلاثة أيام تنظف الدرج والمدخل، وتأخذ في كل مرة خمس ليرات، وذات يوم وهي تغسل الدرج كعادتها إذا بامرأة تقف خلفها، سألتها أم سعد عن حاجتها فقالت: كنت أنظف هذا الدرج ثلاث مرات في الجمعة، وقبل شهر جاء الخواجة وقال لي مع السلامة " سألت المرأة أم سعد، كم يعطونك؟ خمس ليرات يختي، قالت المرأة كانوا يعطوني سبع ليرات، أنا امرأة عندي أربعة أولاد، وقالوا لي سبع ليرات كثير[٤]". تركت أم سعد العمل في العمارة للمرأة. و بينما كانت تحكي للراوي ما حدث خطر لها خاطر " لو أنا والحرمة والناطور قلنا

---

(١) Literature of War , www.litofwar.wordpress.com

(٢) أم سعد، غسان كنفاني، ص ٧٢

(٣) الرواية السابقة، ص ٦٩

(٤) الرواية السابقة، ص ٥٨

للخواجة ..". ثم صمتت. في إشارة لرفض المساومة والظلم من الخواجا، الذي يرمز للآخر المستغل لحاجة الشعب فيضطهدهم اقتصادياً .

أصبحت المقاومة بكل تفريعاتها، وأشكالها، والدعوة إليها، أحد أبرز تأثيرات الصراع على الإبداع العربي. تقول أم سعد للراوي: "أنا لم أتناول فطوري، أنتظر شيئاً يفتح شهيتي ليس للأكل فحسب، بل للحياة أيضاً، ليس ثمة من يستطيع أن يفعل ذلك إلا سعد [١]". سعد يمثل الجيل الجديد الذي يعقد عليه السابقون الأمل في إعادة الثورة وتحقيق النصر بالكفاح المسلح والعودة للوطن .

"وأنت ؟ ماذا ستفعل يا ابن العم؟ عشرون سنة مضت وأمس تذكرتك وأنا أسمع في الليل أن الحرب انتهت، وقلت لنفسي يجب أن أزوره"[٢]، وأخبرته أن سعد في الحبس، وأن المختار غاضب منه لأنه لم يحترمه وقال له يابني، ورفض توقيع ورقة يتعهد فيها أن يكون آدمي ! قال لها المثقف: "والآن ماذا سيفعل سعد ألم يكن خروجه من السجن أفضل؟ وقفت، ونظرت إليّ باسمة على ركن شفتيها، وقالت: طيب أنت غير محبوس، فماذا ستفعل[٣]؟" حبس سعد هو حبس مادي يمنعه من الخروج والانضمام للمقاومة، أما حبس المثقف، هو عدم قدرته على الكتابة عن الواقع المزري وحشد الرأي العام لرفضه، في إشارة لدور الأدباء وحملة الأقلام في المقاومة على طريقتهم.

كل الإشارات في الرواية تحث القارئ بطريقة غير مباشره على العمل والتحرك للمقاومة كلاً حسب قدرته ومجاله .

---

(١) الرواية السابقة، ص ١٩

(٢) الرواية السابقة، ص ٢٠

(٣) الرواية السابقة، ص ٢٢

أَرغم الصراع الإنساني الأدباء والكتّاب على مراقبة الواقع والكتابة عنه في محاولة لتحليله. فكانت الكتابة الأدبية عنصراً جوهرياً في المقاومة، عند إبراهيم نصر الله – وهو كاتب وشاعر وأديب من مواليد عمّان،الأردن، من أبوين فلسطينيين– في روايته "أعراس آمنة"، فهذه حرب طويلة، ولابد من معرفة ما هي أكثر الأساليب فاعلية في مواجهتها. تقول رندة: " إنني أجمع الحكايات الواحدة تلو الأخرى حكايات صغيرة، بعضها أسمعه، وبعضها أعيشه، وبعضها أقصه من صفحات الجرائد. وأظل أتساءل ما الذي يفعله كتابنا اليوم، لماذا لا يكتبون عن ذلك كله؟ عندها قررت أن أكتب ما أراه وأُلقي به ذات يوم بين يدي كاتب، أو أفتش عن قبر غسان كنفاني، وأقول له قم واكتب هذه الحكايات، الحكايات اليتيمة التي لا يكتبها أحد. فالحكاية التي لا نكتبها أتعرف ماذا يكون مصيرها ؟ إنها تصبح ملكاً لأعدائنا "[١].

إن كتابة ما يجري مهم جداً للأجيال اللاحقة التي استفاقت على النكبة ولم تعش تفاصيلها، توثق حتى لا تزور الحقائق، بل تُنسى لأن أصحاب الحق في نشرها فرطوا في ذلك .

تتفق الكاتبة [٢] "Dixiane Hallaj" في روايتها "Refugee Without Refuge" "لاجئ بلا ملجأ" مع إبراهيم نصر الله في أهمية الاتجاه للكتابة، لتوضيح الحقائق، ولكشف الستار عما يجري في الأرض المحتلة، وعلى أهمية الدور الذي يقع على عاتق الأدباء والكتّاب في توضيح الرؤية وإزالة اللبس. أشارت إلى وعي كريمة بالقضية، وأنها تدرك تماماً دور الرأي العام ،" Worldwide Public Opinion" في دعم القضية الفلسطينية. فالعالم خارج حدود

---

[١] أعراس آمنة، إبراهيم نصر الله، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٩، ص ٦٣

[٢] Refugee Without Refuge , Dixiane Hallaj ,2011 عاشت الكاتبة جزءاً" من حياتها في الأردن، متزوجة من رجل له أصول عربية ، قدمت للضفة الغربية وزارت المخيمات ، وسمعت الكثير من القصص التي شكلت النواة لروايتها .

الوطن العربي قلما يعرفون حقيقة الأوضاع والصراع في الأراضي المحتلة، من هنا جاءت أهمية الكتابة عن ذلك .

كانت كريمة تجمع الصحف وتقرأ الأخبار، التي غالباً ما تكون غير صحيحة ومنقوصة، و بها الكثير من المغالطات. كالحادثة التي قرأتها في إحدى الصحف الغربية عن مقتل طفل إسرائيلي عمره ستة عشر عاماً على يد "إرهابي" فلسطيني، لم يذكر الخبر دخول هذا الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية حاملاً مسدساً. تكره كريمة تصوير الغرب للحادثة حسب تصورهم لما يجري، لا كما هو الواقع على الأرض، ستة عشر سنة ليس طفلاً في هذه البقعة من العالم، فالطفل هنا مطالب بأن يتخلى عن طفولته سريعاً، حتى يستطيع التكيف مع الأوضاع الدموية [١].

يتحمل الكاتب مسؤولية تفرض عليه أن يجمع كل ما فُقد وضاع لدى الناس، ولدى الأماكن، لدى الأحداث، بل لدى اللغة، ليصنع من ذلك كله نسيجاً أو شبكة علاقات، أو تشكيلاً روائياً، ليحفظه من الضياع ثانية[٢]. فكل قصة تروى يشعر القارئ أن خلفها مئات القصص و الحكايا التي لا تتسع لها الرواية، فيُطلق خياله ليتصور الحكايات غير المكتوبة، كيف سيكون شكلها.

تطرح رواية AL Naqba by Barbara Goldscheider[٣] " النكبة" موضوع أهمية الكتابة نتيجة للصراع، ولكن باتجاه مختلف. فبينما كان اتجاه الرواية العربية التحريض على مقاومة المحتل وعدم الرضوخ له، كان الاتجاه في هذه الرواية إلى الكتابة عن بشاعة الحرب

---

[١] Refugee Without Refuge , Dixiane Hallaj ,copyright 2011, 29

[٢] انظر : الاغتراب والمقاومة ، حسن عليان، سلسلة كتب ثقافية تصدرها وزارة الثقافة الأردنية، ٢٠٠٥م، ص ١٩٨

[٣] Barbara Goldscheider ، كاتبة إسرائيلية أمريكية، عاشت فتره من حياتها في إسرائيل، متخصصة في الأدب الإنجليزي .

وما تخلفه من مآسٍ، وأن هناك أَيدي خفية وراء عدم انتهاء الصراع بين الطرفين والاتجاه للسلام، وأن الوضع إذا استمر على ما هو عليه فلا يُستبعد استخدام الأسلحة النووية، نتيجة طبيعية للتصعيد المستمر، وسيدمر الإنسان الأرض بدلاً من الاستمتاع بالعيش فيها، كل هذه الأفكار ينوي البروفسور "David" مناقشتها بشكل موسّع في كتابه، فهو يسعى لتجلية الحقائق للناس، حتى يجعلهم يفكرون بشكل جدي في السلام وينعم العالم بأكمله بالأمن والاستقرار[١] .

وُجد في الروايات – محل الدراسة – نقد للذات " Self-criticism" فالنقد هو أول المراحل للتحرر من الأخطاء والتطهّر منها[٢]. أعطت الحرب للأديب بعداً فكرياً جعله ينظر للنزاع من زوايا متعددة، في محاولة لتلمّس أسباب الهزيمة والعار .

صورت الكاتبة "Barbara Goldscheider" الحيرة السياسية التي خلفتها الحروب، لافتقارها للمنطق السليم، الذي أدى بدوره إلى اغتراب الإنسان عن ذاته، وعن مجتمعه، بأفكاره ومعتقداته، نتيجة رفضه لهذه السياسات. كان الضابط "Neyri" يستهجن سياسة بلده التعسفية ضد الآخر الفلسطيني، فقد غيّرت سياسة حكومته من معنى الحرب، لأنها صوبت أسلحتها تجاه المواطنين الفلسطينيين قتلاً وسفكاً وهدماً وطرداً. ترك الخدمة العسكرية رفضاً لهذا الواقع المختل، ورغبة في الخروج من دائرة العنف، التي لم تحقق نصراً لأحد، في محاولة منه للبحث عن حلول فردية بعد عجز دولته عن تحقيق السلام [٣].

اتخذت الكاتبة من نقد الذات الإسرائيلية، لسياسة حكومتها أداة لكشف ورصد ما نتج عنه الصراع بين الطرفين. يعبر "Neyri" لصديقة "Arnie" في رسالة عن الأوضاع التي آلت إليها دولته، التي لم تعد تُحقق مطالب الشعب الإسرائيلي، الباحث عن الأمان والاستقرار، أقتبس

[١] الرواية السابقة، ص ٧٥

[٢] نقد الذات في الرواية الفلسطينية، مصطفى عبد الغني، سينا للنشر، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، ص ٧

[٣] AL Naqba , Barbara Goldscheder,Frog, Ltd, Berkeley, California,p77

في رسالته من كتاب لأحد أساتذة العلاقات الدولية البروفسور " Yehoshofat Harkabi" ، حاول في كتابه شرح أسباب تدهور إسرائيل، وعدم قدرتها على إنهاء العنف المستمر منذ عقود، فيقول:" إن سياسة دولته، المتمثلة في فرض الحصار على المناطق الفلسطينية، يدفعها للسير في الاتجاه الخاطئ. لأن هذه الممارسات من شأنها أن تؤجج الثورة والمقاومة من الجانب الفلسطيني، وتقود الطرفين لمزيد من العنف والقتل. فينعكس ذلك بطبيعة الحال على المجتمع الإسرائيلي، الذي يُعاني من التدهور في كافة المجالات، الاقتصادية، والاجتماعية، والعلمية، وغيرها. لقد غيرت الحروب الطويلة مع العرب مقاصد الصهيونية ومبادئها، التي كسبت بها اجتماع اليهود في قومية يهودية يعتزون بها. فبعد أن كانوا مثالاً يُحتذى في القوة ورغبة العمل لبناء دولتهم، أصبحوا يحتقرون الأعمال التي تتطلب جهداً حركياً ويصفونها "بأعمال العرب القذرة ". وبعد أن كانوا أمة واحدة متماسكة، فرّقت السياسات والمطامع المادية بينهم، فأصبحوا فرقاً شتى. وبعد أن كان الجنود مصدر أمان وفخر لشعبهم، بامتلاكهم أدبيات الحرب من شجاعة وكره الظلم وقتل المستضعفين، أصبح سلاحهم يوجه للمدنيين الفلسطينيين من النساء والأطفال بالقتل والإرهاب كمجزرة صبرا وشاتيلا ودير ياسين وغيرها" [١].

يذكر "Neyri" أن انتصاراتهم في حرب الاستقلال "War of Independence" وما بعدها لم تجلب للإسرائيليين السعادة والراحة التي كانوا يأملونها، بل قُلبت الفرحة إلى كوابيس مفزعة للإسرائيلي، الذي ظل مشغولاً بفرض الحصار على الفلسطيني، وقلب حياته إلى جحيم لا يُطاق، بإحكام سيطرته عليه تحت الحصار، فكانت النتيجة هي الثورة وانطلاق الانتفاضة، التي خلفت مئات القتلى والمصابين في كلا الطرفين[٢] .

[١] الرواية السابقة، ص ٨٩

[٢] الرواية السابقة، ص ٨٩

كما ينتقد حرب ١٩٧٣م في لبنان، و يصفها بأنها حرب شخصية بين قائدين من القوات الإسرائيلية، ولم تجلب للدولة إلا الخسائر المادية والبشرية، وكانت سبباً في الاستقالات الجماعية بين الضباط والجنود الإسرائيليين تعبيراً عن رفضهم للحرب، واستمرار سياسة دولتهم الخاطئة التي قادتهم للدخول في نفق مظلم يصعب الخروج منه [١].

تسعى الرواية العربية – محل الدراسة – إلى تسليط الضوء على المشكلات التي كانت وليدة الحروب، بحكم احتكاك الأديب بها وإدراكه لدوره في مواجهتها، والتزامه بالتعبير عن واقعه وقضايا شعبه .

إن إدانة الذات نوع من الحفاظ عليها من إدانة أشد وطأة، هذا ما جعل الكاتبة سحر خليفة –وهي واحدة من أهم الروائيين الفلسطينيين، ولدت في نابلس سنة١٩٤١م– تنتقد في روايتها "ربيع حار" الواقع الفلسطيني بكلمات ملتهبة، وتطرح أفكارها ورؤاها من خلال الشخصيات وتحليلاتهم للمواقف المختلفة. يمثل والد مجيد العدسة المصورة والمكبرة للواقع وتناقضاته، فنراه غاضباً من ابنه "مجيد" المستهتر الذي لا تهمه القضية، وكل همّه الغناء والملابس وأصدقاء الجامعة، فهو يدرك تماماً أن الطريقة التي استطاع بها العدو السيطرة على ملياري مسلم هي "الغزو الثقافي ".

" كتب كثيراً عن هذا الجيل و ميوعته، وعن مستوى الوعي وهبوطه، وعن انتشار الفساد بين الطلبة، وعن إسرائيل تعبث بالجيل الجديد، بتسويق العهر، والعمالة، وتهريب الإيدز، والمخدرات، والسلاح الرخيص، ولم يكتفوا بأسواقنا نحن بل الأسواق العربية، وها هي أجيال تلو أجيال تحصد العار والهزيمة، فكيف إذاً نخلص منهم ؟ كيف نرتاح ؟ "[٢]

---

[١] الرواية السابقة، ص ٨٩

[٢] ربيع حار، سحر خليفة، دار الآداب للنشر، بيروت، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤، ص ٥٨

ينتقد والد مجيد الوضع الكلي لحال المجتمع، وتدهور مستواه العلمي والثقافي، وتحول الاهتمامات من قضية مصير وطن وشعب وأمة وكرامة، إلى أمور تافهة خلقتها الدعاية والإعلام، وعلّقت بها قلوب أجيال بأكملها وأنستهم الثورة والحرية. كانت هواية ابنه مجيد الغناء، وعند حضوره لحفل الجامعة وغنائه، بوجود الصحافة، وطلاب الجامعة، ووالده، والدبابات الإسرائيلية، قابله الجمهور بالتصفيق والتصفير" قسّم قسّم يا ابن الثورة، يا ابن الشجعان ..." وضع والده رأسه بين كفيه، ماذا يسمع؟ صحيح أن نجاح ابنه أمر يسعده، لكن الوطن والشعب، الثورة والإيمان! ولده فنان مرهف ولكنه ليس الثورة، وحلم الثورة، ومحرر البلد والأوطان، هو ليس القسّام، ورث اسمه بالصدفة، وهو ليس ابن المخيم . لكن الناس وعقول الناس !![1] . فمجيد لا يحمل في عروقه دم القضية ونبضها، مع صبر وجلد وإيمان بالنصر كأجداده، فقد غطى نسيانه، كما هو حال جيله، على المعرفة الموجعة .

عمدت "سحر خليفة" إلى تعرية المجتمع وكشف مساوئه وخباياه. فعملاء إسرائيل، المتاجرون بالقضية أصحاب الشعارات والخطب الرنانة، هم المسئولون عن ضياع الوطن." كان الوشمي أحد هؤلاء العملاء، فقد قُتل والده قبل ذلك برصاصة مجهولة كما صرح، وبرصاصة الثورة التي رأت فيه محتالاً يتاجر بالقضية[2]". مثل هؤلاء هم الذين فرقوا وحدة المقاومة وأضعفوها، وأربكوا تفكير البسطاء، وباعوا وطنهم مقابل الجاه والسلطة .

إن نقد الذات يجعل الإنسان يرى نفسه بوضوح، و يعترف بأخطائه ويحاول تجاوزها إلى مرحلة أخرى يكون فيها متحرراً منها. فهل نقد الذات هو نفسه عقدة الذنب؟ وعندما يلجأ الروائي العربي لنقد الذات العربية هل دافعه لذلك هو عقدة الذنب بسبب تقصيره تجاه القضية ؟

---

[1] انظر: الرواية السابقة، ص ٩٥

[2] الرواية السابقة، ص ٨٢

في الأدب المعالج للقضية عرف ما يُسمى بنقد الذات، وليس هذا معناه عقدة الذنب، لأن عقدة الذنب "Guilt"موجودة في الأدب اليهودي الذي يحاول تبرير جرائمه ضد الفلسطينيين منذ عام ١٩٤٨م . يغير نقد الذات من قناعات الكاتب ومن ثم قناعة القارئ حين يوقن أن سبب الهزيمة وضياع البلاد يرتبط بنا أولاً قبل أن يرتبط بالآخر الغربي – الإسرائيلي [١].

يدخل في نقد الذات، نقد سلوكيات أفراد المجتمع بعامة، وليس أشخاصاً بعينهم، ونقد السياسات والقرارات التي هي بطبيعة الحال تؤثر على الأشخاص، فالشخصيات نفسها لا تهم، بل المهم هو القضية .

تعرضت الكاتبة لموضوع المقاومة المسلّحة بالنقد، فنرى سعاد تنتقد السلطة، في عدم إدراكها لحجم الحرب، التي جرت إليها الشعب الفلسطيني. "عشان إحنا صغار وظهرنا ضعيف كان لازم نتكتك بشطارة، مش نركب موجه مش قدها، لا أنا ولا أنت ولا السلطة، السلطة غلطت وقادتنا لهذي المأساة. حملنا سلاحاً أكبر منّا، وطرحنا شعارات أضخم منّا، وعملنا عمليات أعطتهم غطاء لكل فظاعتهم، ولو كنا شاطرين كنا فهمنا أن حمل السلاح والعمليات بهذا الواقع مش هذا السلاح المناسب"[٢].

فهم الآخر هو جزء من فهم الذات، فكان من الضروري محاولة فهم الآخر الإسرائيلي، حتى يسهل التعامل معه والتنبؤ بأخطاره. فمن الواجب على المثقفين العرب دراسة العقلية اليهودية والمكونات النفسية والشخصية لهذه الأمة.

وجد أيضاً ما يُسمى بنقد الآخر، فالآخر يختلف عن الذات، فكرياً، أو دينياً، أو ثقافياً، ويقصد به تعريف الآخر بخطئه وتوجيهه لإصلاحه، في محاولة لكسبه وتغيير قناعاته.

[١] نقد الذات في الرواية الفلسطينية، مصطفى عبد الغني، ص ١٨

[٢] ربيع حار، سحر خليفة، ص ٣٤١

فالأمريكية "Jacky" في رواية AL Naqba كانت تنتقد عدم رغبة الفلسطيني بالسلام، وتحريضه الدائم على كره اليهود، وعدم تقبله فكرة التعايش بسلام مع الإسرائيلي. ففي حوارها مع الفلسطيني عيسى كانت تقول: لماذا لا يوجد بين الفلسطينيين دعاة للسلام كما يوجد بين الإسرائيليين؟ ولماذا تتضمن المناهج التعليمية الفلسطينية كلمات مناهضة لليهود، وتدعو لعدم تقبل الآخر اليهودي، وتصفهم بالمتوحشين؟

تقول "Jacky" : إن العالم يصف الإسرائيليين بصفات كثيرة، من ضمنها أنهم طردوا الفلسطينيين من ديارهم واستولوا عليها، وانتهكوا حقوقهم، لكنها ترى أنه في هذه المرحلة لم يعد من المجدي معرفة من هو المخطئ ومن هو المصيب، فكلا الجانبين عانى ويلات الحروب، من قتل وتدمير وإرهاب، لا أحد منتصر هنا، إن ما يهمّ الآن هو إيقاف شلال الدماء(١).

أما عقدة الذنب: فهي الشعور القوي باستصغار الذات، واحتقارها، نتيجة القيام بعمل لا يرضاه دين، ولا عرف، ولا إنسانية." يرى علماء النفس أنها تعكس لدى صاحبها انفعالاً لا شعورياً كامناً في الأعماق، يولد حساً بضرورة الخلاص منه. وفي حالة استمرار هذه الحالة الضاغطة العنيفة، يتولد حساً آخر يقترن بالتبرير ومحاولة سوق الحجة تلو الحجة للخلاص(٢)". فنجد أن عقدة الذنب موجودة عند الشخصيات الإسرائيلية موضع الدراسة، فكان إحساسه بالذنب نتيجة لإحساسه بالنقص. " فالأحاسيس المزمنة بالذنب و بعدم القدرة، وبعدم الاكتمال، وبعدم الكفاية وبالفشل، وبعدم الضمانة، والمجابهة، وكل متغيراتها المتعددة، ليست سوى تحولات متعددة لعقدة النقص التي يجري التعويض عنها بأي شيء(٣)".

---

(١) AL Naqba , Barbara Goldscheider , 135

(٢) في نقد الذات في الرواية الفلسطينية، مصطفى عبد الغني، ص ١٧

(٣) العقد النفسية، روجيه موكيالي، منشورات عويدات ، بيروت، ١٩٨٨م، ص٣٠

في رواية Destined to Die by Victor Sasson " الطريق للموت" يمر الضابط بصراع نفسي داخلي، عند قدومه لهدم منزل عائلة أحد المقاومين، فهو يعلم أن العائلة لا ذنب لها، وأن هذا الحكم جائر وغير عادل، ولكن عمله في الجيش يُحتم عليه طاعة قيادته وتنفيذ الأوامر، لا ينساق كثيراً وراء عواطفه، لأن ما حصل له ولعائلته في ألمانيا وهو صغير من اضطهاد وظلم على يد النازيين لا يزال ماثلاً أمام عينيه [١]. إن عدم قدرته على تجاوز هذه المواقف المؤلمة التي عانى منها قديماً، "جعله يقترب من حالة يصفها علماء النفس بالموقف الاكتئابي[٢] "Depressive Position". فكأن تذكره لما لاقاه على يد الألمان هو المعادل النفسي الذي يبرر له أعماله، ويخفف عنه قيامه بالجرائم ضد الفلسطينيين .

كانت الصراعات المستمرة، وما ينجم عنها من انتهاك لحقوق الفلسطينيين، وما يمارسه الجنود فيها من فظاعة يندى لها جبين الإنسانية، السبب في تكوين الشخصية العصابية عند الضابط "Rosenberg"، فعند رجوعه للبيت يبدأ في نوبة من الاضطراب النفسي، سببها التفكير فيما فعله في السجين نبيل، كان يشتمه، ويأمر بضربه، ويمارس عليه سلطته، ويتلذذ بتعذيبه جسدياً ونفسياً، يُخيره بين قطع أصابعه، أو خلع أظفاره، أودع والده السجن، لممارسة الضغط النفسي عليه، يتذكر دائماً كيف عذبه النازيون وقتلوا والديه وأهانوه وضربوه، بل إنه يستعمل اليوم الكلمات ذاتها التي استعملها المحقق الألماني سابقاً. ترفض نفسه الإنسانية ما يقوم به من ظلم وتعذيب للمساجين، فهو يُدمي ذاته ويؤذيها، ولكي ينسى هذا الألم فإنه يزيد من

---

[١] Destin to Die by Victor Sasson ,iuniverse,inc ,2004 كاتب بريطاني له أصول عربية، عاش فتره من حياته في بغداد، حاصل على شهادة في الأدب الإنجليزي من جامعة لندن، له أربع روايات، وكانت روايته هذه "الاتجاه للموت" تناقش القضية الفلسطينية .

[٢] في نقد الذات في الرواية الفلسطينية، مصطفى عبد الغني، ص ١٩

تعذيب الغير، فبعد كل جريمة يقوم بجريمة أكبر يحاول بها إخفاء ما سبقها، مبرراً لنفسه دائماً ما لاقاه اليهود على يد النازيين قديماً من قتل وإرهاب وتشريد في البلاد [١].

أدى الصراع إلى طرح أسئلة وجودية عميقة، تحتاج إلى تفكير وإعادة نظر في التاريخ، ومحاولة فهمه في الروايات الإنجليزية. قد تكون هذه التساؤلات مربكة ومشوشة لذهن القارئ، الذي قد تلتبس عنده الأمور، فمن هو اللاجئ ؟ هل هو الفلسطيني الذي طُرد من أرضه واتجه للغربة والشتات، أم هو الإسرائيلي العائد من منفاه لأرض الوطن ؟

ركز الآخر الإسرائيلي على حقه في الأرض التي وعد بها من الرب، و أنه كان لاجئاً طوال سنوات حياته في الدول الغربية المختلفة، إلى أن سنحت له الفرصة من جديد للرجوع إلى فلسطين.إن العودة إلى أرض صهيون، لم تكن لتخليص الشعب من قيود المنفى فحسب، بل لتخليصه من الترحال المخزي الذي ميّز حياة المنفى .

ينقل لنا الكاتب "Victor Sasson" في روايته Destined to Die حواراً بين فلسطيني ويهودية، تقول المرأة: "إن اليهود ليس لهم مكان يعيشون فيه إلا فلسطين، أما الفلسطينيون فإن الدول العربية المجاورة كثيرة، فلماذا لا يذهبون للعيش في أي دولة منها ويتركون فلسطين. فأجاب الفلسطيني: هذه أرضنا وأرض أجدادنا، كيف نتركها؟ ثم أنتم معشر اليهود، قد قدمتم من دول كثيرة، لماذا لا تجتمعون في دولة منها وتعيشون فيها ، فأجابت: نحن قدمنا إلى هنا لأن الرب قد أعطانا هذه الأرض فهي أرض الميعاد"[٢].

كشفت الحروب الطويلة بين الطرفين، عن أعداء هم أشد ضراوة من المحتل نفسه، فالفقر والجوع كانا سبباً في زيادة صعوبة الحياة وقسوتها، وزيادة الأعباء الملقاة على كاهل

---

[١] Destin to Die by Victor Sasson, 128

[١] الرواية السابقة، ص ٩

الفلسطينيين. فالمحتل يهدف لإشغال الناس عن القضية، فيضيق عليهم اقتصادياً حتى يجعل لكل شخص منهم آلامه الخاصة في واقعه الجديد. فكانت الرواية مصورة لمعاناة الإنسان الفلسطيني في معركته الدائمة ضد كل أشكال الموت.

على امتداد البصر خيام لا تحصى، حبال وأوتاد وأسلاك، هكذا وخلال لحظات وجدوا أنفسهم في العراء خارج بيوتهم ، بجانب الخيام، ثمة نساء و عجائز وصبايا، يجلسن القرفصاء أمام خيامهن. ينظرن بلا استغراب ولا دهشة، نساء ذابلات، شاحبات، وثمة أطفال حفاة يلعبون وسط الاكتظاظ ويزيدون الأمور تعقيداً [١].

هذه هي حياة اللجوء والتشرد، التي أصبحت واقع الفلسطيني بعد ضياع وطنه، فعبرت الروايات عنها، وصورت لنا ما يلقاه اللاجئ من تحديات يومية في صراعه مع الفقر والحاجة، فحياة المخيم هي حرب مستمرة، أكثر شراسة من الحرب مع العدو الصهيوني على أرض الوطن .

"ذات ليلة، هبت الرياح، أبرقت السماء ثم أرعدت، وهطل المطر عنيفاً ومدراراً. اقتلعت الرياح أوتاد الخيام، واندفعت المياه من أعلى نحو المخيم، ارتفعت من هنا وهناك أصوات الاستغاثة وعلا الصريخ [٢]". في هذا الواقع الكريه، أصبحت الحياة بكرامة، هي حلم اللاجئ، الذي قسى عليه المحتل، وطرده لغربة هي أشد قسوة. فأصبح الحصول على الرغيف معضلة يومية يفكر فيها، ليسد رمق جوعه وجوع صغاره .

يخرج اللاجئ ليبحث عن لقمة عيشه، فأيام الحياة في البلاد، أيام الرخاء ولّت، وحلّ محلها الشقاء والتعب. كانت الجروح تمتد أنهراً حمراء في يدي أم سعد، وتفوح منهما رائحة

---

[١] ماء السماء، يحيى يخلف، عمان، دار الشروق ، ٢٠٠٧م، ص ٤١

[٢] الرواية السابقة، ص ٤٩

المقاومة الباسلة، حين تكون من جسد الإنسان ودمائه. فقلت لها: " لا عليك إنها جروح بسيطة، فقالت: طبعاً ستمحوها الأيام، سيملؤها غبار التعب، سيتراكم عليها صدأ الأواني التي أغسلها، و قذارات البلاط الذي أمسحه، ورماد المنافض التي أنظفها، وعكورة المياه التي أغسل بها، ستضع الأيام الذليلة فوقها قشرة سميكة ..[١] "

أثّر الصراع على المبدع، ففي داخله تتلاطم أمواج سياسية، واجتماعية، وذهنية وإبداعية، وظل الهاجس المسيطر على الروايات العربية هو هاجس الحرية والكرامة والإرادة والإيمان بالنصر. فذاكرة الروائيين مشتعلة بالذكريات والحنين للماضي الجميل، وأقلامهم ممتلئة مرارة ترفض الرضوخ للواقع بكل ما يحمله من خلل ومفارقات عجيبة .

لامست الرواية الإنجليزية أيضا توق الفلسطيني لحريته، وانتصاره على الكآبة، التي كادت أن تدمره، وتقطع علاقته بالحياة من حوله، فعلى الرغم من كل ما يعانيه من صعوبة في الحياة، فإن تعايشه مع واقعه الجديد، تحدٍ كبير استطاع أن يتغلب عليه .

في رواية A Little Piece of Ground by Elizabeth Lair، "قطعة الأرض الصغيرة" كانت عائلة حسن تعاني من الحصار الدائم للمدينة، كان وضع الأب النفسي سيئاً جداً، فأحوالهم المادية تزداد صعوبة، وتجارته التي تعب في تأسيسها في تدهور مستمر. يُفرض منع التجول لأسابيع، ولا يُسمح لهم بالخروج من المنزل إلا لساعات محددة، مرة أسبوعياً ليقضوا بها شؤونهم، ثم يعود الحصار من جديد. يذهب الناس في هذه الساعات لشراء الأطعمة والأشياء الضرورية، ولا أحد يشتري من دكان حسن الذي يبيع فيه أجهزة كهربائية، ففي وقت كهذا لا أحد يُفكر في شراء تلفاز جديد، فترة الحصار تعني كساداً اقتصادياً يشلّ المدينة بأسرها. تصور الكاتبة أجواء الكآبة التي تعم البيت في فترة الحصار، وشعور الأطفال بالملل، لحرمانهم من

---

[١] أم سعد، غسان كنفاني، ص ٤٧

الخروج للعب أو للمدرسة، كل هذه التحديات تعلمت العائلة تجاوزها والتعايش معها على الرغم من صعوبتها[١].إن هذه القصص تصوّر واقعاً واحداً له حقيقة واحدة، هي قضية الإنسان الفلسطيني في ظل الاحتلال .

شُغل الروائيون بطرح الأسئلة الكثيرة على ألسنة شخصياتهم، نتيجة لمراقبتهم الواعية لمجتمعاتهم، وقدرتهم على مناقشة مشكلاتها وانتقادها، ولكن بدون وضع حلول، مجرد توقعات واستشراف وتنبؤ بأحداث مستقبلية. باستثناء رواية AL Naqba by Barbara Goldscheider "النكبة" فقد طرحت الكاتبة حلاً على لسان البروفسور "Arnie" عندما سألته صديقته "Jacky" عن المدة التي سيقضيها الطرفان في الصراع، وهل سيتوصلان للسلام مستقبلاً؟ فأجابها: "إن هذا الصراع لن ينتهي طالما أن أحد الطرفين ضعيف والآخر قوي، فلابد من تساوي القوتين، عندها فقط سيجلسان على طاولة واحدة للنقاش والحديث عن السلام"[٢].

لقد أثّر الصراع على الطابع العام للرواية، ومفرداتها، وتراكيبها. فتلونت جدرانها بالدم، دم القتلى والجرحى، واشتعلت بنيران الكلمات الملتهبة، فنلاحظ احتواءها على كثير من مصطلحات الحرب، وتراجيدية المشاهد، التي تعكس مأساوية الأحداث، وإن كانت تقل في الروايات الإنجليزية مقارنة بالروايات العربية التي رسمت مشاهد مُفصلة ومؤثرة عن وحشية الحرب التي حصدت أرواح الأبرياء. وما ذلك إلا لاكتواء الروائي العربي بنيران الحرب

---

(١) A Little Piece of Ground by Elizabeth Laird, 2006 كاتبة بريطانية ، مهتمة بمناقشة القضايا المتعلقة بالطفل وأثر الحروب عليه ،زارت فلسطين واستمعت لعدد من الاطفال وكتبت عن معاناتهم في الصراع مع إسرائيل، ص ١٦

(٢) AL Naqba , Barbara Goldscheider, 143

مباشرة، فأحدث ذلك شروخاً في نفسيته، فهو يستعيد الماضي وأحداثه وظروفه، من بين شقوق الذاكرة، ليعيد رسمه في لوحات يطغى عليها لون الموت من كل جانب .

تقول آمنة في رواية "أعراس آمنة لإبراهيم نصر الله " لم يكن من السهل معرفة الوجه على الشاشة، وفي الطريق سألت نفسي هل رأيتِ وجهاً أم خُيّل لكِ، لا أعرف كل الأشلاء اختلطت ببعضها البعض، ولعلّها شكّلت وجهاً بالصدفة[١] ".

ويحكي عزيز عن دموية الأحداث فيقول: قبل أيام فاجأونا بصاروخ قتل سبعة وأصاب خمسين، فقد أحد المصابين ساقه، وبعد بحث طويل عثرنا عليها، وما أن رآها حتى راح يصرخ، ألم تلاحظوا كم ساقاً يمنى يمكن أن تكون لديّ ؟! مجزرة فظيعة، هناك شباب بقينا لأيام نلملم لحمهم عن الحيطان وسطوح البيوت، وحين جمعناهم في أكياس كنا نعرف أن أحداً لا يستطيع معرفة لحم هذا من لحم ذاك ؟ [٢].

وفي رواية AL Naqba التقطت الكاتبة صورة الانفجار المروّع الذي قام به الفلسطيني "عيسى" في المطعم الإسرائيلي، كان الناس وقتها ينعمون بالهدوء، لكن في ظلّ الصراع الدائم، فالتفجيرات وعمليات القتل المتبادل أمر غير مستبعد، تحول المكان في لحظات إلى حُطام وغبار وأشلاء، أجساد تطايرت من قوة الانفجار. هرعت سيارات الشرطة والإسعاف لنقل المُصابين، وجمع أشلاء الضحايا، للتعرف عليهم ودفنهم[٣].

---

(١) أعراس آمنة، إبراهيم نصر الله، ص ٨٨

(٢) الرواية السابقة، ص ٥٦

(٣) AL Naqba , Barbara Goldscheider, 116

المبحث الثاني:

الاتجاه القومي في الروايات العربية والإنجليزية :

إن الصراع العربي الإسرائيلي قديم جداً، اتخذ جوانب متعددة منها الديني، والسياسي، والاقتصادي، والثقافي، والوجودي. يعود إلى تلك الوعود التي قُطعت على حساب الأراضي العربية، وتجاهل لأصحابها. اعتبروها أرضاً بلا شعب، لشعب بلا أرض. عملوا على نشر هذا المفهوم بين اليهود خاصة، والعالم بصفة عامة. أكاذيب وصور خيالية عن أرض الميعاد رسموها في كتاباتهم، ثم ما لبثوا أن آمنوا بها وتعاملوا معها بوصفها حقائق، وقاتلوا من أجلها.

استوفت اليهودية جميع الشروط الأساسية لتكوين قومية يهودية عدا شرطين مهمين هما: اللغة ، والوطن[١]. فقدموا لفلسطين من أنحاء المعمورة، هدفهم إقامة دولة تمكنهم من السيادة، بعد سنوات من الترحال المخزي، فكان احتلال فلسطين لإقامة وطن قومي لكل يهود العالم .

يقول ساطع الحصري مبيناً أهمية القومية: "إن الوطنية والقومية من أهم النزعات الاجتماعية، التي تربط الفرد البشري بالجماعة، وتجعله يُحبها ويفتخر بها، ويعمل من أجلها، ويُضحي في سبيلها[٢]".

إن منبع الوطنية ونواتها الأساسية حب الموطن ، أما منبع القومية وأساسها فحب الأهل والتضحية في سبيل هذا الحب. لذلك ركزت الصهيونية منذ نشأتها على تنمية انتماء اليهودي لدينه ومذهبه، والدفاع عنه تحت أي ظروف، كما رسّخت مفهوم تفوق اليهودي وتميزه عن باقي

---

[١] فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام ، صالح بن عبد الله العبود، دار طيبة للنشر، الرياض، ص ٨١

[٢] أبحاث مختارة في القومية العربية، ابو خلدون ساطع الحصري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٢٣

الجنس البشري، فهم شعب الله المختار، فهي بذلك تكون قد بذرت أُولى بذور القومية اليهودية بين يهود العالم على اختلاف بلدانهم ولغاتهم ومرجعياتهم الثقافية .

يقول إبرهامز: "لقد أجمع يهود العالم على أن قوميتنا اليهودية المشتركة لن يكتسحها قصيرو النظر المتعصبون من دعاة الوطنية المحلية، فجميعنا إذن صهيونيون، بحكم أن الصهيونية هي التي تقوي بيننا روح التضامن، وتشعرنا بقوميتنا اليهودية المشتركة[١]".

الأرض الإسرائيلية هي مكان ولادة اليهود بحسب "Jeff Halper" ، ارتبطوا بها روحياً وتاريخياً منذ القدم، فعندما وطئت أقدامهم أرض فلسطين، شعروا لأول مرة أنهم ينتمون لأرض معينة، قدموا ليعيدوا ارتباطهم بها، وليصنعوا حضارة وقيماً عالية. وليتمكن الشعب اليهودي من وضع بصمة له تميزه عن باقي شعوب العالم، بعد نفيهم خارج وطنهم لأعوام طويلة. فلم يعد اليهود بحاجة للدعاء والأمنيات بالرجوع لموطنهم فلسطين، فهم يملكونه اليوم. اعتماداً على هذه القصص التاريخية الموروثة قام الصهاينة بتشجيع يهود العالم بالهجرة لأرض الميعاد[٢].

الصهيونيون، هم أولئك الذين يَعتبرون الطائفة المعروفة باسم اليهود، شعباً قومياً مستقلاً، ينبغي إعادة توطينه ككيان سياسي مستقل في فلسطين، لكي يقيم هناك دولة قومية خاصة باليهود وحدهم[٣].

كانت القومية "Nationalism" وسيلة مهمة ارتكز عليها اليهود، للنهوض من واقعهم الآخذ في الانحطاط والتمزق والكراهية، فليس عندهم ما هو أحسن من القومية ليُعيدوا به

---

[١] فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام، صالح بن عبد الله العبود، ص ٨٠

[٢] An Israeli in Palestine ,Jeff Halper , 2008 , Pluto press ,67 كاتب ومحاضر وناشط حقوقي أمريكي يهودي ، شارك في تأسيس الجمعية الإسرائيلية ضد هدم منازل الفلسطينيين Israeli Committee Against House Demolitions (ICAHD)

[٣] الصهيونية غير اليهودية (جذورها في التاريخ الغربي)، ريجينا الشريف، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٥م، ص١١

كرامتهم التي هُدرت طوال سنين التشرد. فهل اُستغلت الرواية للمناداة بالقومية؟ وبيان أهميتها و قدرتها على قلب المعادلة، وخلق كيان صهيوني متماسك ؟

اعتزت الشخصية الإسرائيلية بيهوديتها، وانتمائها للأرض الفلسطينية في رواية AL Naqba by Barbara Goldscheider ، فاجتماع يهود العالم في فلسطين سيحفظ لهم حقوقهم، كان جد"Nyier"، يشعر أن هناك سبباً لنجاته من الحروب والقتل على يد النازيين دون أفراد أسرته كلها. كان السبب هو القدوم إلى فلسطين والمساعدة في بناء الدولة الصهيونية، الوطن القومي لكل يهود العالم[١].

جعلت الكاتبة شخصيات روايتها الإسرائيليين يسعون لهدف واضح أمام أعينهم، وهو الارتقاء بالمجتمع الإسرائيلي، والتوحد معه والشعور بمعاناته. فهم يملكون وعياً مكنهم من تجاوز خلافاتهم مع الآخر العربي، والسعي لفتح قنوات تواصل معه ونبذ العنف. يرفضون سياسة دولتهم، التي تقوم على انتهاك حقوق الفلسطينيين، ويرفضون أعمال العنف المتبادلة بين الطرفين، ويرون أن الصراع بين القوميتين العربية واليهودية لا منتصر فيها، يصف"Nyier" الحرب بين الطرفين أنها حرب بين الحق والحق[٢]. لعل إيمانهم بحقهم في فلسطين هو أقوى داعم لهم في البقاء فيها، رغم علمهم بالموت المحيط بهم من كل جانب، فأصبحوا يرون أنه من واجبهم الدفاع عن هذا الحق و التضحية بالغالي والنفيس لاستعادته.

---

(١) AL Nagba by Barbara Goldscheider, 9

(٢) الرواية السابقة، ص٨٨

بعد قدوم اليهود لفلسطين واجهتهم مُعضلة أخرى وهي اللغة، فقد كانوا يتحدثون بلغات الدول التي قدموا منها. أخذوا ينادون بتعلّم العبرية، ويُضفون عليها صفة القداسة، فموسى كان يتحدث العبرية بطلاقة وهي لغة كتابهم المقدّس[١].

ركزوا على تعليم الناشئة قصص اليهود القديمة، حتى يُشعروهم بأن لهم ماضياً مجيداً، ضاربة جذوره في عمق التاريخ الإنساني. كما اهتموا بكتابة تاريخ إسرائيل منذ أن وطئت أقدامهم فلسطين، مصورين التحديات التي واجهوها حتى استطاعوا بناء دولة يفتخر بها كل إسرائيلي. فقد زعموا أن العرب قد تركوا منازلهم وقراهم بمجرد معرفتهم بقدوم اليهود، ولم تكن هناك أية مقاومة، فدخل اليهود الأوائل فلسطين ليجدوها مدناً وقرى تسكنها الأشباح [٢]. كل هذه الأكاذيب هي بمثابة المعادل النفسي للإسرائيلي، الذي دخل بيوت الفلسطينيين، ووجد أثاثهم ولباسهم وحتى أطعمتهم، واستحلها لنفسه.

كتبوا كثيراً عن حرب الأقلية في مواجهة الأكثرية، ومجدوا جنودهم الذين شاركوا في حرب الاستقلال "War of Independence" كما يُطلقون عليها، وانتصروا على القوات العربية. ركزوا على إعادة بناء الدولة الإسرائيلية، فقد اهتموا بالزراعة وتطويرها، ليعززوا انتماءهم للأرض التي تربطهم بأجدادهم المزارعين الأوائل[٣].

لم تكن هناك هوية وثقافة مشتركة بينهم عند قدومهم لفلسطين، فكان وجود "Sabra" اليهودي الذي جعلوه القدوة والمثل الأعلى لهم "The Model" فهو يجمع أفضل الصفات من كل يهود العالم، أصبح النموذج الإسرائيلي الذي كانت تروج له وسائل الإعلام والصحافة في

---

(١) The Lemon Tree by Sandy Tolan , Bloomsbury, USA, 2006 ,73

(٢) المرجع السابق، ص ١١٥

(٣) المرجع السابق، ص ١١٨

قوته وصبره وقدرته على التعايش مع واقعه، بل إخافة أعدائه[١]. قَدِم إلى أرض فلسطين قبل المحرقة، وبقي فيها في انتظار بقية اليهود ليجتمع الشمل من جديد. هو رمز وقدوة ومثال لكل يهودي، وصفه أحد الكتّاب اليهود بأنه "الابن المختار من صفوة البشر اليهود[٢]".

نجحوا في خلق ثقافة مشتركة تجمعهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم. فطغت صورة "Sabra " في أدبهم ورواياتهم، بهدف توحيد صورة الرجل اليهودي القادم إلى فلسطين من أيّ بقعة في الأرض، فالأرض الفلسطينية هي لكل اليهود الأقوياء، فكرة دعائية استجاب لها الناس وتفاعلوا معها، وآمنوا بها، ودعمها المثقفون والصحفيون لتوحيد الشمل اليهودي .

ربما كانت هذه الصورة الأسطورية التي ركّز عليها اليهود في بداية وجودهم في فلسطين، هي معادل موضوعي لهم، فبعد تصويرهم للاضطهاد الذي لاقوه على يد النازيين، وتعرضهم للظلم والاحتقار في المجتمعات التي كانوا يعيشون فيها، كان لابد من تغيير هذه الصورة " صورة الضحيّة " وأن يكونوا في صورة الأقوياء، لعلمهم بصعوبة المواجهات التي ستتم على مدى عقود مع العرب، فأصبح من الضروري إعادة الثقة في نفوس الأجيال القادمة، حتى يتمكنوا من إعداد جيش لا يهاب الموت، ويحمل صفات "Sabra" المميزة .

حرصوا على نشر اللغة العبرية، واستعمالها لغة رسمية للدولة العبرية. فالكاتبة "Barbra" تركز على تحدث الشخصيات الإسرائيلية بها عند لقائهم شخصيات من دول أخرى. كنوع من تعريف الآخر غير الإسرائيلي بها [٣].

---

[١] "Sabra" هي كلمة عبرية تعني الصبر والقدرة على مواجهة الشدائد، جعلوه اسم النموذج اليهودي الذي يجب أن يحتذى، لقدراته الهائلة وصفاته النبيلة .

[٢] المرجع السابق، ص ١١٩

[٣] AL Nagba by Barbara Goldscheider , 110

تحاول الروائية تفسير سبب هذه الحروب، التي اتخذت شكل حرب قومية وجودية بين الجانبين العربي واليهودي، وذلك من خلال حوار بين "Nyier" و صديقة "David"، يستشهد "David" بحديث لمفكر أمريكي "Shipler"وهو صاحب كتاب Arab and Jew : wounded spirits in a promised land" العرب واليهود: أرواح مجروحة في أرض موعودة" إن هذه الحرب هي حرب بين عرقيتين ساميتين، والحرب بينهما محاطة بالخوف، من أن هذا الكره سيقلب إلى حب في يوم ما، إذا لم يؤجج لهيب الكره والقومية والعنصرية بينهما[١].

إن شعور الإسرائيليين أن لا أحد يهتم بقضيتهم ومعاناتهم، وما يتعرض له مجتمعهم من إرهاب وقتل على يد المقاتلين الفلسطينيين، جعلهم أكثر تماسكاً مع بعضهم، وأكثر تمسكاً بالأرض، فهم يخشون من العودة للتيه الأكبر الذي كانوا فيه[٢].

طرحت الكاتبة تساؤلاً على لسان إحدى شخصياتها "Jacky "، وهو أن كره العرب لليهود مأخوذ من أيديولوجية التفكير العربي التي تخشى الحضارة الغربية وتأثيرها السلبي عليها، لكن لماذا يخاف الإسرائيليون من العرب ؟ أجابها "Arnie" أن العرب يزرعون في عقول الأطفال كره اليهود منذ ولادتهم، فإسرائيل تخشى من تحدي الشرعية لها في فلسطين، فلا غرو أن يشعر اليهود بعد ذلك أن الفلسطينيين هم العدو الأبدي الذي يجب محاربته، لتكريسهم في كتاباتهم عداء السامية، ورغبتهم الحقيقية في تدمير إسرائيل تدريجياً والقضاء عليها [٣].

إن الكلمة المكتوبة أصبحت سلاحاً مستخدماً في الحرب بين الطرفين، فشعور الكتّاب العرب بواجبهم القومي تجاه قضيتهم الأولى فلسطين، أدى إلى محاولتهم كشف حقائق المحتلين اليهود، وأنهم مجرد أمشاج لا توجد بينهم أية رابطة، سوى التشتت في البلاد على مدار قرون .

---

[١] الرواية السابقة، ص ٧٢

[٢] الرواية السابقة، ص ٩٤

[٣] الرواية السابقة، ص ١٣٢

يذكر"Neyri" أن أكثر الكتب مبيعاً في رام الله عام ١٩٩٩م هو كتاب Hitler Mein Kampf ، وهو كتاب يمجد الحرب التي خاضها "هتلر" ضد اليهود، يوصف فيه اليهود بصفات سيئة ومكروهة، وأن "هتلر" لم يتم عمله لذلك سيكمل العرب ما بدأه. فطالما يغذي العرب عداءهم لليهودية بهذا الشكل، فلن تكون هناك أية آمال بانتهاء الصراع بين الطرفين، وإقامة دولتين متجاورتين[١].

إن الكاتبة منحازة هنا للآخر الإسرائيلي لقاء ما يكتب عنه العرب في كتبهم، ولم تذكر الكتب اليهودية و المناهج الدراسية التي ترفع من شأن القومية اليهودية وتعتز بها، وتخلط بين مفاهيم العدوان والدفاع عن النفس، بل تقوم بتوظيفها لتبرير الحروب والانتهاكات. "لقد حرصت الكتب اليهودية على تحديد كيفية تعامل اليهودي مع مجتمعه، وكيفية تعاطيه مع المجتمعات المحيطة به، وذلك من خلال الصور النمطية، التي غُرست في عقله ووجدانه عن سلبية العربي ونقصانه عن كمال اليهودي. بل إنها تكرس الربط بين الإسلام والعنف، مدعية أن الدين الإسلامي نشر بالسيف[٢]".

اعترف "عاموس بن عوز" وهو أديب يهودي يضعه النقاد الإسرائيليون في مقدمة مبدعي الأدب الإسرائيلي، في برنامج أدبي جرت وقائعه في جامعة تل أبيب عام ١٩٧٩م ، حول الصورة النمطية للعربي في الأدب الإسرائيلي، قال "عوز" في ذلك البرنامج دون أدنى مواربة "

(١) الرواية السابقة، ص ١٣٢

(٢) انظر: صورة العرب والمسلمين في مدارس إسرائيل، علي بن صالح الخبيتي، العبيكان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م، ص ٩٧

العربي في أدبنا شخصية هزلية، ونمطية دائماً نُكن لصاحبها الكثير من الاحتقار والاتهام وقدراً ملحوظاً من الحقد[١]".

لقد كان الأدب الإسرائيلي مسؤولاً عن تشويه نفسية متلقيه من اليهود، بزرع الكثير من النزعات العدوانية الإجرامية، الموجهة ضد كل من ليس من هذه الأمة. فلعل ذلك لتأثره بما رسمته عنه الآداب العالمية منذ القدم، فتجاوز تأثيرها في متلقيها حدود المتعة إلى المساهمة في تكوين صورة قاتمة لليهود. إن جدلية التأثر والتأثير بين النصوص الأدبية ومتلقيها، جعلت الكتّاب اليهود وبعض الكتّاب الغربيين أمثال "Barbara Goldscheider" يسعون إلى تغيير صورة اليهود، ويساوون بين الجلاد والضحية، في محاولة لتبرير الممارسات الإسرائيلية ضد العرب تارة، ولمحاولة إقناع المتلقي بسعي الإسرائيلي للسلام تارة أخرى.

أما الكاتبة "Dixiane Hallaj" فقد صورت في روايتها Refugee Without Refuge صور توحد الفلسطيني بأرضه، فهو يرفض التخلي عنها رغم التهديدات اليومية، والسياسات الصهيونية التي تريد اجتثاث جذوره منها . فالشخصيات في الرواية تبدو بسيطة، مشغولة في همومها الحياتية اليومية، ولكنها تمتلك روح المقاومة، مقاومة الموت، رغبة في الحياة على الرغم من صعوبتها. عاشوا تحت الاحتلال على مرّ عقود، ولكنهم رفضوا قبوله، أو الاعتياد عليه، يتعايشون معه لأن هذه هي طريقتهم في المقاومة الصامدة. فالاحتلال لم يعد مشكلة فردية تتعلق بمنزل أو شجرة أو ولد، بل قضية نالت من الشعب الفلسطيني كافة، بكل أطيافه وأشكاله.

---

[١] انظر: دور الأدب الإسرائيلي في صنع النفسية العدوانية، محمد توفيق الصواف، مجلة نور الأدب، العدد التاسع www.dahsha .com

إن الإنسان هو مادة الدولة، الذي يستطيع بآرائه، ومواقفه الفكرية والمادية، مواجهة أشكال التحدي على اختلاف مواقعه ومؤسساته، فهو مطالب بأن يُثبت وجوده وسط ركام الهزيمة. رصدت الكاتبة تأرجح بنية العقل الفلسطيني بين الهزيمة والثورة والوحدة والمقاومة، "فكريمة" تؤمن بأهمية المقاومة وعدم الاستسلام للمحتل، في إطار توحيد الصف ولمّ الشمل، وإدراك أهمية التضامن في مواجهة الآخر الإسرائيلي، وتعريف العالم بجرائمه، وإيقاظ الرأي العام العربي والغربي على حدٍ سواء[١].

ركزت الرواية على بُعد آخر من أبعاد الإنسان الفلسطيني القومي، الحريص على التمسك بكل شبر من أرضه، فالوطن أصبح جزءاً لا ينفصل عن معنى وجوده الإنساني، صورت الكاتبة اشتراكه في مقاومة المحتل في بداية النكبة، و تعرضه لمعضلات شتى من أهمها: غياب التنظيم ووضوح الهدف، مما أدى إلى إضعاف المقاومة، وعدم الالتفات للوحدة. فالعجوز "أبو نضال" يحكي قصته لمحمد فيقول : إنه في بداية النكبة قرر الالتحاق بالمقاتلين، لقتال اليهود، فترك منزله في دير ياسين واتجه لمقر المقاومين في الجبل، وقبل وصوله إلى هناك علم بوفاة قائدهم عبد القادر الحسيني، فقرر الرجوع لبيته، ولكنه فوجئ بإغلاق الطرق المؤدية لقريته، علم لاحقاً بهجوم الإسرائيليين على قريته، وارتكابهم مجزرة كبيرة راح ضحيتها العشرات، ومن بينهم أفراد أسرته. التحق بعدها بالمقاومين، فظل على مدار أعوام يتنقل من مجموعة لأخرى، لكنهم جميعاً لم تكن لديهم رؤية محددة ولا معرفة ما هي الخطوة التالية، قرر بعدها تركهم[٢].

---

[١] Refugee Without Refuge by Dixiane Hallaj , 29

[٢] الرواية السابقة، ص ٢٦٣

"يحاول المحتل تفريغ ذاكرة الفلسطيني من كل مقولات مجابهة الاحتلال، والمواجهة والمقاومة المسلحة والقومية، وذلك بالاحتكاك اليومي، وضرورة الحاجة للتعامل معه في إطار علاقة العبد بالسيد، والعامل بصاحب المصلحة [١]". كما هو الحال مع "محمد" الذي كان يضطر اضطراراً لا قِبل له برده بالعمل عند المحتل لنفاد قوته اليومي، وتحمّل تجاوزات العدو الإسرائيلي، التي أحبطته وأشعرته بأنه مغترب عن وطنه. إن زيادة الضغوط على الفلسطيني لم تكسره، بل زادت من إصراره على إكمال مسيرة الصمود والمقاومة.

يحاول الروائي دائماً أن ينقل لنا القضية بتعقيداتها، وتداخلاتها، وتناقضاتها، فالحرب تستدعي المقاومة للدفاع عن النفس، والحياة، والهوية من الضياع، والتصدي لكافة أشكال التذويب والطمس والتهميش. إن حرب انتزاع الهويات وتغييبها، أدى إلى ظهور النزعة القومية، للحفاظ على أهم عنصرين يركز عليهما الإسرائيلي في حربه وهما: الإنسان ، والأرض.

فهل تأثّر العرب بالقومية اليهودية كان سبباً في ظهور الدعوات المنادية بالقومية والوحدة العربية في الرواية ؟

كان لأحداث الخامس من حزيران عام ١٩٦٧م ، وقبلها نكبة ١٩٤٨م، دور في اتجاه الكتّاب إلى كتابة الروايات التي تستوعب المأساة الكبرى، التي أحدثت شرخاً كبيراً في جسد الوطن، بضياع أجزاء عزيزة منه. "فالهزيمة التي أحسها العرب آنذاك، كانت من العمق بمكان بحيث أصبحت قضية فلسطين، هي قضية العرب برمتهم، قضية الإنسان العربي، لا قضية الإنسان الفلسطيني وحده [٢]". فكان لمرارة الهزيمة، ومرارة الغربة، التي كانت من أبرز نتائج

---

[١] انظر: الاغتراب والمقاومة في الرواية العربية في فلسطين والأردن، حسن عليّان، ص ٢٢٤

[٢] الكون الروائي، " قراءة في الملحمة الروائية ،الملهاة الفلسطينية ، لإبراهيم نصر الله"، لمحمد صابر عبيد وسوسن البياتي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٧م، ص ٩

هذه الحرب، وتمزق النفس العربية ومعاناتها، في البحث عن ذاتها المأزومة المهزومة، دورٌ في ظهور العديد من الأسئلة التي من أهمها: من نحن ؟ وإلى أين نسير ؟

الدعوة للقومية في الرواية العربية جاءت على شكل ومضات، تشرق حيناً، وتختفي أحياناً. فقد ظهرت في الروايات على شكل شعور ضبابي، تشوبه عاطفة التحدي والتفاؤل بالنصر، أو عاطفة الحزن، لتوالي خيبات الأمل والهزائم، التي ألمت بالأمة العربية .

أدرك يحيى يخلف في روايته "ماء السماء" أن الوعي الفكري، الذي يُمثله الوعي القومي، عند كل شعب وأمة من الأمم هو مصدر قوتها، وانتصارها على أعدائها، عبر مراحل متعددة تبدأ بحس وشعور، فتمرد وانتفاضة، وثورة وعقيدة راسخة الجذور.

كرست الهزيمة إيمان الفلسطيني بضرورة تنظيم الصفوف، و الانضمام تحت لواء واحد. فالأستاذ رياض يقول لراضي: "نحن الفلسطينيين بحاجة أن نتعلم من هذه الطيور. فقال راضي : ولكنها مثلنا هجرت أوطانها ! نفى الأستاذ بهزة من رأسه وقال: لا، إنها في رحلة سياحية ومهما يكن من أمر فإنها بعد شهور قليلة تعود إلى أوطانها، تعود إلى أعشاشها، تعود إلى التزاوج والتكاثر[١]".

فهي في هجرتها تريد أن تكتشف الدنيا، وتزيد من معارفها، فغيابها عن الوطن كان سبباً في جعلها تتعلق به أكثر، وتحن للعودة إليه. لكنّ هذه الطيور منظمة في هجرتها، فهي تجمعت تحت لواء قيادة تقودها. " انظر إلينا كل واحد منا يعيش عزلة، كل واحد منا له رأي يختلف عن الآخر، لابد أن ننظم أنفسنا، ويكون لنا رأي واحد[٢]".

---

[١] ماء السماء، يحيي يخلف، ص ١٣٨

[٢] الرواية السابقة، ص ١٣٩

"ليست الأمة هي الأرض، بل هي الشعب والأرض، والعودة إلى الذات والتاريخ الإنساني والحضاري والديني المشترك [١]". الذي أثّر في الحضارات المجاورة وأثبت تفوقه وتميزه، وعند حصول الملمات لأي شبر في الأرض العربية، تكون الوحدة القومية هي الأداة الفاعلة في النصر على الآخر، مهما بلغت قوته .

يرى الأستاذ رياض أن الوحدة العربية هي الطريق للعودة وتحرير فلسطين من المحتل، الذي كوّن قومية يريد بها هزيمة الآخر العربي نفسياً، و إقناع التاريخ بأن فلسطين وطنه منذ الأزل [٢]. فالصراع العربي الإسرائيلي لا يمكن حلّه فلسطينياً فحسب، فالعمق العربي مهم وضروري لدحر هذا العدو المشترك .

" هناك حركة وطنية بدأت في الظهور، ومن الطبيعي أن تظهر بعد النكبة التي حلّت بنا، هناك ثورة عبد الناصر والانقلابات في سوريا[٣]". فلابد من اتخاذ مواقف عزّ وعنفوان، وثورة وكبرياء، تهدد العدو وتحيل أرض فلسطين التي رسمها في خياله جنة ومأوى، إلى جحيم لا يُطاق.

وجدت القلوب المتكسّرة بعض العزاء، والنفوس الخاملة بعض ما يبعث على الأمل، والأرواح المجروحة بعض ما يمكن أن يشفي الجراح، عند إعلان الوحدة بين مصر وسوريا. ويوم الإعلان ضجّ الشارع العربي بالأغاني والأناشيد :

هات المدفع والبارود   جيش الوحدة على الحدود

---

(١) انظر: تحليل مضمون الفكر القومي، السيد ياسين، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٧٢

(٢) ماء السماء، يحيي يخلف، ص ١٤٠

(٣) الرواية السابقة، ص ١٤٧

وزّع الناس الحلوى على بعضهم، بدت تلوح في الأفق بارقة أمل، تجدد الحماس للثورة وقتال العدو. انعكس الفرح على الأطفال الذين أخذوا يرسمون علم الوحدة على دفاترهم. فرسم راضي لأخيه ماهر علم الوحدة، وإلى جانبه علم فلسطين وكتب بخط جميل: الوحدة العربية هي الطريق لتحرير فلسطين (١).

ماتت الدعوات القومية في مهدها، ولم تصمد الوحدة كثيراً، فكانت مجرد سراب يُغري الظمآن حتى إذا أتاه لم يجده شيئاً. يقول راضي: مرت الأيام، وعادت الحياة تسير بإيقاعها الرتيب، ظلت الإذاعات تردد أغنية لامرأة تقف على جبل قاسيون، فترى دمشق وهي تعانق السحب، وأغنية أخرى لرجل يقف على الأهرام، فيرى من هناك بساتين الشام. غير أن أهالي المخيم لم يروا شيئاً من مكانهم إلا الأتربة والغبار والزوابع(٢).

أما في رواية Destind to Die by Victor Sasson فقد رصد الكاتب كل ما يجري على الساحة الفلسطينية من صراع ومقاومة، وتحولات اجتماعية، وردود فعل تجاه ما يمارسه الاحتلال من تهويد واستيطان، واستيعاب، وتهميش للإنسان الفلسطيني، الذي لم يجد بداً من خوض هذه المعارك على مختلف الجبهات، في محاولة لإبراز الذات وتقويتها في مواجهة الآخر. فالحرب بين الطرفين هي حرب حضارتين وقوميتين، تحاول كل منهما فرض نفسها وإلغاء الأخرى. يقول الأمريكي جونسون: إن الماضي قد أعطى الإنسان دروساً مفادها أن الحضارة هي الأداة الفاعلة في الحرب والمقاومة، لأن العدو يستطيع تصفية الأجساد، ولكنه لا يستطيع طمس أو إلغاء حضارة امتدت لآلاف السنين(٣).

---

(١) الرواية السابقة، ص ٢٢٥

(٢) الرواية السابقة، ص ٢٢٧

(٣) Destined to Die by Victor Sasson , 34

كان" نبيل" نموذجاً للثوري الذي لا يكتفي بمراقبة ما يجري، ولا يكتفي بالصمود السلبي، بل يتطلّع للمستقبل، ويسعى لبلورة مفاهيمه، وتشكيلها ضمن إطار جماعي، ورؤية وحدوية واضحة، فانتقل إلى لبنان لينضم للمقاومة هناك .

صور الكاتب تمزق النفس العربية، وتقلّص المد القومي، وانحسار الأحلام ، فعند ذهاب نبيل وسميرة للبنان للانضمام إلى صفوف المقاومة، رفضاً للواقع الذي فرضه المحتل، واقع السجن و الإهانه وتضييق أسباب الحياة، تفاجئا بواقع أشد إيلاماً في لبنان، إنها الحرب، ولكنّ العدو ليس الإسرائيلي، إنها الحرب الأهلية اللبنانية [١].

ينتقد "نبيل" ذلك بلغة انفعالية، موشحة بالألم والحزن والإحباط في بعض الأحيان، ذلك الألم الذي يحمل في طياته ثورة عارمة من التحدي والنضال ورفض الظلم من العدو، وهذا الوضع المختلّ بين العرب، فبدل أن يجتمع العرب لقتال عدوهم المشترك في المنطقة، يتركونه لينشغلوا في قتال بعضهم[٢]. كل هذا انعكس على الشخصيات الفلسطينية في الرواية، وأخذت تبحث عن ذاتها الضائعة بين الجموع، وتحاول ترتيب الصفوف لقتال العدو، فالإنسان يُحب أمته، تحت تأثير النزعة القومية، ويشعر نحوها بارتباط قلبي شديد، ويعد نفسه جزءاً منها، فيفرح لكل ما يزيد مجدها، ويتألم من كل ما يقلل قوتها .

إن القضية الفلسطينية التي ما برحت تتشرّب الأسى منذ عقود، عقدت الآمال على الوحدة سبيلاً لخلاصها. فتزايدت الدعوات للوحدة، فالحرية والاستقلال، مرتبطان ارتباطاً وثيقاً، بالوطن والأمة. فإعصار الألم يضرب في فلسطين لحناً يوقد المشاعر ويؤجج العواطف، ويتردد صداه في كل المدن العربية والإسلامية، ليدفعها للتحرك .

[١] الرواية السابقة، ص ١٧٧

[٢] الرواية السابقة، ص ١٧٨

اتخذ غسان كنفاني في روايته " أم سعد" لغة التفاصيل اليومية، البعيدة عن الضجيج والهتافات الرنانة، المنادية بالثورة، و الرافضة لصنوف الإذلال، التي يمكن أن تلحق بالفلسطيني وتهينه، وتقلل من إنسانيته أمام نفسه. طرح فيها العديد من الأسئلة الملحة عليه، وأتبعها بالقرارات المصيرية، التي اتخذتها الشخصيات لتعلن تمردها على الواقع والانطلاق للثورة. فَرفض سعد للظلم والاحتلال وحياة البؤس في المخيم، وانطلاقه للعمل مع الفدائيين، هي الشرارة التي ستشعل حماسة الجيل العربي الجديد، الذي يؤمن بأن وحدته هي سبيله للخلاص [١].

"تتميز الكتابات القومية بالاندفاع الحماسي المتجه نحو الجماهير، تحرضهم فيها على الثورة والعمل، لأجل القضية العربية الأولى[٢]". فأضحت رموز الشهيد والفدائي والتضحية والنضال والحرية والاستقلال، المنتشرة في الرواية هي المعادل الموضوعي، لما يتصف به الوعي القومي والثوري. "فيكشف كنفاني عن الفرق بين خيمة وخيمة، خيمة ذليلة كسيرة، وأخرى تنتج المقاتلين والفدائيين، لتُعيد المجد الضائع لسابق عهده[٣]".

إن جوهر المشكلة بالنسبة للفلسطينيين، هو طردهم من ديارهم ، ثم عزل المجتمعات التي يعيشون فيها داخل الأرض المحتلة عن بعضها، حتى يسهل على المحتل السيطرة عليها. أدرك المحتل أن القمع المستمر من شأنه أن يولد عند الفلسطيني الوعي القومي الوطني، الذي يسعى بدوره لطرد الإسرائيليين من الأراضي الفلسطينية، لبناء دولته المستقلة، فما كان منه إلا

(١) أم سعد، غسان كنفاني، ص ٢٦

(٢) انظر: الصهيونية غير اليهودية، جذورها في التاريخ الغربي، ريجينا الشريف، ص٢١

(٣) أم سعد، غسان كنفاني ، ص ٢٨

أن قام بتقسيم الأراضي التي يقطن فيها الفلسطينيون، وعزل بعضها عن بعض حتى يحول دون أيّ تكتل أو تجمع، وهي خطوة من شأنها أن تضع العقبات أمام تكوين دولة قومية متماسكة(١).

إن تحقيق التعاون والوحدة عملية مستحيلة إذا لم نفهم لماذا نحن مختلفون ؟ وما هي نقاط الاختلاف؟ وكيف نحسم الاختلافات الجذرية ؟ وما هي أجدى الوسائل في مواجهة هذا العدو المشترك ؟ وهل القومية العربية قادرة على قيادة الأمة للنصر ؟

أصبح الكاتب العربي مسكوناً بهمّ الخلاص، وهمّ التمرد على الواقع. فنراه ينثر الأفكار في حالة تجريد، ثم ما يلبث أن يُعيد بناء الواقع، وفي هذه الإعادة يحاول تلمّس مظاهر تمزق الذات وتأزمها. إن الضياع الحقيقي للحق عندما يُجزأ المطالبون فيه إلى أجزاء وأقسام مختلفة، فحين يقسم الكل يُصبح كل جزء بعيداً عن الآخر ولا يشعر به. وهذا ما فعلته الصهيونية وما نتج عنها من الاحتلال. انعكس ذلك على الرواية التي صورت لنا بمرارة ساخرة آثار هذه التفرقة، وكيفية استغلال العدو لذلك، واستيلائه على الأرض المقدسة، عند سحر خليفة في روايتها "ربيع حار": " أما القادة ففصائل وقبائل وتنظيمات، مثل الخيارة و البندورة والفجل والخس والبقدونس في سحارة (٢)".

والسؤال الذي يرتفع الآن هو، هل كان لتحقق شرط اللغة والثقافة والحضارة والتاريخ، الذي اتفقت عليه أكثر تعاريف القومية، أثر في نجاح القومية العربية ؟

إن العلاقة بين الوعي القومي بأشكاله الإيديولوجية، والجرح الفلسطيني الغائر علاقة سببية. فالاحتكاك بالآخر الإسرائيلي في طموحه الاستعماري المفزع، ومحاولاته المستمرة لمحو الهوية الفلسطينية أثر في تزايد الدعوات بضرورة الوحدة القومية. فالقومية العربية حقيقة أكدها

---

(١) Literature Partition and the Nation State , Culture and Conflict in Ireland and Israel and Palestine , Joe Cleary , 2004, 186

(٢) ربيع حار، سحر خليفة، ص٢٤٦

الماضي التليد للأمة العربية، وضرورة فرضها واقعها ومصيرها، لمواجهة القوى الاستعمارية. لكن القومية بهذا الشكل غير المكتمل لم تكن سوى أمنيات وأحلام، تفتقد للأسس المتينة، التي تربط أجزاء الوطن الإسلامي بروابط لا يتخللها الضعف ولا يعتريها الخور .

إن فكرة القومية قديمة قِدم الاجتماع البشري، لكنها كانت تسمى قديماً العصبية، فالعصبية هي التي كانت تجمع أفراد القبيلة الواحدة [(١)]. وكان للإسلام دور في نبذ العصبيات القبلية وإبدالها بالوحدة الإسلامية، التي تقوم على أساس الأخوة في الدين .

لا يوجد تعريف واحد ثابت للقومية العربية بين جمهرة الفرق التي دعت إليها، وقد لا يكون هذا بالغريب طالما أنها –أي القومية– لم تكن سوى عدوى انتقلت إلينا من بلاد الغرب [(٢)]. نقلوها كما هي في قوالب جاهزة دون تمحيص أو محاولة لإعادة تشكيلها وفق ما يتناسب مع طبيعة المجتمع .

إن جعل العرب كلهم أمة واحدة، إنما يرجع إلى الرسالة الإنسانية التي حملها العرب متمثلة بالدين الإسلامي، الذي يضم تحت جناحه كل من آمن به بغض النظر عن كونه عربياً يتحدث اللغة العربية أو لا." كان الاختلاف والتناقض في تعريف القومية، وعزل الدين، باعتبار الدعوة إليه رجعية، وذلك اتساقاً مع الخط الذي سلكته الدعوات القومية الغربية، وعدم اتضاح الرؤية، سبباً في عدم صمودها كثيراً وتفرق المنادين بها[(٣)]".

---

(١) حركات ومذاهب في ميزان الإسلام، فتحي يَكن، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩م، ص ٨٩

(٢) المرجع السابق، ص ٨٩

(٣) المرجع السابق، ص ٩٩

المبحث الثالث:

قضايا وموضوعات إنسانية في الروايتين العربية والإنجليزية :

جبلت النفس الإنسانية على الحياة الكريمة الهادئة، فالإنسان السوي يأبى الظلم وتنفر روحه من مناظر الدم، والقتل، والهدم، فالبشر هم أداة لبناء مجتمعاتهم، وهذا يتفق مع ما أودعه الله تعالى فيهم من حب للعمل، وتطلّع للعلوم والمعارف .

فالأمن والاستقرار والحرية من المطالب المهمة للإنسان، لاتفاقها مع إنسانيته، لكن في ظروف الحرب يُهدد أمنه وتصادر حريته، وتنال الحروب من إنسانيته بالقتل والتهديد والطرد من أرضه .

إن ما يُلاحظ على الروايات – محل الدراسة –هو وضوح النزعة الإنسانية وتجليها بشكل لافت للانتباه، تناول الروائيون قضايا متعددة تناقش انشغالات الإنسان وهواجسه، في ظل الاحتلال، بعيداً عن الاختلافات الموجودة كالدين، والعرق، والجنس؛ لأن ما يهم هو الإنسان وما تنطوي عليه نفسه من مشاعر و أحاسيس تتأثر وتُصاب بشروخ عميقة جراء الاعتداءات المتلاحقة عليه .

يلتقط الروائي بعدسته هموم الإنسانية، وعذاباتها، وحيرتها، ورفضها للحرب؛ فتبدو هذه الهموم – للوهلة الأولى – محلية أو إقليمية خاصة بالإنسان الذي يعيش في فلسطين، لكنها ما تلبث أن تتوسع في دوائر أكثر شمولية، حتى لكأنها تصف الإنسانية كلها، و الحديث عما يلاقيه الإنسان الفلسطيني في الحرب من معاناة، إنما هو تجسيد لما يلاقيه كل إنسان مظلوم في أيّ بقعة في العالم .

عكست الروايات هموم الذات، وغربتها، واستلابها، في ظل الاحتلال الجاثم على صدر الفلسطيني، الذي أسلمه للجوع المجرم بحصاره اقتصادياً، وأذاقه طعم الذل المحرق بتعاملاته اليومية المهينة .

أدى تشابه التجربة إلى تشابه الكتابة، وإن اختلف الشكل، بين الروايات العربية والإنجليزية، بالإضافة إلى التأثر و التأثير بالموضوع العالمي "القضية الفلسطينية" الذي تطرق له الأدباء والكتّاب من أنحاء المعمورة كافة، مستعرضين ما تلاقيه الإنسانية من معاناة واضطهاد، تحت نيران الحروب من كلا الجانبين. فهل استطاعت الروايتان رصد شبكة العلاقات الإنسانية للمجتمع الفلسطيني – الإسرائيلي تحت الاحتلال؟ وتصوير ما تلاقيه الإنسانية في حالات ضعفها وقوتها، ترددها وإقدامها، يأسها وأملها، حزنها وفرحها ؟

صورت الكاتبة Elizabeth Laird في روايتها A Little Piece of Ground نمط الحياة الروتينية المُستلبة، ومحاولات المحتل لتحجيم الإنسان الفلسطيني، ومنع تطوره وارتقائه، وأثر الهزيمة وآلامها، ونتائجها المادية والاجتماعية والفكرية على الإنسانية، في إطار العلاقة الجدلية بين الحرية وقيود الذل .

رصدت بموضوعية صوراً من عبثية الآخر الإسرائيلي التي لا يمكن أن يفهمها إلا من عاش بؤسها، واكتوى بنار حصارها. فالمحتل ينغص حياة الفلسطيني، ويدخل حتى في أحلامه، محاولاً اغتيالها وتشويهها . فكريم يكتب أحلامه التي يود تحقيقها مستقبلاً، وعلى الرغم من طفولية هذه الأمنيات، إلا أنها متأثرة بأجواء الحرب .

فهو يتمنى أن يكون محرراً لفلسطين من الغاصبين، وأن لا يقضي بقية حياته تحت الاحتلال يوقفه الجنود متى أرادوا عند نقاط التفتيش، يتمنى أن لا يهدم الجنود بيته ويطردونه

كما فعلوا مع غيره، وأن لا يطلقوا النار عليه، فيقضي عمره على كرسي متحرك، كما فعلوا مع أحد أصدقائه[١].

إن من أكثر ما يُقلق كريم ويُخيفه، هو فرض منع التجول على المدينة كلها، لأن ذلك يترتب عليه أن يبقى حبيساً في المنزل، ويُحرم الخروج واللعب مع أصدقائه، أو النظر من النافذة، لأنه قد يتعرض لإطلاق النار من أحد الجنود ! فتتحول المدينة بذلك إلى شوارع تسكنها الأشباح والدبابات، ويخترق صوت الرصاص هدوءها المفزع[٢].

كان العالم يزداد تعقيداً من حوله، فعند ذهابهم لزيارة الجد في القرية المجاورة التي لا تبعد أكثر من نصف ساعة، كانوا يقضون ساعات طويلة، حتى يتمكنوا من الوصول إليها، بسبب كثرة نقاط التفتيش[٣]. فهو طفل لا يستطيع فهم ما يجري، ولا احتمال الانتظار الطويل الممل في السيارة. تضعه هذه المواقف كغيره من الأطفال في بؤرة القلق، والتوتر، والمجهول، الذي يولد من الإحباطات المتتالية، والواقع المدمى على يد المحتل .

إن معابر الحدود التي يقيمها العدو الصهيوني، تعكس مدى الإذلال الذي يتعرض له الفلسطيني على طرفي المعابر في ظل البرد، والحر، والجوع، وآلام النساء، والشيوخ، والولادات، وصرخات الأطفال؛ بالإضافة إلى نقاط التفتيش الداخلية المذلة، فالفلسطيني عليه تحمّل كل مشقات المعاناة المزمنة، تعكس نقاط التفتيش عبثية العدو، وسخريته، ولا مبالاته، وعدم احترامه لإنسانية الإنسان [٤].

---

(١) A Little Piece of Ground by Elizabeth Laird , 8

(٢) الرواية السابقة، ص١٠

(٣) الرواية السابقة، ص ٤١

(٤) انظر: الاغتراب والمقاومة، حسن عليان، ص ١٨٦

تصور الكاتبة حالة الأسرة الفلسطينية تحت الحصار، وهي تستعد للخروج من المنزل لقضاء حوائجها الضرورية في وقت السماح، فكأنه سجن جماعي للمدينة بأكملها. "فالأم تريد شراء الطعام لأنه نفد، والأب سيذهب لشراء الدواء لطفلته الرضيعة، والطفلة فرح تريد الخروج للعب بدميتها مع أطفال الجيران، وكريم ممسك بكرته يريد أن يجري ويقفز ويلعب مع أصدقائه[١]".

رغم كل هذه الصور المأساوية القاتمة، التي تحرم الإنسان من أبسط حقوقه، يحاول الفلسطيني إدخال الألوان الزاهية عليها، والتأقلم معها، وتسخيرها لصالحه، بل والاستمتاع بها رغم حزنها. فتكمن هنا مفارقه عجيبة، فالحصار الذي غرضه خنق حرية الفلسطيني، وكسر روحه وإرادته، أصبح دافعاً له لأن يزداد تمسكاً بالحياة، ويستشعر أهمية كل لحظة فيها، فهو يمارس نضاله ضمن سياق مرجعية وجودية .

تعمدت سياسة المحتل استعراض قوتها وأسلحتها أمام شعب أعزل، إمعاناً في أهانته وإذلاله، وطرده من أرضه، والاستيلاء عليها، ليجد الفلسطيني نفسه بين ليلة وضحاها، خارج منزله وقريته، ولا يملك سوى المفاتيح التي تذكره دائماً بمنزله ووطنه المسلوب[٢].

برزت في الرواية مشاهد مترعة بالحزن والأسى، والألم الإنساني العميق، يلاقيها الفلسطيني في حياته اليومية في ظل هذا الاحتلال المتغطرس، فما من قصة إلا وتعزف على الوتر الإنساني. تجرعت الأم الفلسطينية ألواناً من المعاناة الدائمة، بسبب خوفها على أبنائها من الجنود، وعجزها عن حمايتهم، فقد يسجن أحد الأبناء دون الإدلاء بالأسباب، أو السماح لعائلته

---

(١) A Little Piece of Ground by Elizabeth Laird , 17

(٢) الرواية السابقة، ص ١٢١

بزيارته، كما حدث مع أم سامي، فقد سُجن ابنها الكبير ونُقل إلى سجن داخل إسرائيل، فأصبح من الصعب عليها زيارته، بسبب كثرة نقاط التفتيش، وفي أغلب الأوقات كانت تُمنع من ذلك [١].

فرض المحتل واقعاً جديداً، أحاط البلاد والشعب بعناصر الأذى من كل جانب، فهو عرضه للاعتقال في أي وقت لمجرد الاشتباه، أو للتسلية، ناهيك عن ظروف هذا الاعتقال الذي يفتقر إلى الموضوعية؛ "وفي السجن يتعرض الفلسطيني لألوان من التعذيب والعنف وامتهان الكرامة، بالإضافة لافتقار السجن لأدنى المقومات الإنسانية الضرورية[٢]".

أما الكاتبة Dixiane Hallaj في روايتها Refugee Without Refuge فقد عرضت نماذج للإنسانية المعذبة تحت الحصار، والعنف المتبادل بين الطرفين، فحين تُقتل الرحمة يتحول الإنسان لآلة صماء مجهزة للقتل والنسف، فالآخر الإسرائيلي يتعمد إذلال الفلسطيني، وأهانته، في مواقف متعددة في الرواية .

يكره "محمد" كثرة نقاط التفتيش، وما يُلاقيه يومياً من الصعوبات المتزايدة التي تثقل كاهله، وتنال من كرامته بوصفه إنساناً؛ فالجنود يكيلون له يومياً السباب والشتائم، طُرد من عمله بسبب عدم قدرته على الذهاب إليه بانتظام بسبب الحصار، الذي يُفرض بين الحين والآخر على المخيم، نقلت لنا الكاتبة الصور والأحداث التي تجسد الواقع بمرئياته، ومخزونه الإنساني، والاجتماعي، والنفسي، الذي يفسر ازدياد معاناة محمد النفسية حين يرى أطفاله من حوله وهو عاجز عن إطعامهم[٣].

---

(١) الرواية السابقة، ص ١١٥

(٢) Witness in Palestine , Anna Baltzer , Paradigm Publishers ,2007, 52

(٣) Refugee Without Refuge by Dixiane Hallaj, 2

وعلى الرغم من سوداوية المشهد وحزنه، تحاول الجدة إدخال الفرح والسعادة على الأطفال، بسردها الحكايات القديمة عن البلاد، في محاولة لإنعاش الذاكرة التي أثقلتها الهموم الحياتية اليومية، ومحاولات المحتل الدائبة جلب الموت للفلسطيني بكل أشكال هذا الموت(١). لكن المفارقة تكمن في تأكيد تفوق الفلسطيني على نفسه، فهو يُلغي مشاعره الذاتية، وهمومه، لينخرط في أحزان الجماعة وواجبه الاجتماعي؛ فكلما زاد المحتل من تعذيب الإنسان الفلسطيني، كان ذلك دافعاً له لزيادة التوحد الإنساني، وتقوية اللحمة الاجتماعية، لمواجهة المحتل وما يفرضه من واقع يصعب عليه مواجهته بمفرده.

أدى الاحتلال إلى تفاقم المشكلات الإنسانية في المخيم الفلسطيني من فقر، وبطالة، ومشكلات اجتماعية، وصحية، ألحقت الضرر بإنسان المخيم، يتضح ذلك عند إصابة "إيمان" في المظاهرة، ومحاولة "أمل" إسعافها ونقلها إلى مستشفى المخيم، الذي يفتقر لأبسط المعدات الطبية الضرورية، فالطبيب لا يعلم مدى خطورة إصابتها لعدم وجود الأجهزة اللازمة لذلك، أنقذ حياتها، وأوقف نزيف الدم وطلب من الأهل الانتظار حتى ينتهي الحصار، ثم تنقل بسيارة الإسعاف إلى مستشفى المدينة(٢).

سلطت الكاتبة الضوء على الانتهاكات الإسرائيلية للإنسانية، وعدم الاعتراف بحقوقها، وافتقار المحتل لأدنى معايير الرحمة بالمرضى، فالجنود يقتحمون المستشفيات للتفتيش عن مطلوبين بين المرضى، ويلاحقون سيارات الإسعاف ويطلقون النار عليها لمجرد الاشتباه .

وضع المخيمات الفلسطينية المزري، وازدياد تفاقم المشكلات الصحية فيها، كان السبب وراء التفات المنظمات الإنسانية العالمية إلى معاناة إنسان المخيم، لكونها غير صالحة للحياة

---

(١) الرواية السابقة، ص ٩

(٢) الرواية السابقة، ص ٩٧

البشرية، إذ لا هواء نظيف في تلك المخيمات، ولا مياه نقية، ولا ملاعب للأطفال، ولا كهرباء، ولا فرص عمل، مما أدى إلى تدهور الوضع الاقتصادي وزيادة العاطلين عن العمل[1].

لم تستطع ستائر النسيان حجب ذكرى زوجة "محمد" من ذاكرته، فموتها أمام عينيه في سيارة الإسعاف بسبب استهتار الجنود، وعدم السماح لهما بالعبور للمستشفى، سبب جروحاً غائرة في نفسه، لعجزه عن إنقاذها؛ فلا يزال المشهد ماثلاً أمام عينيه بكل تراجيديته ومأساته، تمر أمام عينيه مشاهد متنوعة من إذلال الجنود للفلسطينيين، يتذكر نقاط التفتيش، وطوابير الناس، وأنواع المهانة والاستهانة بالإنسان الفلسطيني وحياته.

حول الاحتلال بإجراءاته التعسفية، الإنسان الفلسطيني إلى قنبلة موقوتة، مجهزة لتدمر كل ما حولها، فبسبب واقعة السيِّئ الذي لا يلبي أدنى مطالبه، اشترك "محمد" مع الفدائيين ليقوم بعملية انتحارية انتقاماً لزوجته ولحياته التي سُلبت، ولكنّه تراجع عندما أيقن أن الحرب مع العدو تأخذ أشكالاً متعددة، أكثرها فاعلية هو تربيته الأبناء وتعليمهم مقاومة المحتل، فهذا هو أقوى أنواع الأسلحة، وهو الذي يضمن استمرار المقاومة جيلاً بعد جيل[2]. فأدى فهمه للواقع ومجريات الأحداث إلى عدم التسليم للحزن والانهزام، بل الإعلان في قوة وإصرار، أنه سيستمر في المواجهة.

لم يكتف الاحتلال بإرهاب المرضى في المستشفيات، بل واصل انتهاكه للمدارس بغية بث الرعب والخوف في نفوس الطلبة، وكسر إرادتهم وعزيمتهم . يحكي "جهاد" عن اقتحام الجنود قاعة الاختبار، للبحث عن مطلوب، سألوا عن "مراد كامل"، ولم يجبهم أحد من التلاميذ، ثم أخذوا يبحثون في أسمائهم المكتوبة على الأوراق أمامهم إلى أن وجدوه واعتقلوه من بين أوراقه

---

(١) Chris Hedges Gaza Piary Harper Magazine , New York ,2001 ,9

(٢) Refugee Without Refuge by Dixiane Hallaj, 178

الدراسية وأقلامه، أمام الطلاب والمعلمين، خرج الضابط وتبعه الجنود، وعند خروج آخر جندي توقف والتفت للتلاميذ قائلاً: من حسن حظكم أننا وجدنا الأسماء على الأوراق، وإلا كنتم ستعتقلون جميعاً وتجرون إلى السجن، إلى أن نجد "مراد كامل" !

استطاعت الكاتبة رصد عمق المأساة، وواقعية الأحداث، بانحياز للإنسانية ضد أي شكل من أشكال هدرها؛ فالأحداث كلها تصب في سياق ذي هدف واحد، هو سياق الحفاظ على الإنسانية ضد أي اعتداء عليها .

كان لهذا الموقف الأثر السلبي على "جهاد" إذ تخلى عن حلمه في أن يُصبح محامياً يدافع عن وطنه وشعبه، لعلمه بعدم جدوى ذلك، فالمحتل لا يعترف بحق أحد، ولا يسمح للقانون أن يأخذ مجراه، فالأحكام معروفة مسبقاً أنها في غير صالح الفلسطيني، فالقانون الإسرائيلي لا يُعامل الفلسطينيين بوصفهم مواطنين من أي درجة، بل هم أعداء يجب محاربتهم بكل الوسائل المتاحة [١].

رصد إبراهيم نصر الله في روايته "أعراس آمنة" تشويه الحروب للإنسانية وعوالمها الجميلة، فأضحى كل شيء مُلطخاً بدماء الأبرياء، فالإنسان الفلسطيني يُعاني الخوف والقلق، وترقب الموت المفاجئ في أي لحظة، لقد سببت الأحداث الدموية شروخاً في نفسية الفلسطيني يستحيل علاجها مهما طال الزمن، يقول الطفل عزيز لآمنة: عند انتهاء هذه الحرب، لن تمتد يدي إلى الفأس أبداً حتى لزراعة الزهور[٢] . لارتباط الفأس – وهو الأداة لحفر القبر – بالموت، فهو لا يريد الإمساك به حتى وإن تغير السبب .

---

[١] الرواية السابقة، ص ٢١٦

[٢] أعراس آمنة، إبراهيم نصر الله، ص ٥٧

كرّس الآخر الإسرائيلي قوته لمحاربة الفلسطيني، محاولاً هدر إنسانيته، وكرامته حياً أو ميتاً. فلم يتوان الجنود عن قصف المقابر الفلسطينية، ولم يراعوا حرمة الموتى، إمعاناً في الإساءة إليهم ولذويهم [١]. فهل هذا هو تعبير عن خوف الإسرائيلي من الفلسطيني حتى بعد موته ؟ أم أنه وسيلة من وسائل المحتل للنيل من الفلسطينيين الأحياء منهم والأموات، وليثبت أن يده قادرة على أن تطالهم حتى وهم في قبورهم ! تناقضات وأسئلة وتأويلات شُغل بها الإنسان القابع تحت الاحتلال، فلعل المحتل يفعل ذلك لرغبته في إخفاء آثار جريمته وقتله الأبرياء.

إن الاحتلال قادر على أن يُفرق بين المرء وزوجه، وأن يُحيل حياتهما إلى جحيم لا يُطاق، كما فعل مع آمنة وزوجها؛ فقد أصبحت تسترق أوقات لقائه، خوفاً من العدو، فهو مطارد لاشتراكه في المقاومة [٢].

رسم إبراهيم "نصر الله" الإنسانية المعذبة التي افتقدت إحساسها بذاتها، وقدرتها على الحياة بشكل طبيعي، فالاحتلال لا يكتفي بمصادرة منازلهم، وأراضيهم وأملاكهم، بل يحاول مصادرة إنسانيتهم، وسلبهم إياها، وجعلهم أعداداً لا قيمة لها ولا دور ولا هدف واضح .

وحدت الحروب الوجع الإنساني، فأُلغيت الأنوية، وحلّ محلها الهمّ الإنساني المشترك، يتضح ذلك في المشهد المُحزن الذي نقله "إبراهيم نصر الله" لآمنة والنساء المتحلقات حول القبر، لقد أخفت آثار الجراح ملامحه، فأصبح هذا الشهيد هو الأب والزوج، والأخ، والخطيب، والجد. كل واحدة منهن تدعي بأنه قريبها، تجلس عند قبره لتناجيه، وترفض الذهاب لبيتها وترك الجماعة، حتى بعد تأكدها من أنه ليس شهيدها [٣].

---

[١] الرواية السابقة، ص ١٠١

[٢] الرواية السابقة، ص ٦٦

[٣] الرواية السابقة، ص ٩٣

تضع الكاتبة في رواية Al Naqba by Barbara Goldscheider الإنسان الإسرائيلي ومعاناته تحت دائرة الضوء، فالعالم لا يهتم على حسب الكاتبة بمعاناة الإسرائيلي اليومية، وحياته المهددة، وإنسانيته المعذبة في الحرب.

فالضابط " Neyri" ينفصل عن زوجته التي يحبها، بسبب طبيعة عمله ضابطاً في الجيش الإسرائيلي، فهو يقع في حيرة بين حياته، وواجبه تجاه دولته، يرى أن واجبه الإنساني يُحتم عليه حماية المستوطنين من الهجمات التي تستهدفهم؛ فعند حصول انفجار، ووقوع قتلى وجرحى، يزيد إيمانه بأهمية دوره في حماية الأبرياء[١].

كانت الحرب واندلاع الانتفاضة ضد المحتل من أقوى أسباب التدهور الاقتصادي الإسرائيلي، فإلى جانب الخسائر البشرية، كانت هناك خسائر مادية، ألحقت الضرر بالإنسان الإسرائيلي، وأضعفت فرص تطوره ونمائه؛ فكل اقتصاد الدولة منصب على تأمين الوسائل الدفاعية الحربية، لشعورهم الدائم بالخوف، وفقدان الأمن، جراء التفجيرات المتعاقبة التي أودت بحياة المئات.

يبرز هنا سؤال عن كيفية تأثير الحروب الدائرة بين الطرفين في نظرة كل منهما إلى نفسه بوصفه إنساناً قبل كل شيء وبعيداً عن كل اعتبار ؟

يذكر "David" في حواره مع "Neyri" آثار الحرب وتجريدها للجندي من إنسانيته، فهو يدخل الحرب باسم القومية، أو الدين، وأحياناً كثيرة لا يوجد هناك أي سبب واضح لديه للحرب؛ فالجنود هم أكثر ضحاياها، يتذكر الجندي أول حرب خاضها و أول رصاصة قتل فيها إنساناً، كل هذه الآلام تُطبع في عقله، وفي كل خلية من خلايا جسده، فهو في النهاية إنسان

---

(١) AL N aqba by Barbara Goldscheider , 13

تكره نفسه مناظر الدم والقتل، فهي تؤثر فيه ويظل يعاني تبعات هذه الحرب النفسية طوال حياته[١].

ذاق الإنسان الإسرائيلي مرارة فقد الأحبة وموتهم جراء العنف المتبادل. فالهجوم يستهدف قلب المدينة ليفجر في الأماكن العامة المكتظة بالناس، ليحيل المكان في لحظات إلى ركام وأشلاء ورماد[٢].

عكست الصور والأحداث الدموية تصدع الإنسانية تحت مطرقة الانتهاكات لكن، هل كانت هناك لغة غير لغة الحرب والدم والقتل، وهل استطاع الكتّاب التقاط الصور الإنسانية المشرقة على الرغم من كل مشاهد الموت المبثوثة في الروايات ؟

كلما كان العمل الروائي أكثر اتصالاً بالواقع كان أكثر إنسانية، وأكثر تمثيلاً للواقع المعيش، فقد صورت الروايتان "العربية و الإنجليزية" النضال الحقيقي للإنسان "الفلسطيني، الإسرائيلي"، الذي يعيش واقع الحرب، و تتجذّر قضيته في تربة تاريخية عميقة على مدى عقود، فهو نضال من أجل الإنسان وقضاياه المصيرية؛ فكان هناك صور للآخر "الإنسان" الذي رفضت فطرته السوية الظلم، وفي المقابل برزت صور لمشاهد تُهان فيها كرامة الإنسان، فيُقتل ويسجن وتُلغى إنسانيته، باسم الحرب والدفاع عن الدولة.

إن الإنسانية مفهوم يصعب تحديد ملامحه وحدوده بدقة. فله عدة معانٍ تختلف على حسب منظور كل شخص له، فالإنسان شديد التعقيد بأفكاره ومشاعره، و كل شخص يختلف بصفات تميزه عن غيره. فقد يكون معناها: "كل ما يميز الإنسان عن غيره من الكائنات الحية الأخرى،

[١] الرواية السابقة، ص ٧٣

[٢] الرواية السابقة، ص ٢٢١

فميزة الرقي العقلي والروحي خاصة إنسانية انفرد بها الإنسان دون غيره من المخلوقات[١]". وقد يكون مجموعة المشاعر والمفاهيم والثوابت الأخلاقية لدى الإنسان. وقد تكون الإنسانية هي "أنسنة العدو" بمعنى القدرة على رؤية الإنسان في العدو بغض النظر عن دينه وجنسه ولونه وثقافته. "فالنفس الإنسانية هي طاقة كبرى ومكنون عميق ليس من السهل استجلاء كل بواطن الخفاء وليس من اليسير استفزاز الأسرار الكامنة داخله[٢].

عرضت الكاتبة سحر خليفة للعديد من المواقف الإنسانية في روايتها " ربيع حار " ففي وقت قصف نابلس، وحصار الرئيس ياسر عرفات في مقره، أتى مجموعة من دعاة السلام من كل جنسية ولون ليقفوا بجانب المحتجزين الفلسطينيين، ويرفعوا لافتات أمام عدسات الكاميرا لوقف الحصار والاحتلال؛ ففيهم إنجليز، وألمان، وأمريكان، وطليان، وحتى يهود ؟! فهناك الكثير ممن يرفض الظلم ولا تروقه سياسة دولته الهمجية .

"مسؤولة الوفد الفرنسي : "كلوديا لوبو ستيك" قالت لنا: حين سمعت ما يجري في رام الله توقعت ارتكاب مجزرة جديدة فقررت المجيء بأي ثمن، وتقول: إنّ أعضاء الوفد يؤمنون أن الصمود الفلسطيني يعزِّز الصمود ضد العولمة، وهيمنة أمريكا و إسرائيل لكن الفلسطينيين ومن معهم سيكسبون الحرب في النهاية[٣]".

لقد جمعهم على اختلاف أجناسهم رفض الظلم، وهدر إنسانية الفلسطيني الذي ظنّ طوال هذا الوقت أن العالم قد نسيه، وأصبح الاعتداء عليه أمراً معتاداً في هذه الحرب غير المتكافئة .

---

[١] الإنسان: الروح والعقل والنفس، نبيه عبد الرحمن عثمان، مؤسسة الاهرام، مصر، ١٩٨٧م، ص ٤٢

[٢] المرجع السابق، ص ٨

[٣] ربيع حار، سحر خليفة، ص ٢٣٣

"قاطعت الحديث اليهودية الكنديّة نتايا غولان وقالت: أريد أن يعيش أولادي بحب وسلام، ولكن في ظلّ الاحتلال، لن يعيش أحد بسلام"(١).

رفض أعضاء الوفد أن يُعاملوا ضيوفاً بامتيازات، أرادوا المشاركة الفعلية في الاعتصام داخل المقر؛ كانوا يقومون بالتنظيف والطبخ، وفي الليل كانوا يتوزعون في الغرف ليكونوا دروعاً بشرية أمام الهجمات المحتملة(٢).

عملوا ليل نهار كخلية نحل، فهذا البروفسور ابن الستين عاماً يكتب التقارير أولاً بأول عمّا يحدث، و"جوليا" الفتاة الرقيقة تمزّق قميصها لتقوم بتضميد جراح أحد الشباب، و"محمد بن بركة" من المغرب، رغم علمه بوفاة أبيه أصرّ على البقاء في مقر الرئيس، تركوا كل عالمهم خارجاً، وضحوا بأنفسهم للدفاع عن الإنسان الفلسطيني ضد هذا الاحتلال الغاشم. ورغم الأحزان والخوف، احتفلوا بعيد ميلاد "نكلسون" الخامس والخمسين، فرح صغير يُطل عليهم، أرادوا أن يتناسوا به الموت المحدّق بهم، حمل "نكلسون" صينية احتوت على قطع الحلاوة والبندورة بديلاً عن الكيك والشكولاتة وشمعة أطفأها وسط التصفيق والأمنيات بعيد سعيد، التقطوا الصور التذكارية في هذا الحفل العجيب الغريب، رمزاً للحب والصداقة وتآخي الشعوب(٣).

أرادوا مشاركة الفلسطينيين تلك اللحظات الخطيرة، تحت القصف والنسف، ورائحة البارود والدم التي تعبق في المكان، ليقولوا لهم بأنكم لستم وحدكم في هذه المعركة الشرسة؛ وليوصلوا رسالة للفلسطينيين وللعالم أجمع، أن الإنسانية لها قدسيتها ولابد من حمايتها بعيداً عن أيّ اعتبار .

---

(١) انظر: الرواية السابقة، ص ٢٣٣

(٢) انظر: الرواية السابقة، ص ٢٣٤

(٣) انظر: الرواية السابقة، ص ٢٣٤

إن ما يجري على الأرض من قتل وتفجير ونسف للبيوت والمقدسات، إنما المقصود به النيل من كرامة الإنسان الفلسطيني، وسلبه حقه في الحياة على أرضه بسلام. كل ذلك كانت له نتائج سلبية على الإنسان الفلسطيني والإسرائيلي على حدٍ سواء، لأن كل ما يجري حوله هو مخالف للفطرة التي فطرهم الله عليها.

يعيش أحمد حالة من الضياع، يرى مدناً تحاصر، وتقصف، ويُقتل من فيها بدمٍ بارد، قتلوا عقله وروحه، قتلوا الإنسان في داخله، رأى ما رأى ، وسمع ما سمع وها هو يحلم بالقتل، فقد الإحساس والمنطق، رأى جنين كيف أحرقوها وحرثوها بالدبابات وطردوا أهلها من بيوتهم. "وناس هدموا بيوتهم فوق رؤوسهم ومشوا فوقهم بالدبابات، والناس اللي خرجوا من بيوتهم تحت الشتا وبالهوا البارد حتى الطبيعة ما رحمتهم ، مش عارفين وين تهرب أو تتخبا، من ظلم السما أو ظلم الأرض[١] ".

صورت الكاتبة المواقف والحوادث التي دلّت في المقابل على إنسانية الآخر اليهودي؛ فهو ليس دائماً مُحباً للقتل، بل يرفض العنف وكل ما من شأنه أن يُقلل أو يُلغي إنسانية الفلسطيني، فقد شاركت الفتاة الإسرائيلية وصديقتها الأمريكية في مظاهرة ضد هدم المنازل لبناء الجدار الفاصل، وكانت النتيجة أن دهست الجرافة الفتاة الأمريكية تحتها[٢].

يرى "الخوري" عند حديثة مع "أحمد" أن الإنسان ليس مسؤولاً عن تصرفاته. "الإنسان أحسن بكثير من أعماله، حتى اليهود، مش محتلين، مش مستوطنين، لكن فيهم ناس ممتازين[٣] ".

---

[١] انظر: الرواية السابقة، ص ٢٧٤

[٢] انظر: الرواية السابقة، ص ٣٧١

[٣] الرواية السابقة، ص ٣٢٧

يحاول الخوري تفسير ما يقوم به الآخر اليهودي،" يعني المستوطن لما يعيش هذا الواقع، واقع كريه، واقع خربان، واقع معجون بالكراهية والرعب والخوف، ممكن يصدق إن الاعتداء على الغير ممكن يحميه، لكن بعدين ممكن يصحى، وممكن يندم، بالحب وبالسلام ممكن نخرج من هذا العنف، لكن بالقتل وبالعمليات، مش ممكن نخلص ونخلّص[١]".

فإذا كانت الإنسانية هي القدرة على التعامل مع الآخر على أساس إنساني بغض النظر عن دينه ولغته وثقافته، فهل هذا يتضارب مع الدعوة إلى القومية ؟

قد يظن البعض أن الدعوة إلى الإنسانية مع الآخر ضار لأنه يُلغي ويُفني القومية ويذيبها في مفهوم واسع، يشملها ويشمل أعداءها على مستوى واحد. إن الأديان السماوية كلها كانت تُخاطب إنسانية الإنسان، فهو مُطالب بالعدل والرحمة والإحسان حتى مع الحيوان والنبات، لذلك كان من الأولى أن تطغى إنسانيته على كل اعتبار، فلا يظلم ولا يسفك الدماء ويفسد في الأرض، فالإنسان يمر بسلسلة انتماءات تبدأ بالعائلة، مروراً بالقومية، ثم بالانتماء للإنسانية كلها.

أما في رواية <u>Destined to Die</u> by Victor Sasson فقد أفرزت الحروب صوراً للمعاناة الإنسانية، التي كانت نتيجة طبيعية وحتمية للحرب، فكانت حياة البؤس والشقاء سبباً في شلّ قدرات العقل العربي، الباحث عن الحرية، بشرطها الإنساني الممتد بلا حدود .

أدى الاحتلال إلى تزايد هموم الفلسطيني، وهواجسه، وحيرته، كخوف الأبوين وقلقهم على أبنائهم، نتيجة استفزاز الاحتلال لهم بهمجيته وعنفه ضدهم، مما دفعهم للبحث عن حلول سريعة تخلصهم منه ومن بطشه؛ لم يعد هناك مجال للصبر أو الاحتمال أكثر. فالآخر اليهودي يزيد من انتهاكه لحقوق الفلسطينيين، ويتعمد إِهانتهم والنيل من كرامتهم، وهو بذلك يوجه الإنسانية تجاه

---

[١] الرواية السابقة، ص ٣٢٨

الحروب والتصعيد. يفرض المحتل قيوداً على حرية الفلسطينيين، ويصادر أبسط حقوقهم التي تشعرهم بوجودهم وإنسانيتهم، محاولاً قمع حريتهم في التعبير عن استيائهم ورفضهم لما يجري على الأرض في المظاهرات السلمية، أُغلقت الجامعة حتى إشعار آخر، بسبب المظاهرات مما زاد من رغبة نبيل وأصدقائه في الانتقام [١].

يتلذذ الآخر الإسرائيلي برسم الشقاء والحزن على وجوه الفلسطينيين، فقد تطرد عائلة بأكملها من منزلها، ويهدم أمام أعينهم بسبب انضمام أحد أبنائهم للمقاومة. يحاول الإسرائيلي" katz" أن يُبرر ذلك لصديقه الأمريكي" Johnson" بقوله إن هذا ليس من قوانين الدولة الإسرائيلية، بل هو موروث من القوانين البريطانية القديمة، أيام وجودها في فلسطين. استغرب الأمريكي من ذلك وقال: إسرائيل أخذت دولة بأكملها، وطردت شعبها ولا تستطيع استخدام الممحاة لمحو هذا القانون غير المنصف ؟!

يذكر "Pluto Press" وهو كاتب وناشط حقوقي إسرائيلي من أصول أمريكية، مساهمته مع مجموعة من نشطاء السلام، من كافة دول العالم، في التنديد بسياسة دولته إسرائيل، القائمة على العقاب الجماعي للفلسطينيين، وهدم منازلهم والاستيلاء على أراضيهم بدون وجه حق[٢].

كانوا يتحلقون على شكل سلاسل بشرية حول البيوت، في محاولة لمنع الجنود من هدمها، ويتعرضون كثيراً للضرب والسجن بسبب أعمالهم الإنسانية، اشترك في لجنة لدعم جامعة بيرزيت / جامعة فلسطينية، بسبب وضعها تحت قيود صارمة، بما في ذلك إغلاقها لفترات

---

(١) Destined to Die by Victor Sasson , 81

(٢) An Israeli in Palestine , Jeff Halper ,16

طويلة رداً على المظاهرات الطلابية، والرقابة المشددة على الكتب والاعتقالات الجماعية للطلاب والمعلمين[١].

يذكر الكاتب لقاءً أُجري مع أحد الجنود الإسرائيليين، المكلفين بهدم المنازل في عام ٢٠٠٢م، فيقول الجندي: عندما أصدرت قيادتي قراراً بحصار إحدى القرى الفلسطينية في الضفة الغربية وهدم منازلها، عملنا هناك لمدة ثلاثة أيام متواصلة في الهدم، بعض المنازل تركها أصحابها وبعضها كان الجنود يُخرجون من فيها عبر مكبرات الصوت قبل الشروع في الهدم. ويقول: أنا لا انتظر أحداً إذا انتهت المدة المسموح لهم بها بالخروج، أهدم المنزل بأسرع شكل ممكن. يذكر أنه لم يُشاهد بأم عينية أحياء داخل المنازل التي هدموها، وإن كان، فهو لا يهتم لذلك الأمر كثيراً. وهو لا يدري إذا كان هناك أشخاص في المنازل التي هدمها، لأن الغبار لا يسمح لهم بالرؤية، بالإضافة لعملهم الذي يكون غالباً في الليل[٢].

نتيجة لهذا الواقع المليء بالظلم والانتهاك للإنسان وكرامته، كان الاتجاه للمقاومة ردّ فعل طبيعياً لما يجري على الأرض. فهل يُمكن أن تُعد المقاومة مقياساً لإنسانية الإنسان ؟

إن المقاومة تكون لحيز الإنسان عندما تقاوم أسباب شقاء الإنسان وبؤسه ضد كل أشكال الاستعمار والاستبداد والظلم والقهر، لقد صدر نبيل عن جرحه، وهو القاسم المشترك لكل فلسطيني، ومعاناته على يد المحتل وسجنه وتعذيبه، واستلاب حريته وكرامته. أدى تحلل الآخر الإسرائيلي أخلاقياً وإنسانيا إلى ثورة نبيل على واقعه، وتوجهه للمشاركة في أعمال المقاومة في لبنان، ليرد بها كرامة شعب تفنن العدو في انتهاكها. غيرت ممارسات المحتل العدوانية فلسفة الموت والحياة عند الفلسطيني، فهو لا يقدم على الموت بسبب يأسه من الحياة، فهو محب

---

[١] المرجع السابق، ص ١٧

[٢] المرجع السابق، ص ٤٤

للحياة، ولكن الواقع الذي فرضه عليه المحتل لا يُلبي أدنى مطالبه، وحقه في العيش على أرضه بحرية وكرامة، فالنفس الإنسانية جُبلت على حبّ الحياة والاستمتاع بها، تشعر سميرة بذلك عند مواجهتها مع نبيل للجنود الإسرائيليين وقتلهم، استشعرت قيمة الحياة عندمـــا تعرضـــت حياتها للخطر. تريد أن تنعم بالسكينة والسلام والهدوء ، لكن في ظل الاحتلال لا يوجد سلام(١).

(١) Destined to Die by Victor Sasson,208

الفصل الثاني : صورة الإنسان في الروايات العربية والإنجليزية

المبحث الأول : الفلسطيني : تحديات الوجود والهوية

المبحث الثاني: صورة المرأة الفلسطينية في الروايتين العربية والإنجليزية

المبحث الثالث: الطفل الفلسطيني بين الروايتين العربية والإنجليزية

المبحث الرابع : نماذج مختلفة للمحتل

المبحث الأول

الفلسطيني: تحديات الوجود والهوية :

لقد قاتلت الصهيونية بسلاح الأدب قتالاً كان شريكها فيه الأدب الإنجليزي، الذي كان يدعم بشكل أو بآخر في الآونة الأخيرة فكرة الخلاص الإلهي، والعودة الحتمية ليهود العالم إلى أورشليم. و قد لا نبالغ إذا قلنا إن قتالهم بالأدب قد بدأ قبل الصراع السياسي ودخولهم فلسطين. فكل ما حصل على الأرض هو ترجمة، وتحقيق، لما ورد في خيالهم الأدبي على مر السنين، من محاولة إدغام العودة لفلسطين بفكرة الخلاص الإلهي .

ومن أبرز ما ركزوا عليه في تصوير فلسطين، هو أنها أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض، وأن الإسرائيليين هم السكان الأصليون لهذه الأرض، وسيجلبون معهم السلام، والتحضر، والتطور، والمدنية، لهذه الأرض المعزولة فكرياً عن العالم .

ورداً على ذلك، ظهرت الكتابات الأدبية العربية محاولة التعريف بقضيتها، وإعادة سرد الحقائق المأخوذة من أرض الواقع، وكشف اللبس الذي يحاول الأدب الإنجليزي خلقه حول أرض فلسطين، بأنها أرض بلا شعب وبلا هوية، وأن سكانها عبارة عن مجموعة من العرب ليس لهم أية ملامح، ولا أصول تاريخية، تربطهم بهذه البقعة المقدسة .

الهوية المكانية كانت من أكثر الأمور المادية التي حاول الاحتلال طمسها، فهل استطاع بمحوها سلب الفلسطيني حبه لأرضه ؟ وهل يريد المحتل من طرده الفلسطيني إلى المخيمات وتغيير ملامح أرضه ومزرعته وبيته إثبات صلته التاريخية بالأرض أم أن كل ما يقوم به يدل على حقده على التاريخ والآثار التي لا يملكها؟

نجد أنّ سؤال الهوية كان مطروحاً في أغلب الكتابات الأدبية، وقد اتخذ أشكالاً عدة، كلها تصب في مصب واحد، وهو تأكيد وجود هذه الهوية، وإبرازها، مهما حاول المحتل إخفاءها، أو إزالتها، ومحاربتها.

في رواية أم سعد للكاتب الفلسطيني غسان كنفاني، نجد أن هناك ارتباطاً كبيراً، وشعوراً قويّاً، يشد أم سعد إلى فلسطين، وشوارعها، وبيوتها، وبساتينها، فحنينها إلى وطنها لم يخفّ، على الرغم من العشرين سنة، التي قضتها في الملاجئ، بعيداً عن أرض الوطن[1].

لقد فَرضت تجربة الاقتلاع والنفي القسري للفلسطيني عن أرضه نوعاً من الخصوصية في علاقاته مع الزمان والمكان. فمهما تعددت الأمكنة والمنافي فإن الحلم يظل يشد الفلسطيني إلى مكانه، ومهما تراكم عليه الزمن، فإنه يظل يشد أوتار الزمان المفقود وهو يطمح في استعادتهما معاً: الزمان المفقود والمكان المفقود.

ومع مرور الذاكرة الفلسطينية بتجارب القتل والإبادة والتهجير؛ فإن هذه الذاكرة ظلت حريصة على رسم صورة الأرض والوطن، قبل أن يطأها المحتل ويغير ملامحها، فقد أُلفت الكثير من المؤلفات التي يحاول كُتابها وضع صورة لفلسطين، وسهولها، وتلالها قبل الاحتلال، في محاولة للحفاظ على الهوية المكانية، التي يحاول المحتل بكل ما أوتي من قوة أن يطمسها، لعله بذلك يشعرهم بغربتهم عن أرضهم .

فنجد رجا شحادة في كتابه "سرحات فلسطينية" يتحدث عن الأرض الفلسطينية، وآثارها، وتضاريسها، وأسماء مدنها، وما أحدثه الاحتلال بها من أضرار. "مع انكماش عالمنا الفلسطيني يتوسع العالم الإسرائيلي، ومع زيادة عدد المستوطنات التي تبنى على تلالنا، والتي تدمر إلى

---

[1] رواية أم سعد، غسان كنفاني، ص١٣

غير رجعة الوديان والصخور، وتعمل على تسوية التلال بالأرض، وتغير معالم الأرض الغالية، التي لن يعرفها الكثيرون من الفلسطينيين مستقبلاً [١]"

تنبه الفلسطينيون لهذا الخطر الكبير الذي يهدد أرضهم، و سيحيلها لا محالة لمدن جديدة لا عهد لهم بها، فراحوا يوثقون ويكتبون عنها في كتبهم سواء أكانت أدبية أم تاريخية. "فخلال ما يقارب ثلاثة عقود استوطن ما يقارب نصف مليون يهودي مساحة لا تزيد على ٥٩٠٠ كيلو متر مربع، وبدون أدنى مشقة يمكن أن يتصور الإنسان حجم الضرر الهائل على التلال ونسفها ومساواتها بالأرض. كذلك حجم الدمار للطبيعة والمزارع والبساتين، لتتحول هذه الأرض فجاءه من تلال وزرع وحياة برية طبيعية، إلى مدن كبيرة تشبه مدن الغرب، بعيدة كل البعد عما كانت عليه. فالعلاقة بين الفلسطيني وأرضه علاقة تاريخية قديمة قدم هذه الأرض، فلكل وادٍ وينبوع وخندق وجرف في فلسطين اسم، عادةً ما يكون له معنى خاص. فبعض الأسماء عربية، وبعضها كنعانية، وبعضها آرامية، وكل ذلك خير شاهد على عراقة هذا البلد وتطور الحضارة فيه، ويدحض دعاوى الغرب القائلة بأنها أرض بلا شعب[٢]".

إن المحتل يحاول تزوير التاريخ وتدمير الآثار والمعالم، ليخفي آثار من عاشوا على هذه الأرض، يدفعه لذلك حقده على الحضارة والتاريخ، لأنه لا يملكها. فكل ما يملكه هو الأكاذيب التي اختلقها، وراح يرددها ويُقنع بها الشعوب الغربية، ثم أصبح يدافع عنها، ويتعامل معها على أنها حقائق. وقد سانده الأدب الإنجليزي في ذلك، فقد قام الرحالة الغرب قديماً بالكتابة عن أرض فلسطين، ومعرفة أسماء مدنها ووديانها وسهولها، ورسم الخرائط لها، وبقدوم الاحتلال قام الصهاينة بتغيير أسماء المدن والقرى، ورسم خرائط خاصة بهم، تصور أحقيتهم بالأرض .

---

(١) سرحات فلسطينية، رجا شحادة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠١٠ م، ص٧

(٢) انظر: المرجع السابق، ص ٨

لم تنجح محاولات المحتل لمحو ذاكرة الفلسطيني المكانية، بل زاد الإصرار على الرجوع للوطن والتحرر من الاحتلال. فالفلسطيني يؤمن دائماً بحتمية الرجوع مهما طالت سنوات الغربة والشتات، ولا يفتأ يذكر ذلك في كتاباته الأدبية شعراً ونثراً، لمعرفته بقدرة الكلمة على فعل ما يفعله الرصاص؛ فوحدها الكلمة التي لا يستطيع العدو قتلها، وستبقى شاهداً على حضارة أمة لها جذورها التاريخية العميقة التي يصعب اقتلاعها .

فأم سعد تقول "إن سعد سيرجع للمقاومة، ولفلسطين، حين يلتئم جرحه[١]"، ولم تقل إنه سيذهب، وذلك لإيمانها بقضيتها وإحساسها بانتمائها للأرض، وأنها فرع عنها ومردها لها. فهي لا تعبر عن نفسها وولدها المقاوم فحسب؛ بل هي لسان حال كل المغتربين عن الوطن.

ولا يكاد يتغير الأمر كثيراً عندما يتذكر الطفل راضي في رواية " ماء السماء " ليحيى يخلف- وهو الروائي الفلسطيني ووزير الثقافة السابق- رائحة أرضه وجداولها، والقرية ومساكنها، وكيف أنه منذ أول يوم لخروجه مع جماعة النازحين من نير الاحتلال، كان يحاول أن ينقش ذكريات المكان في مخيلته، خوفاً عليها من الضياع والنسيان[٢]

فعلى الرغم من ضرورة الرحيل واللجوء إلى مكان آمن بعيداً عن القتل والتدمير، كان الرحيل وترك الوطن بمثابة اقتلاع للروح من الجسد. فقط الحنين هو الشعور المسيطر على هذه الروح حين تركت الوطن، واتجهت إلى المجهول، كل شيء فقد شكله ولونه، وبدا الكون كأنه خاوٍ لا معنى له، وفاقد للحياة ، فترك الوطن هو موت أيضاً ولكن بشكل مختلف .

مع كل هذه الصور التراجيدية، الموحية بالأسى والدموع والحزن، كان الحلم يداعب الأرواح بحتمية الرجوع، والتغلب على مكر التاريخ." هب نسيم قادم من هناك فيه رائحة البلاد،

---

[١] أم سعد، غسان كنفاني، ص ٣٨

[٢] ماء السماء، يحيى يخلف، ص١٦

فارتجفت شفتا الحاج حسين واغرورقت عينا عبد الكريم بالدمع، وانشدت أبصارهم نحو الغرب، فجأة صهلت الفرس صهيلاً حنوناً، فلعلها الرائحة أيقظت حواسها الخمس[١]".

إنها رابطة المكان بالإنسان الفلسطيني، فهي أشبه بالحبل السري الذي يمده بأسباب الحياة. وهو كالنبات الذي يمتص حياته من أرضه بجذوره، فلو نُقل أو اقتلع ذبلت أوراقه وماتت." رفرف في أعماقهم طائر الحنين تنهدوا، زفروا بحرقة، تحسروا، شعر الواقفون الذين يتعلقون بخشب الصندوق، أن سيقانهم لا تكاد تحملهم[٢]".

لقد أخذوا الوطن عنوة، ولكن لن يستطيعوا اغتصاب الذكريات المحفورة في الوجدان وتدنيسها؛ فهي نقية كماء السماء الطاهر. وهي الأمل والدافع القوي للعودة. "ظل عبد الكريم يتخيل أبقاراً وعجولاً تتدفع أمام العجال، ويسمع دقة مهباش في جرن وارتداد الأمواج عن الصخور، ويرى قارباً صغيراً يبحر في عمق البحيرة، ويشم رائحة زعتر وفيجن ونعنع ..."[٣].

لقد وحدت الكارثة الناس، وأوجدت ما يسمى بأدب ملتزم، وهو الأدب الذي يعنى بالقضية ويدافع عنها، فمهما تغيرت ملامح الأرض؛ فإن حنين الفلسطيني لها لا ينضب ولا يتغير. فالالتزام هو مشاركة الشاعر أو الأديب الناس همومهم الاجتماعية والسياسية ومواقفهم الوطنية، والوقوف بحزم لمواجهة ما يتطلب ذلك، إلى حد إنكار الذات، في سبيل ما التزم به الشاعر أو الأديب. ويقوم الالتزام في الدرجة الأولى على الموقف الذي يتخذه المفكّر أو الأديب أو الفنان

[١] ماء السماء، يحيى يخلف، ص٤٠

[٢] الرواية السابقة، ص ٤٠

[٣] الرواية السابقة، ص ٤١

تجاه القضية، وهذا الموقف يقتضي صراحة ووضوحاً وصدقاً، واستعداداً من المفكر لأن يحافظ على التزامه دائماً، ويتحمل كامل التبعات التي يترتب عليها هذا الالتزام(١).

و بعضهم يحدد الالتزام تحديداً أدق، "فيرى الالتزام يعني اتخاذ موقف في النزاعات السياسية والاجتماعية، تعبيراً عن ايدلوجية طبقة أو حزب أو نزعة(٢)". فكان من الطبيعي أن تنشأ فكرة الالتزام في الأدب، نتيجة احتكاك الأديب بمشكلات الحياة التي يعيشها، وإدراكه لخطورة الدور الذي يقوم به إزاءها، فما الأدب إلا نقد للحياة وتفسير لها .

لم يحدث الاحتلال بين ليلة وضحاها، بل كان نتيجة لتخطيط دام سنوات، كان الآخر فيها مصراً على تهميش الإنسان الفلسطيني، محاولاً اغتصاب أرضه وتركه بلا أرض ولا ذاكرة، ولا حتى تاريخ وثقافة.

فمنذ القدم والرحالة الغربيون الذين يزورون فلسطين يرسمون صوراً في أخيلتهم للأرض الفلسطينية، ويتغير كل شيء بمجرد رؤية العرب، لقد أرادوها فعلا أرضاً بلا شعب، وأكثر كتاباتهم كانت تتناول العرب عموماً، متجاهلين في أغلب الأحيان الفلسطينيين، وكثيراً ما يرددون كلمة عدنا وليس أتينا(٣).

وحين انتقل حلمهم باحتلال فلسطين واقعاً؛ كانوا أمام تحد كبير أقوى من كل أنواع أسلحتهم، وهو الإنسان الفلسطيني نفسه، وما يحمله من ثقافة ميزته عن غيره. فهل استطاعوا بتهميشه سلب هويته الثقافية أو على أقل تقدير دمجها في الثقافات الأخرى وتضييع ملامحها وسماتها الأصيلة ؟

---

(١) انظر: الالتزام في الشعر العربي، أحمد أبو حاقة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م، ص ١٤

(٢) الالتزام والشرط الجمالي، أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري، مطابع الفرزدق ، ١٩٨٧، ص ٣٥

(٣) انظر: سرحات فلسطينية، رجا شحادة، ص ٩

لقد عمل الاحتلال بكل طاقاته وإمكانياته لمحو أي علاقة وارتباط بين الجيل الجديد وماضيه، لإخماد مشاعرهم القومية، وآمالهم في مستقبل باهر. وراح يضيق عليهم ضرورات الحياة، حتى يجعلهم مشغولين دائماً بالبحث عن لقمة العيش، وينسون قضيتهم. كما قاموا بتضييق الخناق على أدباء الأرض المحتلة، ومنحهم خيارين: إما الهجرة وإما الانصهار، ونفيهم ومحاربة أقلامهم وأفكارهم، كما رأوا أن السبيل الأنجح هو إبعاد الجيل القديم، وقطع علاقة أدباء الجيل الجديد بكل ما يمت للقضية بصلة[١].

فكما يُقابل المقاتلون الفلسطينيون بالنار، يُقابل حملة الأقلام بالاغتيال والضرب دون الإدلاء بالأسباب. لقد حرصوا على قمع الثقافة والأدب ومنع تداولهما، لأنهما بمثابة الشرارة التي توقد في النفوس الحماسة للمقاومة وعدم الخضوع. وهي الحصن الآمن للهوية الثقافية الفلسطينية التي تمنع اندثارها.

فالشعراء والأدباء أودعوا في السجون مثلهم مثل المقاتلين أمثال: محمود درويش و سميح القاسم و فوزي الأسمر وغيرهم من الكتاب. ولكن هذا لم ينجح في كسر إرادتهم، وتصميمهم على المقاومة بالكلمة، فمحمود درويش جدد رؤاه، وطور أداءه بصورة مذهلة في فترة وجوده في السجن[٢].

لقد انتهج العدو منهج الدول الاستعمارية الغربية، التي تحارب الأمة في ثقافتها ودينها، وتحاول فرض سيطرتها على العقول، حتى يسهل عليها القيادة. اتجه الآخر إلى التجهيل المتعمد للجيل الجديد، تجهيل من نوع اقتلاعي يعصف بالعلوم والآداب والمعارف، ويركز على الهوامش فعمدت إلى ملء المكتبات والأسواق بالروايات الضعيفة الفارغة المنادية بالجنس، وهم

---

[١] انظر: الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال، غسان كنفاني، ص ١٤

[٢] المرجع السابق، ص ١٩

بذلك يهدفون لخلق جيل ضعيف يتبع الموضة، ويغرق في الشهوات والمحرمات، وينشغل عن القضية. لقد فطن الفلسطينيون منذ وقت مبكر إلى المؤامرة التي تحاك ضدهم، وتهدف لتضييع هويتهم الثقافية واستبدال أمور تافهة بها، لتضعف من روح المقاومة .

فكان يتعين على كل أديب ملتزم أن يقاوم، وأن يبحث عن بديل، فكان البديل هو اللجوء إلى الرمز؛ فقد يتغنى الشاعر بالحبيبة والعشيقة وهو يقصد الوطن.

"لقد كان الشعر هو الأداة والقوة الكبرى في كسر الحصار الثقافي المفروض، وما ذلك إلا لسهولة تداوله بين الناس ولعدم الحاجة إلى طبعه في كتب(١)". كذلك كانت الأغاني الشعبية، والأهازيج المليئة بكلمات الثورة، والمذكرة بالقضية، التي تقال في الأفراح والمآتم التي تقام، وما تلبث أن تنقلب إلى مظاهرة حاشدة، يقابلها العدو بالنار.

وقفت الرواية جنباً إلى جنب مع الشعر، فكان لها دور كبير في عرض الثقافة الفلسطينية، لاتساع مساحتها، وقدرتها على عرض الأفكار بطريقة مباشرة أو عن طريق الرمز، ولمقدرة شخوصها على التعبير بحرية عن القضية، وطرح رؤى الكاتب والرؤى المعارضة له .

كان هذا حال فلسطينيي الداخل ومعاناتهم لحفظ هويتهم الثقافية، في ظل تهميش الاحتلال لهم، ومحاربة أقلامهم، فهل كان الفلسطيني في أرض الغربة محافظاً على هويته أم أنه انصهر في ثقافة البلد الجديد ؟

إن الحفاظ على العادات والتقاليد، وتعليمها للأبناء والأجيال اللاحقة، يعد من الأمور المهمة التي عكف عليها الفلسطيني في الداخل والخارج، وانعكس ذلك على الأدب، الذي هو بطبيعة الحال مترجم لثقافة الشعوب ومصور لها. فحاول الأديب جاهداً أن يبرز الهوية الثقافية

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٠

الفلسطينية ضمن أعماله الروائية والشعرية، التي تُرجم أغلبها ليصل إلى أكبر عدد ممكن من شعوب العالم .

فعلى الرغم من سنوات الغربة الطويلة التي عاشتها أم سعد في المخيم، ما زالت متمسكة بعاداتها وثقافتها الفلسطينية. "لقد علمتني أم سعد كثيراً، وأكاد أقول إن كل حرف جاء في السطور التالية، إنما هو مقتنص من بين شفتيها اللتين ظلتا فلسطينيتين رغم كل شيء، تنتظران السلاح عشرين سنة [١]".

تقول أم سعد عندما أحضرت للراوي عرق الدالية: "قطعته من دالية صادفتني في الطريق، سأزرعه لك عند الباب، وفي أعوام قليلة تأكل عنباً[٢]". هذا يدل بلا شك على الثورة التي ستؤتي أكلها ولو بعد حين. ويرمز أيضاً إلى أن الإنسان مهما ساءت ظروف حياته ومعيشته، فإن ذلك لا يمنعه أن يكون منتجاً قادراً على العطاء، وتعليم غيره .

وتتضح الهوية الثقافية في الإشارة إلى اللباس التقليدي الفلسطيني في أغلب الروايات، "تقول أم سعد على لسان سعد: ونظر الرجال إلى رأس الطريق الضيق المنحدر كالثعبان من التلة، وهناك رأوا امرأة في ثوبها الريفي الطويل الأسود، تنزل قادمة صوبهم، تحمل على رأسها بقجة، وفي يدها رزمة من العروق الخضراء[٣]".

ولا يغفل "يحيى يخلف" ذكر بعض العادات والتقاليد في الأفراح والمآتم في روايته "ماء السماء"، "في خيمة الحاج حسين، انطلق صوت الدبكة لأول مرة منذ هجر الناس الديار، وغنت

(١) رواية أم سعد، غسان كنفاني، ص ١٣
(٢) الرواية السابقة، ص١٦
(٣) الرواية السابقة، ص ٣٩

النساء بفرحٍ ناقص، وخرجت من الحناجر زغاريد شاحبة، فيما أخذت حفيظة والحاجة أم إبراهيم تصران الحلوى في مناديل ورق حلوى "الملبس على لوز" التي تشبه بيض الحمام ..[١]"

وإن كانت العبارات توحي بنقصان هذا الفرح لوجودهم في المخيم، وبعدهم عن الوطن؛ إلا أن الراوي حرص على ذكر تفاصيل هذا الفرح، حسب العادات الفلسطينية. "يجلس العريس والحاج حسين والسيد منذر الحيفاوي وعبد الكريم الحمد وعدد من وجهاء المخيم، ووسط الساحة الصغيرة، تجمع عدد من الرجال وشكلوا حلقة دبكة، ها هو فرح صغير يطل برأسه، وسط العتمة والذهول والغربة[٢]". ولم يُغفل الكاتب الأغاني الشعبية الفلكلورية، التي يتداولها الناس في البلاد.

يا رايحين ع يافا حبي معاكم راح   يا محملين العنب تحت العنب تفاح

كل من حبيبه عنده وأنا حبيبي راح   يا ربي نسمة هوا ترد الولف ليا[٣]

حتى في ظروف المرض والتعب، ظلت العادات الفلسطينية، والطب الشعبي الموروث حاضراً في رواية يخلف." قال عبد الكريم مخاطباً راضي: قل لأمك أن تعد لنا عدة كاسات الهوا. كان الناس يعالجون الأوجاع بالعلاج الشعبي، يعالجون الكسور بالتجبير، والدم الفاسد بالحجامة، وأوجاع البطن بالكي، وأوجاع الظهر بكاسات الهوا[٤]".

كانت الكلمات العامية الفلسطينية حاضرة في النص، واستعمال الحكم و الأمثال الشعبية القديمة دارجاً على ألسنة شخصياتها، فعند زواج "البسه" وهي المرأة المنبوذة في المخيم، لغرابة

---

[١] ماء السماء، يحيى يخلف، ص ٥١

[٢] الرواية السابقة، ص ٥٣

[٣] الرواية السابقة، ص ٨٤

[٤] الرواية السابقة ، ص ١٢٥

طباعها، استغربت نساء المخيم هذا الخبر، فمن يقبل "بالبسة" زوجة له. "كل فولة مسوسة يكيلها كيال أعور، التم المتعوس على خايب الرجا..[١] ".

حرص فلسطيني المخيم على التمسك بهويته وثقافته رغم كل شيء، ففي ذلك مواساة له، في ظروف حزنه وألمه." فُتح بيت عزاء للرجال في منزل الحاج حسين، وبيت عزاء آخر للنساء في منزل الفقيدة، وعلى الرغم من سوء الحال، حرص الحاج حسين على أن يقوم بالواجب، حسب التقاليد التي تقام أيام البلاد. قدم القهوة والتمر للمعزين، وقدم مناسف الرز واللحم أوقات الغداء، وفي اليوم الثالث قرأ الرجال سوراً من القرآن على روحها ووزعوا الحلوى [٢]".

تمسك الفلسطيني بهويته، من أقوى أسباب وجوده واستمراريته، في الداخل والخارج، رغم صعوبة الظروف؛ وقد يكون عدم انهزام الفلسطيني نفسياً، وسر قوته هو تحدي الموت، ومحاولة التغلب عليه. إنها لعبة الحياة والموت، فحتى الشهداء لا يعدون ميتين فهم أحياء عند الله، محبون للحياة والحرية، ضحوا بأرواحهم، ماتوا ليعيش غيرهم بكرامة وحرية. فعندما يوجه الجندي السلاح إلى الفلسطيني، فهو يحاول قتل الحرية في داخلة، وتبديد الهوية التي تميزه، فهل استطاع ذلك؟

لو حقق العدو أهدافه لرأى الفلسطينيون أن الموت أكثر من الحياة على هذه الأرض، ولكن أضحت كلمة الموت مغرية جداً للفلسطيني في أن يتكاثر ويتمدد، حتى إذا داهمه الموت لا

---

[١] الرواية السابقة، ص ١٥٤

[٢] الرواية السابقة، ص ١٧٤

يستطيع أخذه كله بل أجزاء منه تنفلت وتقاوم لتعيش. وما أن يصلوا لجزء آخر حتى استطاع ذلك الجزء أن يتناثر أكثر ويتمدد، وبذلك تصبح الحياة أكثر في مواجهة الموت[١].

لقد استطاع الفلسطيني إقناع التاريخ والبشرية بأنه ولد ليعيش على هذه الحياة، أكثر من أي كائن آخر يتفنن في اقتلاعها، ولن تتمكن محاولات العدو من نزع هويته وثقافته التي نقشت على صدره، لتكون جواز عبوره لأي أرض ينفى لها. ولولا إيمانهم بهذه الفلسفة لانتهت قضيتهم منذ وقت مبكر، ولما استطاعوا الصمود أكثر .

النفس البشرية قد تضعف بطبيعة الحال، ويصيبها اليأس والقنوط عند فقد الأحبة، وفقد البيوت، والخوف من انشغال العالم عن القضية. لكن سرعان ما يتجدد الأمل عند بزوغ أفواج جديدة لم يكن لها أي وجود، فهم يتكاثرون مثل أشجار اللوز والليمون. أفواجاً كاملة يتعثرون وينهضون، وقبل أن يستطيعوا الوصول بمفردهم إلى نهاية الشارع يأتي فوج جديد يملأ الشارع، ويدفعهم نحو الحارة الأوسع ليكون الشارع للفوج الجديد. فبولادة هذا الجيل يتجدد الأمل، فالولادة دائماً ترمز إلى التجديد وولادة الأحداث المهمة التي ستغير من المعادلة غير المنصفة للحياة والحرية والمقاومة [٢].

فيما يتعلق بالأدب الإنجليزي، وتصويره للإنسان الفلسطيني واليهودي على حد سواء، فقد تطورت صورة اليهودي في الكتابات الأدبية الإنجليزية، فبعد أن كان عدد كبير من الكتّاب قديماً يحملون لليهود البغضاء والكراهية، ويصورونهم على أنهم جشعون ومحبون للمال. أصبحت هذه النظرة فيها نوع كبير من التعاطف، الذي كان أحد أسبابه الوضع السياسي، الذي

[١] انظر: أعراس آمنة، إبراهيم نصر الله، ص١١٧

[٢] انظر: الرواية السابقة، ص ١١٨

كان من مصلحته أن يُكسب اليهود رأياً عاماً داعماً له في احتلاله لفلسطين، ويبرر له كل أفعاله وبطشه، ويساعد في الوقت نفسه على التخلص من اليهود المهاجرين لإنجلترا[١] .

لكن لا يمكن الجزم بأن كل الروايات كانت تدعم إسرائيل وتصور الفلسطينيين إرهابيين قتلة، فقد كان هناك فريق محايد صور الحقيقة كما هي على أرض الواقع، وقَدِم أغلب الروائيين إلى مسرح الأحداث لرؤية الحقائق، وسماع القصص من أفواه أصحابها المظلومين . وكان هناك علاقة تأثر وتأثير حين اطلع أدباء الغرب على الإنتاج الأدبي العربي المترجم للإنجليزية حول فلسطين. كل هذه العوامل أسهمت في تكوين فكرة إيجابية انعكست على الإبداع الأدبي الغربي.

ففي رواية Refugee Without Refuge by Dixiane Hallaj صورت الكاتبة الإنسان الفلسطيني، وهو يمر بمراحل نفسية متعددة بسبب الحصار والاحتلال. فهو أحياناً يملك قوة عجيبة تمكنه من التعايش مع كل الضغوط والتحديات التي تواجهه يومياً وتعكر صفو حياته. فالأم تعمل في بيتها، وتربي أبناءها، وتقوم بكل شؤون المنزل. والأب يذهب للعمل، بالرغم من صعوبة الوصول إليه، بسبب كثرة نقاط التفتيش، وما يلقاه يومياً من إهانة وشتم وربما اعتداء، كل ذلك لم يمنعه من الذهاب والبحث عن لقمة العيش.

كل ذلك كان نوعاً من المقاومة وعدم الاستسلام، والتضحية بالغالي والنفيس من أجل البقاء في الوطن. لم يكسر الحصار عزيمتهم، بل جعلهم يتكيفون معه، ويحاولون إيجاد بدائل تخفف عنهم وطأة الحصار. فالطفلة أمل تذهب للمدرسة في أيام منع التجول، عن طريق القفز من فوق الجدار للمنزل المجاور[٢].

---

[١] اليهود في الأدب الإنجليزي من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين، رمسيس عوض، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦م، ص١٥

[٢] Refugee Without Refuge by Dixiane Hallaj,p 6

أشارت الكاتبة لبعض العادات والتقاليد الفلسطينية، عندما كانت الجدة تقص على أحفادها وتتذكر معهم مزقاً من الأيام الماضية. وفي ذلك إشارة إلى أن الإنسان الفلسطيني حريص كل الحرص على نقل هويته وثقافته للأجيال اللاحقة، وإيمانه بضرورة التمسك بها، لأن ذلك أكبر داعم للقضية، ومؤثر كبير في نفوس الأبناء، حين يعلمون أن لهم ماضياً مجيداً، وتاريخاً، وحضارة، وثقافة راسخة ليست ضعيفة يسهل محوها، كما فعل الآخر بالهنود الحمر[١].

تقص الجدة على الأبناء صور التلاحم الاجتماعي بين الأسر الفلسطينية في أوقات الرخاء والشدة، في الأفراح والأتراح. ففي يوم زواجها قَدِم العريس ومعه عدد كبير من عائلته، وفي ذلك دلالة على أن له عائلة تحميه وتسانده، واستقبلهم أهل العروس، حسب العادات الفلسطينية، وجلبوا معهم الصداق والهدايا، التي تدل على كرمهم وسخائهم للعروس و أهلها[٢]. وفي أوقات العزاء، يجلب المعزون معهم القهوة والسكر والتمر لبيت العزاء، ويبقون معهم أيام العزاء الثلاثة، لمواساتهم والتخفيف عنهم .

وفي المقابل، صورت الكاتبة الإنسان الفلسطيني الذي أنهكته الحروب، وتوالت عليه النكبات، وسئم من الحياة وصعوبتها، فهو محروم من أبسط حقوقه، يفرض عليه الحصار حياة لا يستطيع أن يحتملها أكثر. فهو يعيش في حالة مد وجزر بين احتياجاته بوصفه إنساناً يحق له أن يحيا بحرية وكرامة، وبين ضرورة المقاومة، وعدم الاستسلام .

فأمل تضيق ذرعاً من الحالة التي تعيش فيها أسرتها، فهي لا تملك منزلاً لائقاً، ولا أثاثاً مريحاً، ولا يستطيعون الخروج للشارع أبداً وقت الحصار. كل ذلك شكل لديها حزناً كانت تشكوه للجدة، وتتمنى أنها تستطيع أن تحيا حياة أفضل. ولكن الجدة تذكرها دائماً بضرورة

---

[١] الرواية السابقة، ص ١٠

[٢] الرواية السابقة، ص ١١

الصبر والمقاومة، وأن تتعلم أن ترى الأشياء الجميلة في حياتها، ولا تركز على ما ينغص صفو الحياة[١].

ويزداد الأمر تحدياً حين يفرض الحصار فجأة، ويكون الأبناء خارج المنزل ولا يستطيعون العودة للبيت، كما هو الحال مع الخالة حنان، فقد سئمت من حياة المخيم وأرهقها شعورها الدائم بالقلق والخوف على أبنائها، عند غيابهم عن المنزل في أوقات منع التجول[٢].

ولكنها سرعان ما تهدأ عندما تتذكر تضحيات الجدة في بداية النكبة، وما لاقوه من قتل وتهجير ومصادرة للأملاك، فيكون ذلك دافعاً قوياً لها للمقاومة، لأن الفلسطيني يريد إكمال مسيرة من سبقوه، ولن يكون الانسحاب والهرب إلا هدراً لتضحيات السابقين وخذلاناً لهم[٣].

تطرح الكاتبة الموضوع وفق استقرائها للأحداث، ونظرتها الموضوعية للقضية، ووفقاً للفكر الإنجليزي، فقد سئم الإنجليز من كثرة الحروب التي مرت بها دولتهم قديماً، وترسخ لديهم مفهوم تقديس الحياة والاستمتاع بها، بعيداً عن القتل والدمار وسفك الدماء الذي أخر من نهضتهم كثيراً، ودفعوا ثمنه غالياً. وعند تناولهم موضوع الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، فإنهم يركزون كثيراً على الوضع النفسي للإنسان الفلسطيني، ربما لاستغرابهم من قوة تحمله طوال العقود الماضية، ومطالبته الدائمة بحقه في أرضه، ورغبته الدائمة وحنينه للعودة، وتمسكه بكل ما يدل على فلسطينيته. فهو يطلب السلام والاستقرار، ولكن بدون خضوع للعدو، ولا تنازل عن حقوقه، وإلا فالمقاومة هي طريقه، حتى وإن لم يملك السلاح الذي يدافع به عن نفسه.

---

(١) الرواية السابقة، ص ١٧
(٢) الرواية السابقة، ص ٢١
(٣) الرواية السابقة، ص ٢٢

وفي رواية A Little Piece of Ground by Elizabeth Laird أظهرت الكاتبة مقتطفات من الثقافة الفلسطينية في الطعام والشراب واللباس، وزيارة الأقارب ومساعدتهم في أيام الحصاد في القرية، ورائحة المنزل الريفي، كل ذلك فيه تصوير للحياة بكل تفاصيلها حسب العرف السائد في فلسطين.

لكن الملاحظ أنها ركزت أكثر على شخصية الأطفال الذين لم يعيشوا زمن النكبة والهزيمة، وإنما وُجِدوا في وقت قد أخذ العدو فيه أرض الأجداد. رسمت شخصية الطفل كريم مشوش الذهن، غير قادر على استيعاب ما يحدث من حوله، فكل ما يروى له من قصص تدل على أن هذه الأرض فلسطينية، ولكنه لا يرى أي رفض ومقاومة للمحتل من أهل هذه الأرض. فحين أتى المستوطنون للمزرعة، وأخذوها عنوة من الجد، وطردوا "كريم" وعائلته منها، خرج الجميع بدون أدنى مقاومة. جعله هذا يتساءل كثيراً عن سبب عدم المقاومة . فكيف تكون الأرض للجد الذي ورثها عن أجداده ثم يضحي بها بسهولة للمحتل؟[١]

أخذ الجد يبرر ما حدث للطفل، ويوضح له أنهم لم يتنازلوا عن أرضهم، بل حاولوا بكل الطرق المتاحة لهم، وذهبوا للمحكمة لإثبات ملكيتهم للأرض ولكن بدون جدوى. وقص عليه قصصاً عن المواجهات التي حدثت بين الجنود وأهالي القرية، وكيف أنها تنتهي دائما بقتل المدنيين الفلسطينيين وسجنهم[٢].

[١] A Little Piece of Ground by Elizabeth Laird ,p58

[٢] الرواية السابقة، ص٥٥

يقول الجد لكريم: "إنه لا يلوم الإسرائيليين على فعل ذلك بالفلسطينيين، فهو منذ قدوم الاحتلال وهو يفكر ويحاول فهم ما يجري على الأرض، ولو قلبت الموازين وكان الفلسطينيون هم الطرف الأقوى، لعملوا مثلما عمل الإسرائيليون [١]".

ربما تحاول الكاتبة في هذا الجزء تبرير ما تقوم به إسرائيل من أعمال عنف، وتصور أن كلا الطرفين مشتركان في الخسارة، وليس فقط الجانب الفلسطيني، أو أنها تحاول قول إن هذه هي الطبيعة الإنسانية التي تظلم وتتجبر إذا استطاعت ذلك، فالتاريخ يحفل بمئات الحروب التي كان الأقوى فيها هو صاحب السيادة، وهو الذي يفرض بقوة السلاح هويته ووجوده، ويمحو حضارة من كان قبله.

ومع مرور الطفل كريم بكثير من الأحداث، كاحتجازه في سيارة قديمة خوفاً من الجنود أيام الحصار، وإطلاق الرصاص عليه، و الاعتداءات المتلاحقة على عائلته، كل ذلك كان من المفترض أن يسبب له نوعاً من الانكسار والضعف. لكن المفارقة تكمن في أن ذلك كان سبباً في تحطم خوفه من العدو، وزاد من تمسكه بأرضه وإحساسه بدوره في المحافظة عليها وعلى الهوية الفلسطينية. فكلما أدمى العدو الجسد الفلسطيني بالجراح، ازهرت هذه الجراح لتكون أقوى دافع للصمود .

لم تطرح الكاتبة قضية الاغتراب، بوصفها قضية وجودية تهم الإنسان الفلسطيني أينما كان موقعه، وتزيد من تمسكه بأرضه مهما زاد الظلم والطغيان من العدو. يظهر ذلك من حديث الأخوين في بيت الجد، ورغبتهما في الانتقال للعيش خارج فلسطين، لأنه لا مستقبل هنا في فلسطين. فالحياة في أمريكا تعد فرصة لا تعوض، لأنهم يريدون الاستقرار وبناء مستقبل أفضل

---

[١] الرواية السابقة، ص ٦٣

لأبنائهم. وقد أيدهم الحاضرون في ذلك[1]. وفي هذا تناقض كبير بينه وبين ما تطرحه الروايات الفلسطينية، التي تصور دائما تمسك الإنسان الفلسطيني بأرضه وبيته ومقاومته، وإن كانت محدودة بجانب قوة السلاح، ورفضه للتهجير القسري، والحالات النفسية السيئة التي يمر بها المغترب، و حنينه الدائم لتراب الوطن .

لم تتعرض الروايتان للحديث عن الإنسان الإسرائيلي في فلسطين، وكيف كانت شخصيته، وما هي الهوية العامة المشتركة التي يحملها الإسرائيليون، التي تُعدُّ علامة مميزة لهم تميزهم عن غيرهم. فربما لتعدد الدول التي قدموا منها وتنوع مرجعياتهم الفكرية والثقافية، كان من الصعب تحديد شكل عام يحدد ماهية هويتهم الثقافية.

أما رواية AL Naqba by Barbara Goldscheider فهي على النقيض من الروايتين سابقتي الذكر، من حيث تسليط الضوء بصورة أكبر على الشخصية الإسرائيلية، وترك مساحة كبيرة لها لتعبر عن نفسها مبررة و مدافعة عن قضيتها، وعن أحقيتها في الأرض. فالإنسان الإسرائيلي – بحسب الرواية – محبّ للسلام والحياة و لأرض فلسطين، فهو مرتبط بها منذ القدم، ومهما ابتعد عنها يعيده الحنين إليها.

تطلعنا الرواية على طبيعة الحياة اليومية التي يعيشها الإسرائيلي، في ظل الحروب والتهديدات، من تفجيرات المقاومين الفلسطينيين. فهل أدى ذلك إلى زعزعة حبه لفلسطين، ورغبته في العيش فيها، ورجوعه من حيث أتى؟ كان ذلك أبرز ما ناقشته الرواية، وهو مدى تمسك الإسرائيلي بالأرض المقدسة، على الرغم من أن الموت محيط به من كل الجهات، واحتمالات انتهاء العنف والقتل ضعيفة جداً .

---

[1] الرواية السابقة، ص ٥٩

تؤكد الرواية على أنه كلما ازدادت أعمال العنف ضد الإسرائيليين يزداد تمسكهم بأرض الميعاد. فكما ورد على لسان والد الضابط Neyri: إن الفلسطينيين يشترطون للسلام خروج إسرائيل من كافة الأراضي المحتلة منذ عام ١٩٤٨م، وعودة كل اللاجئين إلى فلسطين، وإلا لن يكون هناك سلام، وستزداد التفجيرات ضد المدنيين في الشوارع والأماكن العامة و الباصات. لا يخيفه ذلك لأنهم وإن فعلوا ذلك فإن بعد كل تفجير تعود الحياة لطبيعتها في إسرائيل وكأن شيئاً لم يحدث[١].

الإنسان الإسرائيلي عانى كثيراً من القتل والنفي والعنصرية ضده قبل قدومه لفلسطين، وبعودته لفلسطين تجدد لديه الأمل في الحياة. فالجد الإسرائيلي يتذكر إبادة عائلته قديماً على يد النازيين، وأنه هو الناجي الوحيد منهم، أصابه الحزن والألم حينها، وكان يسأل نفسه كثيراً لماذا نجوت ولم أمت مع عائلتي ؟[٢]

وعند قدوم اليهود لفلسطين مع سماح بريطانيا لهم بالهجرة، قدم لفلسطين وتزوج وأنجب أطفالاً كبروا على أرض فلسطين، وأنجبوا له أحفاداً. فكان هذا هو سبب نجاته، أن يأتي لفلسطين ليكون امتداداً للأجداد وللبقاء اليهودي، و لإعمار إسرائيل .

استطاعت الكاتبة الولوج إلى داخل الشخصيات وعرض مشاعرهم للقارئ، فالإنسان الإسرائيلي تعلم أن يتغلب على مشاعر الحزن والخوف، ولكن هذا لا يعني أنه لا يعاني عند فقد أحد أفراد عائلته أو أصدقائه في التفجيرات. فعند وفاة الجد في تفجير قام به أحد أفراد المقاومة الفلسطينيين، حزن حفيده حزناً عميقاً، جعله يعود عن طريق "الفلاش باك" إلى ذكريات طفولته

---

(١) AL Naqba by Barbara Goldscheider,p 167

(٢) الرواية السابقة، ص٩

مع جده، عندما كان يعود من المدرسة لبيت الجد ويقضي اليوم بصحبته يسيران في شوارع القدس، فهو مثله الأعلى في الحياة، تعلم منه حب القدس والتضحية من أجلها(١).

إن سردية الانتصار على الموت طاغية في الرواية، فهي متغلغلة في نفوس الشخصيات الإسرائيلية، يظهر ذلك من حديث الضابط الإسرائيلي "Neyri " مع صديقته الأمريكية "Jacky"عن تعلم اليهودي كيفية العيش رغم كل ما يحيط به من ظروف صعبه. فهو يفقد أصدقاءه وأفراد عائلته، ولكنه في اليوم الثاني يحتفل بعيد الاستقلال "Independence Day" ، ويحاول إكمال حياته بدون تفكير في ألمه وحزنه، فلا خيار لديه، فهو إن لم يفعل ذلك، فلن يستطيع بناء دولته وحمايتها. تصور الكاتبة بذلك شجاعة الإسرائيليين، وإيمانهم بقضيتهم، واستعدادهم لتحمل كافة المصاعب، من تهديد وفقد للأحبة من أجل الاستقرار في أرض الميعاد .

حرصت الكاتبة على تأكيد الهوية والثقافة الإسرائيلية الضاربة جذورها في أعماق التاريخ، التي تسعى العائلة اليهودية للحفاظ عليها، ونقلها للأبناء، يتضح ذلك من خلال تصوير الكاتبة لاحتفال العائلة الإسرائيلية بعيد الفصح "Passover" والذي يحرص فيه الجميع على الاجتماع مع أفراد العائلة للاحتفال به، و اتباعهم فيه للأمور التقليدية المتوارثة. فهم يغنون "Hagaadah" الجزء الأسطوري غير الشرعي من التلمود في الأدب الشعبي اليهودي. هذا الغناء هو بمثابة شعيرة دينية مضاف إليها عبارات من التوراة متوارثة عن اليهود منذ الآلاف السنين(٢).

---

(١) الرواية السابقة، ص ١٥

(٢) يكون في هذا الغناء عرض للقصص عن معاناة اليهود، ووعد الله لهم بفلسطين، وتذكيرهم بضرورة الصبر والمقاومة، وتبدأ بقطع mah nish ta nah لماذا هذه الليلة مختلفة عن بقية الليالي. وهي بمثابة عرض تاريخي للأحداث القديمة يتذكرها اليهود ويعلمونها لأطفالهم، ص ١٦٤

ويقدم في هذا الاحتفال أطباق معينة من الطعام والشراب. تحاول الكاتبة بذلك تعريف القارئ بثقافة اليهود وأنهم على الرغم من حياتهم على فوهة بركان من الصراعات الدموية التي لا نهاية لها، فهم يحافظون على الهوية المشتركة بينهم ويحرصون على تماسك العائلة. وإن الحرب بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي ليست حرب سلاح فقط، بل هي حرب ذاكرتين تحاول كلّ منهما فرض نفسها وإلغاء الأخرى .

الإنسان اليهودي قدم لفلسطين ليعيش في سلام، فهو يريد بناء دولته وتربية أبنائه في جو آمن ومستقر بعيداً عن القتل والعنف. فالجد "David" كان يتمنى أن يبعد أحفاده عن الحرب، لينعموا بحياة هادئة في الأرض التي أعطاها الرب لهم، لكن الصراع هو اللغة الدارجة في هذه البقعة من العالم منذ لحظة وصولهم، وإمكانية تحقق السلام بعيدة جدا"[١].

حفلت الرواية بكلمات عبرية في أجزاء متفرقة منها، في محاولة لتعريف القارئ باللغة العبرية، ومدى تمسك الإنسان الإسرائيلي بلغته القومية واعتزازه بها، وتعريفه بعمق معانيها، فاسم البطل "Neyri" يدل على معنى السلام والحرية. يتحدث "Neyri" العبرية مع الأجانب في محاولة لتعريفهم بها، فعند لقائه المرأة الأمريكية كان يستخدم بعض الكلمات العبرية معها مثل، "Naim mod", "وهي تعني" سُررت بلقائك"[٢]. فهم على اختلاف أجناسهم وأوطانهم التي قدموا منها تجمعهم لغة واحدة[٣].

---

[١] الرواية السابقة، ص ٨

[٢] الرواية السابقة، ص ١٠

[٣] لم تكن اللغة العبرية لغة أمّا منذ انتهاء استخدامها في القرن الثاني، تمت عملية إحياء اللغة العبرية في أوروبا وإسرائيل في نهاية القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين حيث تحولت اللغة العبرية إلى لغة محكية و اللغة الرسمية لدولة إسرائيل. وتعتبر عودة استخدام اللغة العبرية أمراً فريداً من نوعه فلا يوجد مثال آخر للغة منقرضة أصبحت لغة أمّا لملايين البشر. فتضاعف دور اللغة العبرية فجأة، لتقفز هذه اللغة من النطاق الذي عاشت فيه قروناً طويلة كلغة دين تقليدية لتجبر، بوسائل مختلفة، على لعب دور اللغة القومية. انظر: غسان كنفاني، في الأدب الصهيوني، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٧م، ص ٢١

إن أبرز ما يلاحظ في الرواية هو عدم موضوعية الكاتبة عند تصويرها للإنسان "الإسرائيلي و الفلسطيني" فعلى الرغم من خوضهما التجربة نفسها، تجربة الحرب وما تخلفه من قتل وفقد للأهل والأصدقاء، إلا أن أثر ذلك يختلف على كل منهما. فالأحداث المأساوية تزيد الإسرائيلي قوة وشجاعة وتمسكاً بالأرض، ورغبة في حماية وطنه وأهله ومواصلة حياته، والبحث عن السلام. أما الفلسطيني فمهما بلغت درجته العلمية فإنه يتحول إلى إنسان ضعيف لا يحتمل فقد أهله و يصبح قاتلاً، يفجر نفسه ويقتل المدنيين، حتى وإن كان بينهم أصدقاؤه وأطفال ونساء لا ذنب لهم، انتقاماً لقتل أحد أفراد أسرته .

المبحث الثاني:

صورة المرأة الفلسطينية في الروايتين العربية والإنجليزية:

اهتم الأدب منذ القدم بتصوير المرأة، فقد كانت القصيدة القديمة لا تخلو من ذكرها والتغزل بها عند الوقوف على الأطلال والديار. فقد شكل ذكرها والتعبير عنها موضوعاً شائقاً خاض غماره كبار الشعراء .

ولم تخلُ الرواية العربية، التي تُناقش القضية الفلسطينية، من الشخصيات الأنثوية، لكونها عنصراً أساسياً في القضية." لأن الرواية هي الجنس الأدبي الأقدر على التقاط الأنغام المتباعدة، وهي الفن القادر على رصد التحولات الاجتماعية المُتسارعة، في تغيّر نظرة الرجل للمرأة، وتغيّر دورها التقليدي في المجتمع(١)". فقد وظّف الروائيون شخصيات أنثوية، حاكت المجتمع وواكبت ضرورات التغيّر، راصدين سمات المرأة، وملامحها، وأبعادها النفسية والاجتماعية، وتطلعاتها المستقبلية، وانخراطها في الحياة العملية، وما فرضه الاحتلال عليها من واقع بغيض، لن يتيح لها تحقيق ما تصبو إليه من حياة هانئة مستقرة .

يُعد الأدب، الرواية تحديداً، مهماً جداً لما يطرحه من قضايا ومواضيع، تُعيدنا إلى حقيقتنا البشرية، لكونها تُناقش أحوال المجتمع وقضاياه، وبما تنقله من مشاعر وأحاسيس في العلاقات الإنسانية المختلفة. وتساعد الرواية على فَهم للحياة أكثر، وتُعطي تصوراً أوضح للصواب والخطأ، و تُناقش جميع القضايا التي تهم الإنسانية وتؤدي بالقارئ في نهاية الأمر إلى اتخاذ القرارات الصائبة تجاه القضايا المختلفة(٢).

---

(١) المرأة في الرواية الفلسطينية، حسّان رشاد شامي، اتحاد الكتب العربية، ١٩٩٨، ص ١٠

(٢) Literary Appreciation, H.L.B.Moody, longman house ,1981,2

زخرت الرواية بقضايا إنسانية وفكرية شتى، صوّر فيها الروائيون، العرب والإنجليز، المأساة الفلسطينية في تلازم تام بين الفن وقضية الإنسان، لكن كيف كان تصويرهم للمرأة الفلسطينية ؟ وهل كانت بمنأى عن لهيب الاحتلال ؟ أم أنها كانت مُناضلة ومُشاركة للرجل في رحلة الكفاح ؟

وجود المرأة في الرواية كان له معانٍ حقيقية وفنية ورمزية. فالمرأة هي الأم، والأخت، والزوجة، وهي الوطن. "وقد يوظف الكاتب العنصر النسائي، عند التعبير عن واقع معين يريد تصويره، ولم تجد التجربة أصلح من المرأة في توصيل تلك التجربة[١]".

رسم كنفاني شخصيته الرئيسية "أم سعد" مزيجاً من مشاعر الأم التي أنهكتها سنوات اللجوء والتشرد، والمقاومة الباسلة. وجعلها صوت الشعب المحروم المتوحد مع الوطن. فهي ليست مجرد امرأة تربي أولادها بطريقة تقليديه، بل هي مُلهمة، ولها بصمتها وتأثيرها على جيل بأكمله، لها دور فعّال في الرواية التي تحكي مُعاناة كل فلسطينية تجرعت مرارة الهزيمة والانكسار، وما زالت شامخة لم تنكسر .

برعت في مقاومة النفس، والجِبلة الإنسانية، فقد حاربت مشاعر الأم الغريزية في داخلها عند إرسال ابنها سعد للقتال، للموت من أجل الوطن. "وقالت: سيرجع للقتال بعد أن تخفّ أصابته[٢]"، فكأن الرجوع أمر محتوم، فالأرض تُنادي للخلاص من الظلم ولابد من مُجيب .

---

[١] المرأة وعلاقتها بالآخر في الرواية العربية الفلسطينية، حسين مناصرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٢، ص ٤٢

[٢] أم سعد، غسان كنفاني، ص ٣٨

"إنها سيدة في الأربعين، كما يبدو لي، قوية كما لا يستطيع الصخر، صبورة كما لا يُطيق الصبر، تقطع أيام الأسبوع جيئة وذهاباً، تعيش عمرها عشر مرات في التعب والعمل، كي تنتزع لقمتها النظيفة، ولقم أولادها [١]".

استطاعت أم سعد على الرغم من أنها من الطبقة الاجتماعية المسحوقة، التي دفعت ثمن الحرب غالياً، أن تتنقل بين أدوار كبيرة، كأم عاملة تسعى لسد حاجة أولادها، ومُناضلة تحمل فكراً ثورياً تُعلم به من حولها كيف يعيش الإنسان من أجل قضية، وكيف يُورّث حب فلسطين للأبناء الذين لم يعرفوها، أبناء الغربة والشتات، حتى تظل حيّة في قلوبهم وأرواحهم.

يقول الراوي:" لقد التحق سعد بالفدائيين، وكنت ما أزال أنظر إلى كفيها، مُنكفئتين هناك كشيئين مُصابين بالخيبة، تصيحان من أعماقهما، تُطاردان المهاجر إلى الخطر والمجهول. لماذا يا إلهي يتعين على الأمهات أن يفقدن أبناءهُنَّ؟ لأول مرة أرى ذلك الشيء الذي يصدع القلب، على مرمى كلمة واحدة مني[٢]". إرسالها سعد إلى ساحة القتال تحدٍ كبير لأمومتها، تودعه ولا تدري أيعود لحضنها، أم لحضن الأرض، ترسله للموت والنار، حتى يُعيد لها كرامتها، وكرامة شعب طُرد من أرضه .

"نضال المرأة الفلسطينية يكمن في إنجاب الأطفال، رغم تحديات الظروف وضبابية المستقبل[٣]"، تُضحي وتتعب لتراهم يكبرون يوماً بعد يوم، كزرعٍ شامخ يشق الأرض اليابسة ليعلو، ثم ترسل بهم إلى أرض المعركة، وهي ترجو بذلك قطف ثمار سنوات من الانتظار المضني. فحبها للأرض يفوق حبها الغريزي لأبنائها .

(١) الرواية السابقة، ص ٢٥

(٢) الرواية السابقة، ص ٢٦

(٣) الاغتراب والمقاومة، حسن عليان، سلسلة كتب ثقافية تصدرها وزارة الثقافة الأردنية، ٢٠٠٥م، ص ٨٨

"صور كنفاني أم سعد مزيجاً من الأسطورة والإنسان العادي في حياته الواقعية[١]". فهي مُدركة للدور الكبير الذي يقع على عاتقها، وترفض أن تكون امرأة نمطية ليس لها حظ من القضية سوى العويل والبكاء، هي مقاومة وفدائية وصانعة فدائيين .

يقول غسان كنفاني مصوراً أم سعد: "عذابات الأيام تظهر عليها، فيرسم الزمن على جلدها خطوط القهر والمعاناة، كل جزء من جسدها يشكي ويبكي بصمت، تتفجر الدموع من مسام جلدها كله، وكفاها ينشجان بصوتٍ مسموع، فكل ما فيها يبكي، شعرها يقطر دموعاً، شفتاها، عنقها، مزق ثوبها المنهك، جبهتها العالية، ولكن ليس عينيها[٢]".

لقد أسهمت الحروب مع العدو في صنع امرأة ثورية مُكافئة للرجل، في وعيها وسلوكها، وطموحها، وقدراتها. تحكي أم سعد عن ليلة من الليالي الدموية في المخيم فتقول: "جاءت طائرة مطلية باللون الأسود، وحلّقت على علوٍ خفيض، وأخذت تزخ رصاصها على الشارع، وسمعت أم سعد صوتاً معدنياً كالرنين يملأ الطريق، وفي اللحظة التالية، تقدمت نحو الإسفلت ورفعت بين أصابعها قطعة حديد ذات أربعة رؤوس مُسننة، قالت أم سعد لرفيقاتها: هذه الحدائد تفرقع دواليب السيارات يا صبايا لنلمها ونقذف بها إلى الرمل[٣]" هي أيضا مُقاتلة إذا دعت الحاجة، تخرج وتقابل الخطر من أجل الجماعة، جعلنا الكاتب ندرك تفوقها وقدرتها على المقاومة، وتحدي العدو على الرغم من بساطة إمكانياتها.

استخدم كنفاني "أم سعد" ليطرح علينا أسئلة تحتاج لفكرٍ عميق، عن وسائل النضال الفعّال وطرائقه، وأن الرجل لا يمكن أن يكون وحيداً في هذه المعركة، معركة الحرية والبقاء، بل أثبت أن أم سعد لا تقل أهمية عنه في الكفاح المسلح، وتقع على عاتقها مسؤولية كبيرة تجاه القضية .

---

[١] المرأة وعلاقتها بالآخر، حسين مناصرة، ص ٨١

[٢] انظر: أم سعد، غسان كنفاني، ص ٣٢

[٣] الرواية السابقة، ص ٤٥

هكذا تحولت أم سعد من امرأة عادية، تعمل خادمة في البيوت، وتتعرض لضغوطات نفسية واجتماعية واقتصادية، إلى امرأة مناضلة وثورية، وهي تزغرد لابنها الذي توجه إلى ساحة القتال[١]، وتنتظر منه أن يهديها سيارة، بتفجيره سيارة للعدو. فهي تعقد عليه الآمال بتخليصها من أوحال المخيم وبؤسه، وأوحال الهزيمة.

أخذت صورة المرأة الفلسطينية في الرواية الإنجليزية أشكالاً متعددة، عكسها الكتّاب على حسب تصوراتهم، ومن نماذج حقيقية صادفتهم، أو سمعوا عنها خلال زيارتهم لفلسطين، فالكاتبة "Dixiane Hallaj" كتبت روايتها Refugee Without Refuge بعد زيارتها للمخيمات الفلسطينية وسماعها قصص النساء هناك، التي كانت نواة لروايتها. فهل تأثرت صورة المرأة الفلسطينية في الرواية الغربية بالموروث النمطي السائد لها في الثقافة الغربية، كونها تابعة لسلطان الرجل؟ أم أن الرواية الغربية قد كشفت عن قدرتها على تجاوز حدود الذات الضيقة، ومشاركتها في صياغة مشروع ثوري ذي نفع ؟

رسمت الكاتبة Dixiane Hallaj في روايتها Refugee Without Refuge المرأة الفلسطينية أكثر إشراقا و تفاعلاً مع أحداث القضية. فقد أدركت الكاتبة التغيّر الجذري الذي طال شخصيتها بسبب الاحتلال، وتغلبها على ذلك الواقع الرديء المتأسن، وتجاوزه والانتصار عليه، فعلى الرغم من تلك الظروف القاسية، وما حواه صدرها المفعم بالأسى لم تستسلم له، استطاعت خلق الجمال من البشاعة، فكانت شخصية الجدّة رمزاً للحكمة، ونبعاً يستمد منه الجميع القدرة على الصبر والمقاومة، وتحدي الظروف، بالإضافة إلى كونها مرجعاً ثقافياً وتاريخياً، عند

[١] انظر: الاغتراب والمقاومة في الرواية العربية في فلسطين والأردن، حسن عليّان، ص ٨٨

سردها القصص القديمة عن بداية قدوم المحتل وذكريات الخروج من الديار، وتعليم الصغار العادات والتقاليد الفلسطينية القديمة [١].

سارت أمل على خُطى الجدّة في التضحية والصبر والشجاعة، تحدّت الموت والجنود عند خروجها من البيت في وقت منع التجول، لتطلب الإسعاف لوالدتها المريضة. وشاركت في المظاهرات الطلابية للتنديد بالاحتلال، ولإجبار العالم على سماع صوت من هذا الكيان المنسي أو الذي يحاول البعض نسيانه[٢].

وحّدت الكارثة بين الفلسطينيين وصاروا يعيشون الألم والمعاناة نفسها، مما أدى إلى وجود صور من التلاحم الاجتماعي، الذي كان للمرأة دور كبير فيه. فالخالة أم إيمان كانت رمزاً للتضامن بشقيه الوجداني والعملي، كانت تساعد عائلة أمل وتقدم لهم العون عند مرض الأم، وعند تردي أحوالهم الاقتصادية بسبب الحصار. تحملت أعباء أسرتها، بالإضافة لأعباء أسرة أمل بعد وفاة والدتها، لإحساسها بمسؤوليتها تجاه الجماعة[٣].

طرحت الكاتبة تساؤلاً مهماً حول حصار المرأة الفلسطينية، هل هو حصار الاحتلال أم حصار العادات والتقاليد البالية وبأيهما يبدأ التحرر ؟

لم تغفل الكاتبة ذكر النماذج الذكورية السادية، وما يمارس ضد المرأة من قمع وتهميش وتسلّط، حين صورت العلاقة بين كريمة ووالدها. فهو إنسان مستبد برأيه ومواقفه، لا يستطيع

---

(١) Refugee Without Refuge ,Dixiane Hallaj ,9

(٢) الرواية السابقة، ص ٦٢

(٣) الرواية السابقة، ص ٧٦

رؤية المرأة من برجه العاجي ولا حتى سماع صوتها. أدى ذلك إلى أن تكون والدة كريمة تابعة له، ومُسيّرة حسب أوامره[١].

رسمت كريمة لنفسها طريقاً مستقلاً عن والدها المتسلّط، على الرغم من علمها بصعوبة ذلك. عملت في تنظيم سري للشباب، هدفه الدفاع عن فلسطين، ضد سياسة القمع والاضطهاد من المحتل، تركت المدرسة بدون علم والديها، وانخرطت في العمل التطوعي الثوري، الذي يهدف لإيصال صوت الفلسطينيين لكل العالم، عن طريق المظاهرات السلمية، والمنشورات، والتوجه للإعلام، للتعريف بمعاناة الشعب اليومية على يد الاحتلال[٢]. نتج هذا عن إدراكها كامرأة فلسطينية واعية أنها لن تنال حريتها في وطن محتل ومستعبد، فلا بد من وقوفها بجانب الرجل في رحلة الكفاح، حتى يتم تحرير الوطن بأكمله، فحريتها مرتبطة بحريته.

وضعت الكاتبة كريمة أمام تحدٍ كبير، فبعد أن كانت مناضلة ومقاومة تريد رفع الظلم والاحتلال عن وطنها فلسطين، أصبحت – في نظر البعض – تجرّ الخزي والعار لوالديها. فبعد نجاحها في تنظيم مظاهرة مع طلاب المدارس تندد بالاحتلال ورد اسمها مع مطلوبين لقوات الاحتلال، اقتحم الجنود منزلها وألقوا القبض عليها، ولم يكن لوالدها أيّ دور في الدفاع عنها [٣].

في ظل الاحتلال البغيض تُسجن الفتاة كما يُسجن الشاب، وتتعرض للضرب و الإهانة والسجن. وشت بها بعض السجينات وقلن إنها كانت على علاقة مع الضابط الإسرائيلي، فوصل الأمر لوالدها الذي لم يستقبلها في بيته عند خروجها من السجن، ولم يصدق براءتها [٤].

---

(١) الرواية السابقة، ص ١٢٥

(٢) الرواية السابقة، ص ٨٥

(٣) الرواية السابقة، ص ١١٠

(٤) الرواية السابقة، ص ١٢٥

لم تُثنيها التحديات والعقبات التي واجهتها، لإيمانها بقضيتها، وقضية وطنها، لجأت لمنزل الجدة لتعيش فيه، ورفضت عرض والدها الزواج من رجل مُسن، حتى ينسى الناس فضيحتها، لم تستسلم لهذا الواقع المرير، وتناست حصار العادات الخانق، ونظرة الناس الدونية لها، لترسّخ قناعتها بواجبها في الدفاع عن الحلم والأمل بالمستقبل الذي يصبو إليه كل فلسطيني(١).

تتشابه الرؤى النسوية للكاتبتين سحر خليفة و Dixiane Hallaj عند طرحهما السؤال ذاته في روايتيهما، وهو بأي شيء يبدأ التحرير؟ أهو بتحرير البلد من الهيمنة السياسية والعسكرية والاقتصادية، أم تحرير الذات والعقل، من نقل الموروث من عادات ومفاهيم لا تتوافق مع هذه المرحلة الحسّاسة ؟ وكيف سيتحرر شعب ركز جلّ اهتمامه على أمور ثانوية، ونسي القضية الأكبر وهي ضياع البلد أمام عينيه. يتضح ذلك من ذكر نماذج لاستلاب حقوق المرأة عند سحر خليفة، مثل أم سعاد وزوجها السادي، فقد عانت من سوء معاملته لها، سُجن لأنه مقاوم، ولكن لا تقارن تضحياته وهو مقاوم بتضحيات زوجته، حتى بعد خروجه من السجن لم يكن له أي دور يذكر مقارنةً بدورها(٢).

وما لقيته كريمة ووالدتها على يد والدها من التهميش والنظرة الدونية، بالإضافة لمعاناة كريمة بسبب ما تناقله المجتمع عن علاقتها بالضابط الإسرائيلي ووصمها بالعار ونسيانهم لمقاومتها عند Dixiane Hallaj.

كذلك عند طرح الكاتبتين لفكرة إرغام العالم على الاهتمام بالإنسان الفلسطيني، وإيصال صوته لكل مكان عن طريق تنظيم المظاهرات السلمية، والتوجه للإعلام، الذي سيخلق رأياً عاماً يدعم القضية ويُناقشها بجدية، ويضع حدّاً للاحتلال وانتهاكاته المستمرة .

---

(١) الرواية السابقة، ص ١٤٠

(٢) انظر: ربيع حار، سحر خليفة، ص ٢٣٤

فسعاد وهي نموذج للمرأة المثقفة ترفض فكرة الأعمال التي يقوم بها المقاتلون الفلسطينيون، لعلمها بعدم جدواها، فلابد من محاربة العدو بسلاح العلم والإعلام، الذي استخدمه الآخر منذ زمن طويل، حتى قبل دخوله لفلسطين. فقد كان العالم يتعاطف مع أبناء الحجارة المقاومين للدبابات، أكثر من تعاطفه مع من يقومون بعمليات استشهادية تدفع مدن فلسطينية كاملة ثمنها، ويقع على إثرها عشرات القتلى ومئات المصابين. فلابد من معرفة حقيقة العدو وطريقة تفكيره، ليسهل مقاومته والتصدي له[١].

تؤكد الكاتبة الإنجليزية هذه الفكرة أيضاً على لسان كريمة، حين تقول إن أجدى وسائل المقاومة، هي إيصال حقيقة ما يجري على الأرض للعالم، عن طريق المنظمات والمنشورات والإعلام[٢].

تنبّه العالم الغربي إلى تغيّر دور المرأة الفلسطينية في المراحل الأخيرة من كفاحها ضد الآخر الإسرائيلي. فقديماً لم يكن لها أيّ ذكر في المقاومة، بسبب العادات والتقاليد، التي تُحرّم عليها الخروج ومشاركة الرجل في الكفاح، وذلك حتى عام ١٩٣٦م، استطاعت المرأة بعد ذلك تخطي دورها التقليدي، وأصبح لها دور أكثر فاعلية في المقاومة المنظمة، والمظاهرات، وتوزيع المنشورات، وصنع القرارات. فأدت مشاركاتها الفعّالة في الكفاح، إلى لفت أنظار العالم إليها، وإشراكها في كثير من التنظيمات الحقوقية العالمية، التي تُنادي بالدفاع عن حقوق المرأة الفلسطينية تحت الاحتلال[٣]. تمكنت بذلك من إثبات قدرتها على التعامل مع هذه المرحلة الحسّاسة من مراحل القضية، و كان لها دور أساسي تجاه القضية تماماً كالرجل .

---

(١) انظر: الرواية السابقة، ص ٣١٤

(٢) Refugee Without Refuge ,Dixiane Hallaj 85

(٣) www.deliberation.info/women-activism-in-palestine

عمل المرأة كان عملاً مزدوجاً، لكسر حصار العادات التي تنتقص من قدرتها على مواجهة الاحتلال، والمُطالبة بحرية الشعب من الاحتلال الغاشم، فالاحتلال لم يُفرق بين رجل وامرأة، لذلك لابد أن تكون المقاومة منهما جميعاً بالتساوي، ليجسدا معاً أسطورة توحد الهمّ الفلسطيني في المشاركة بينهما، وتبادل المواقع والتكامل والتوحد في إطار الحزن الموحد(١).

تغيّرت أم سعاد من كونها امرأة تقليدية منسجمة مع واقعها ومستسلمة لظروفها، ذات تفكير بسيط، لا يتعدى القيام بمسؤولياتها التقليدية، تجاه البيت والأولاد والخضوع لسلطة الرجل، إلى امرأة مكافئة له بتضحياتها، وذات دور رئيسي في دعم المقاومين. فنراها تصف تعامل زوجها لها قبل دخوله السجن بقولها:" حين كان هنا كان كالبغل، رأسه يابس، يصرخ الصوت فيهزّ الدار، يقول لها: وله يا حرمه، وله يا هبله، وله يا حماره، وكانت تقول: طيب، طيب بس أنت روق بالك، تركض هنا، ثم تركض هناك، تمسح لهذا، ترضع ذاك، وتعكز أمه للحمام. ثم سُجن هو، وماتت أمه، وراح الأولاد(٢)".

باعت إسورة واشترت ماكينة خياطة، وباعت الأخرى فامتلأ البيت بالماكينات، عملت ليل نهار لتؤمن لأولادها حياة كريمة، ومتطلبات المدارس، ولتتمكن من شراء الطعام والسجائر، لتأخذها لزوجها في السجن(٣) .

هي بقيت ولكن أقوى، "لو عاد اليوم وقال يا حماره ستقيم الدنيا على رأسه، لكن الحق صار أحسن، أصبح في السجن أحسن حالاً، أهدأ بالاً، ألطف وأظرف، يحكي النكات ويغازلها، علموه في السجن صار بني آدم (٢)".

---

(١) انظر: الاغتراب والمقاومة، حسن عليان، ص ١٨١

(٢) ربيع حار، سحر خليفة، ص ٢٤٢

(٣) الرواية السابقة، ص ٢٤٣

إن التحولات الإيجابية، التي طرأت على شخصيتها، ومستوى معيشتها، تعود لوعيها وانخراطها في العمل، وممارستها لحريتها، وشعورها بحجم دورها الذي تعدى حدود بيتها، ليكون أكثر إشراقا وفاعلية في دعم المقاتلين والمُحاصرين من الاحتلال.

لقد اكتسب الرجل تاريخياً بعضاً من حريته التي ضمنتها له الأعراف والتقاليد الاجتماعية، لكن لتأسيس مجتمع حر وديمقراطي، يجب أن نُفسح المجال للمرأة، بكسر العادات البالية التي تنظر للمرأة أنها ناقصة عن كمال الرجل، فإن هذا هو أول الطريق للتحرر من الاحتلال. فعند تحرر العقل من الموروث العنصري، يسهل بعد ذلك تحرر الجسد من الاحتلال .

كانت التجربة وحدها أكبر دليل ليراها مناضلة لا تقل أهمية عنه. لم تيأس عند دخوله السجن عاشت وعانت بمفردها. عشرون سنة ليست بالعمر القليل، لقد دخل السجن وهو في أواخر العشرين، وها هو اليوم تجاوز الخمسين. عملت وضحت وكابدت ألوان المشقة والهوان، ولكن بصمت بدون شعارات ولا أوسمة، بل عطاء لا يتناهى لكل من حولها.

شاركت في المعارك وأثبتت أهمية دور المرأة في القتال، فعند حصار نابلس، جمعت النساء ووزعت عليهن الأدوار، أربع للأرز وأربع للعجين، وأربع للطبخ وتقشير الفول و البطاطا ...مطبخ عظيم، مطبخ يُطعم مئات المقاتلين وسكان الحوش، حوش العطعوط، حوش الفقراء، حوش العتمة، والفضاء والضوء يضوي كل المحرومين (١).

المرأة الفلسطينية هي أم لكل الفدائيين والمقاتلين، تربطها بهم وشائج قوية، وهي وطن لكل الأبناء، تعتني بهم وتعينهم، وترجو برّهم بتخليصها من الاحتلال. أم سعاد هي أم لكل الفدائيين، تشاركهم أفراحهم وأحزانهم، وتبكي لفقدهم، فعند موت ابن غزة حزنت عليه وبكته كثيراً، قالت

(١) الرواية السابقة، ص ٢٤٣

وهي تنزف:" أنا قلبي أنحرق على ابن غزة ، قلبي مذبوح وعيني ما تنام وولادنا يموتوا وينذبحوا مثل الخرفان[١]".

إن المرأة الفلسطينية، المُثقفة الواعية ، مثل سعاد في رواية "ربيع حار" لسحر خليفة، ترفض أن ترتبط برجل خالٍ من المسؤولية، يعيش يومه بلا هدف، لا يحمل همّ القضية ولا يعيش تفاصيلها. حتى وإن كان هذا سيجعلها نسخة مُكررة لأمها، رأت بأم عينها كيف تعيش زوجة المقاتل والسياسي، كأنها متزوجة من شبح يتركها فجأة مع مسؤولية كبيرة وأطفال، يمضي عمرها وتذبل زهرة شبابها وهي تنتظر اللقاء. سعاد موقنة بأن زواجها من المقاتل مغامرة تستحق أن تخوض غمارها وتتحمل نتائجها، لتفخر بعد ذلك بأن لها هدفاً من الحياة أكبر بكثير من العيش على هامش القضية[٢].

سميرة خير مثال للمرأة الفلسطينية الثورية في رواية Destined to Die by Victor Sasson، هي فتاة جامعية رفضت الظلم والخنوع للمحتل، فقررت الانضمام لصفوف المقاتلين مع صديقها نبيل، ضحّت بمستقبلها ودراستها. طرح الكاتب تساؤلاً عن أهمية المقاومة، و بأيهما تكون المقاومة المجدية، بالعلم والتحصيل أم بالكفاح المسلح ؟

آمنت سميرة بضرورة الكفاح المُسلّح، لأن العدو قد تطاول كثيراً ولم يُفرق بين المتعلم وغيره، ثم إن كثيراً من المتعلمين لا يجدون أعمالاً تناسب مؤهلاتهم، بسبب الحصار الاقتصادي المفروض، مما يجعلهم في نهاية المطاف يقبلون بأي عمل أو يضطرون للسفر خارج البلاد للعمل[٣].

---

[١] الرواية السابقة، ص ٢٦٠

[٢] الرواية السابقة، ص ٢٩٢

[٣] Destined to Die by Victor Sasson, 67

إن العيش بحرية وكرامة حلم يراود سميرة، وهاجس لازمها كثيراً، يزداد إيمانها به كلما رأت أعمال عنف ضد أبناء وطنها. فعند قدوم الدوريات والجنود الإسرائيليين لقرية سميرة، لهدم منزل عائلة أحد المقاومين، رأت سميرة منظر الإذلال للعائلة وكيف أنهم أخذوا يتوسلون الضابط كي لا يهدم منزلهم، فلا مكان لهم غيرة، ولكن بلا جدوى (١).

كانت تتحدث كثيراً مع رفاق الجامعة عن ضرورة الكفاح المسلّح، وأنه هو الذي سيُعيد للفلسطيني كرامته وحقه، من الاحتلال المتغطرس، حاولت فك قهر الاحتلال، وما ينجم عنه من تشريد وانتهاك للواقع الفلسطيني مكاناً وتاريخاً وذكريات ومستقبلاً، فهذا الواقع المتدهور غير قادر على صياغة الأحلام الكبيرة التي يطمح إليها هذا الجيل، فهي بوعيها وإدراكها، كانت مُتشككة في إمكانيات المستقبل الآمن، بعد ضياع الوطن.

فمن خلال دروس الماضي وعبره، ومن الاحتكاك المباشر بالواقع اليومي المرير، تشكلت لديها لبنات الثورة والتغيير، وكان لصفاء رؤيتها، وجلاء موقفها المناهض للخنوع والاستسلام الدور في الدعوة للعمل الثوري الواعي، بالإضافة لما تحلت به من شجاعة وسعي للحرية واستعداد للتضحية .

سُجن صديقها نبيل بلا سبب وتعرض للضرب و الإهانة على يد الجنود، وسجن والده المريض تحت ظروف سيئة أدت لوفاته، كان ذلك دافعاً له للانضمام للمقاومة، وترك الجامعة بعد خروجه من السجن، أيدته سميرة، وتقدمت معه للمشاركة في المقاومة، فسافرا معاً لبيروت

---

(١) الرواية السابقة، ص ٤

حيث مقر التنظيم، أدهشها العدد الكبير من المتطوعين والمتطوعات الذين قدموا للتدريب والمشاركة في المقاومة [١].

لم تحاول سميرة إقناع نفسها بالمبررات الواقعية الذليلة، ولم ترضَ بدور هامشي في القضية، أو أن تُنسى في قاع الطبقة المُستغلة، فتكون امرأة مستسلمة للواقع المزري الذي فرضه الاحتلال. جعلها الكاتب ركناً مهماً في حركة المقاومة، لها كامل الحقوق والواجبات. شاركت في العديد من المظاهرات التي تُندد بالاحتلال وهمجية تعامله مع الفلسطينيين، رغبة منها في تغيير الواقع، ولفت أنظار العالم إلى ما يحدث على الأرض، من قتل ونسف للمدن والقرى، وإحلال المستوطنات محلها [٢].

ثابرت وصبرت وعانت الخوف من الحروب، ولكن ذلك كان دافعاً لها لإتمام التدريبات، والقيام بعمليات مُسلحة مع التنظيم، كان استشهاد نبيل دافعاً لها للقتال حتى الموت.

يبين الكاتب في هذه الرواية أن قسوة الاحتلال والقتل والتدمير لا يكسر الفلسطينيين، بل له نتائج عكسية، فمع سقوط كل شهيد يُقبل البقية على الموت والشهادة لنيل الحرية، وتطهير الأرض، فالاحتلال بذلك يقود كلا الطرفين للموت .

استشهدت سميرة في إحدى العمليات برصاص الجنود الإسرائيليين، لتكون فداء للوطن المغتصب، ورمزاً للمقاومة المستحيلة في الزمن الصعب، ورمزاً لكل القدرات المكبوتة، التي تأبى الظلم وتحاول الانطلاق والتحرر [٣].

---

(١) الرواية السابقة، ص ١٥٦

(٢) الرواية السابقة، ص ١٤١

(٣) الرواية السابقة، ص ٢٤٤

صوّر إبراهيم نصر الله في روايته "أعراس آمنة"، معاناة المرأة الفلسطينية المُطالبة بالصمود في وجه الاحتلال، وتناسي آلامها وأحزانها عند فقد أحبتها. فتتجسد أسطورة المرأة الفلسطينية في بكائها، وفي شمولية الحزن الجماعي، الذي يتحوّل إلى زغرودة وسط زحام الموت، وزحمة الشهادة، تسجل "رندة" السؤال الصعب المتدفق من بئر آلام الأسطورة الفلسطينية، الذي تجسده والدتها، فهي تضع أسئلة الوجود الصعبة النابعة من الوجدان الفلسطيني الدامي بدلالات هذا الوجود: لماذا نبكي؟ تبكي الواحدة منا طوال الوقت لأنها تعرف أن هناك لحظة آتية يجب أن تخون فيها أحزانها وتزغرد. تقاوم المرأة الفلسطينية المحتل بكبت مشاعر الحزن فيها، فهي تزغرد عند استشهاد أبنائها، لتُفسد عليه لذة القتل، فلا تريده أن يرى دموع القهر الذي جرّح خدها، تزغرد ليعلم أنها ليست النهاية، فسترسل غيرة للمعركة، فهي تُنجب لفلسطين وللمقاومة [١].

"الاحتلال هو الذي جعل المرأة الفلسطينية تنسلخ عن جميع عواطفها، لتكون امرأة قوية يشهد لها التاريخ. فهي ليست بطلة، ولكن الظروف هي التي صنعت منها المرأة المناضلة[٢]". فهي مُضطرة لأن تخون مشاعر الحزن فيها، لأنها تلد وتربي جيلاً يراها مثلاً يُحتذى به في الصبر والنضال والتضحية. محبة للأرض وتعمل من أجل القضية، لم تستسلم للواقع المُهين الذي فرضه الاحتلال عليها، بل أخذت تطور من إمكانياتها لتقف وسط هذه العواصف الهوجاء بقوة وثبات. حسها الثوري ومقاومتها انتقل منها إلى جينات أطفالها، أرضعتهم حب الحرية والتوق إليها ورفض الظلم .

---

(١) أعراس آمنة، إبراهيم نصر الله، ص ٩٨

(٢) الاغتراب والمقاومة، حسن عليان، ص١٨٠

أما في رواية A Little Piece of Ground by Elizabeth Laird فقد عرضت الكاتبة لدور المرأة في ظل الاحتلال، فوالدة كريم تتلخص هموم حياتها في تربية الأولاد، والعمل لسد متطلبات الحياة. فقد أُلقي على كاهلها مزيد من الأعباء الحياتية، فبجانب البيت ورعاية الأطفال كانت تقف إلى جانب زوجها في أيام الشدة والمحن، تؤازره وتشد على يده، وتتحمل معه أعباء الحياة، والخروج للعمل لكسب مزيد من المال تُسانده به، بسبب تراجع مبيعات دكانه بعد كل حصار (١).

عاشت في بيئة انخفضت فيها فرص الأمن والحياة المستقرة، تجرعت مرارة الخوف والقلق على أبناءها بسبب الحصار، الذي حرمهم من الخروج للعب مع أصدقائهم، ومنعهم الحصول على الدواء وقت مرضهم. ضغوط نفسية واقتصادية كبيرة عليها وعلى عائلتها، ولكنّها تحاول التماسك والصبر ودعم كل أفراد أسرتها، فهم في حرب طويلة ولا خيار لهم إلا التكيف مع الظروف (٢).

أم كريم تُحاول أن تخلق لبيتها جواً من السلام والاستقرار، ولا تفضّل فكرة المقاومة أو العمليات التي يقوم بها الفدائيون، لأنها تعلم أنها ستُستخدم ذريعة وغطاء لعمليات وحشية أكبر من العدو(٣). بالإضافة لكون أغلب الضحايا الإسرائيليين هم من المدنيين والأطفال، الذين لا ذنب لهم في هذه الحرب، فهي تتخيل ردة فعل عائلات الأطفال الذين قضوا في الانفجارات.

لم تكن أم سامي بأحسن حظاً، وأوفر مالاً، من أم كريم، فحياتها في المخيم لا تتوافر فيها أدنى متطلبات الحياة الكريمة، فعانت بعد طردهم من بيوتهم للمخيمات الفقر والجوع، وعانت

(١) A Little Piece of Ground , Elizabeth Laird ,32

(٢) الرواية السابقة، **ص ١٦**

(٣) *الرواية السابقة*، ص ٦١

بسبب الحصار الذي يزيد من ذلهم وحاجتهم، وأصبحت تخاف على أطفالها كثيراً بعد سجن الجنود لابنها الأكبر، وعدم السماح لها بزيارته، ولا حتى معرفة مكان سجنه[١].

يحاول بعض كتّاب الغرب الربط بين تجربة المرأة الفلسطينية والمرأة الإسرائيلية، فكلتاهما تعاني الخوف والقلق الدائم على أبنائها. تحكي الكاتبة "Jillian Slutziker" في مقالة صحفية عن تجربة فريدة من نوعها قامت بها امرأتان فلسطينية وإسرائيلية في الضفة الغربية، وهي عبارة عن مشروع صداقة بين الجانبين، في محاولة لفهم بعضهم، ومُشاركة التجارب المريرة التي خلفتها الحروب. هذه اللقاءات تُدعم بواسطة الجمعية الأمريكية لتطوير المجتمع، التي تسعى إلى تهيئة جو من السلام والتفاهم بين الفلسطينيين والإسرائيليين، لكونهم يعيشون التجربة نفسها.

فتمارا، الإسرائيلية خسرت ابنها في الحرب على لبنان. وسهام، الفلسطينية خسرت أخاها الذي قتله الجنود عند نقطة تفتيش. عملوا على تشكيل مجموعات تضم أهالي الضحايا، الذين فُجعوا بفقد عزيز عليهم بسبب الحروب منذ عام ١٩٩٥م من الجانبين، تهدف هذه اللقاءات إلى تغيير الصورة النمطية السيئة المرسومة عند كل جانب تجاه الآخر، وتُنادي بالتعامل مع الآخر على أساس إنساني بعيداً عن لغة القتل والدمار.

تقول تمارا: عندما قُتل ابني لم أجعل أبنائي يعتقدون أن كل الفلسطينيين قتلة. لابد من التسامح واختيار الخيار الصحيح وهو السلام، لنجنب أبناءنا ويلات الحروب، ولنمكنهم من الحياة بشكل طبيعي.

تُشير الكاتبة إلى أن هناك تشابهاً كبيراً بين المرأة الفلسطينية والمرأة الإسرائيلية، لتشاركهما المعاناة والأحلام والآمال والأحزان ذاتها[٢]. كان التركيز في هذه اللقاءات على المرأة، لكونها عنصراً فاعلاً في المجتمع، ولقدرتها على تغيير الفكرة السائدة عن الطرف الآخر، بتعليم أبناءها السلام والتسامح معه.

---

[١] الرواية السابقة، ص١١٥

[٢] Palestine-Israel Journal ,2011,www.pij.org

لم تطالعنا في الروايات- محل الدراسة- شخصيات أنثوية إسرائيلية لها مساحة واسعة لتعبر فيها عن نفسها وأفكارها كالمرأة الفلسطينية. ففي رواية Destined to Die by Victor Sasson كانت شخصية المرأة الإسرائيلية عدائية، متعالية، لا تحب الآخر الفلسطيني وتنزعج من رؤيتهم في شوارع القدس. وتحاول أن ترسم صورة بشعة وغير حضارية عنهم، وأنهم لا يستحقون الثقة[١].

تصفهم باشمئزاز لصديقتها الأمريكية، وتصف أسواقهم وحميرهم التي يتنقلون بها بسخرية، وتنعتهم بالأغبياء، لم تصدق الأمريكية ذلك لأنها كانت على صلة بالفلسطينيين، وتعرف جيداً مدى كره هذه المرأة للعرب[٢].

أما المرأة الإسرائيلية في رواية AL Naqba by Barbara Goldscheider فهي ربة منزل، وأم، تحاول تربية أبنائها وحمايتهم في هذه البقعة المتوترة من العالم . تعلّم أبناءها العادات والتقاليد اليهودية، وتحرص على اجتماع العائلة للاحتفال، لديها خبرة سياسية فرضها الواقع عليها، تحلم بالسلام والحياة بهدوء[٣].

---

(١) Destined to Die by Victor Sasson , 36

(٢) الرواية السابقة، ص ٤٤

(٣) Al Naqba by Barbara Goldscheider , 163

المبحث الثالث:

الطفل الفلسطيني :

قَدر الأجيال الفلسطينية واحد على يد الاحتلال، فقد جرّت الحرب ويلاتها على الإنسان الفلسطيني منذ عقود، وكان الفلسطيني "القتيل دائماً" هو المستهدف، دون تفريق بين صغير أو كبير .

لقد عُجنت آلام التشرد مع الحنين والغضب، لتصنع جيلاً ما نسي يوماً أن فلسطين هي أرضه وأن الشعب الذي فرقه العدو في أصقاع الأرض، قد أنتج جيلاً جديداً يحنّ للعودة والمشاركة في المقاومة. شوهت الحرب براءة الطفل الفلسطيني وأقضّت مضجعه، فعاش طفولة قلقة مُضطربة، وكان سؤاله الدائم الذي يُطالعنا في كل الروايات العربية والإنجليزية على حدٍ سواء هو، لماذا كل هذا الصراع ؟

فكيف صورت كل من الروايتين العربية والإنجليزية الطفولة المعذبة تحت الحروب، وهل ورد ذكر الطفل الإسرائيلي ومعاناته طرفاً في القضية ؟

لا يكاد يكون بين الأدبين العربي والإنجليزي من وجوه التشابه، إلا الأمور العامة التي يتفق فيها كل أدبين يعبران عن نوازع النفس الإنسانية. إلا أن هناك تشابهاً كبيراً في الموضوعات التي يتناولها الأدبان، نتيجة للتأثر والتأثير بينهما، لا سيما الموضوعات المتعلقة بالحروب، والنزاعات الإنسانية، التي يرغب الطرفان في التأريخ لها بأسلوب فني(١). فكان

(١) انظر: أوراق مطوية من تاريخ الأدب المقارن في الوطن العربي، وليد محمود خالص، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى،١٩٩٧م، ص ٥٣

موضوع الطفولة وما تعانيه في الحروب أحد أبرز المواضيع التي شغلت الروائيين من العرب والإنجليز، لكونهم الجيل الذي يعقد عليه السابقون الأمل في التغيير وتحقيق النصر.

أدرك العدو أن الطفل الفلسطيني هو البذرة، التي يأمل الجميع في أن تنمو وتؤتي أُكلها، وهو الكنز الدفين الذي يبشر بالرخاء والسعادة، لذلك كان مستهدفاً بالقتل والإرهاب، والتخويف، ومحاولة لكسر شخصيته، فمزقته رياح الحروب والتشرد وألقت به على كثبان رمال الصحارى، يعاني صراعاً داخلياً و خارجياً.

طفل الملجأ:

الطفل الفلسطيني هو ضحية حروب طويلة لم يفهمها، ولم يدرك أبعادها، أصبح طرفاً في المعادلة، معادلة الحرب والمقاومة، وكان عليه في المقابل أن يضحي بألعابه ودفاتره وألوانه، ظروف الحرب حمّلته هموماً أكبر بكثير من أن يستوعبها، فقد ضاع كل شيء وأصبحت كل الطرق تفضي إلى الغربة والشتات، فيا لكآبة المنظر ووحشة الطريق. فهل حل الواقع الأسود فوق أمنيات الطفولة وأحلامها بالرجوع للوطن؟ وهل كان واقع اللجوء والشتات ومرارته، من فقر، وقمع، واضطهاد، قادراً على أن ينسيهم قراهم ومدنهم التي أُخرجوا منها ؟

إن التاريخ الفلسطيني ليس إلا ذاكرة حُفرت في أذهان الكبار والصغار، ذاكرة مطالبة بأن لا تنسى ولا تُهمل حتى يتلقاها الجيل الثاني بأمان ويعلمها لمن بعده. فاستهداف الطفل الفلسطيني، هو استهداف للذاكرة التي يحملها، ذكريات بيته، مكان لعبه، الشوارع والأزقة، المآذن والبيوت العتيقة، يشوهها العدو حتى يقطع أي علاقة له بأرضه، فهل استطاع ذلك ؟

أطلعنا يحيى يخلف في روايته "ماء السماء " على تفاصيل الخروج من البلاد ووقعها على الطفل راضي، "تعلقت بخياله صورة الرحيل، في تلك الليلة المظلمة والممطرة، كان اليهود على مشارف سمخ تماماً– وهي القرية الفلسطينية التي ينتمي إليها الطفل راضي– وكان لابد للنساء

والأطفال أن يرحلوا وأن ينتظروا أسبوعاً أو أكثر بعيداً عن مرمى النيران والقنابل وحمم الطائرات[١]".

لحظة الرحيل والتوجه للشتات، هي من أصعب المواقف التي عاشها طفل الملجأ، هناك إشارات كثيرة تدل على أنه لن يكون طفلاً كما كان أيام البلاد، ستتغير أمور كثيرة، مستقبل وحياة مجهولة بانتظاره، فهو مُطالب بأن يكبر، وأن يتخلى عن طفولته ويتحمل المسؤولية. " كن رجلاً، واعتن بأمك وعمتك وشقيقك الصغير، ومن يلوذ بنا من الجيران[٢]. "

فكأن الجو باضطرابه وعدم استقراره يعكس ما بداخل هذا الطفل من خوف وقلق، فحتى الطبيعة شاركته حزنه وألمه، فاهتز الأفق بصوت الرعد، ثم انهمر مطرٌ ربيعي، انهمر بقوة، وبلّل الثياب والوجوه، كان راضي ينظر بذهول، فكل شيء من حوله بدأ يتغير، ويوحي بالخطر المحدق بهم، يرى تلك الدهشة المرتسمة على وجه شقيقه ماهر، الذي التصق بصدر أمه خوفاً وقد بلل المطر رأسه وسالت قطرات على خده[٣].

ثم ما لبث أن أعادت له رائحة الأرض الطمأنينة والأمان، إنها رائحة السنابل التي تمتد حتى آخر نقطة يدركها البصر، إنها الرائحة التي تنعش في ذاكرته عبق الأرض وروعتها وإحساسها بأبنائها. فمنذ أول ليلة قضاها بعيداً عن قريته، أعاده الحنين إليها ولزوايا بيته، لمكان لعبه، للبحيرة وأمواجها الرقراقة، إلى أعماقها التي تعيش فيها الأسماك والنباتات، فكأن الأرض تبادله شعور الغربة والحنين بعد رحيل سكانها عنها.

---

[١] ماء السماء، يحيى يخلف، ص ١٦

[٢] الرواية السابقة، ص ١١

[٣] الرواية السابقة، ص ١٢

شُغل بمراقبة كل ما يحدث، النساء وأحاديثهن، أخبار المقاتلين، غناء بدرية، فكأنه يحاول تسجيل كل لحظة تمر عليه، حتى لا يفقدها، يرصدها ليذكرها التاريخ غداً، فلابد أن تروى هذه الأحداث، لتخلد معاناة شعب تآمر عليه الأعداء، علمته حياة المنفى أن يكون طفلاً استثنائياً، يكبر عمره الحقيقي بعشرات المرات، يتنازل عن متطلباته كطفل.

في ظل هذه الظروف الصعبة، كانت المدرسة معادلة للوطن، فعن طريقها يتطور مفهوم الحرية لدى الطفل، وتنمو معارفه وقدراته، وهي الخطوة الفاعلة في طريق التحرر والعودة .

إن خروجهم من الوطن خسارة، ولكن خسارة العلم هي التي ستنسيهم القضية، فبقدر توسّع مدارك الطفل يزداد إيمانه بقضيته، وتمسكه بحق العودة لأرضه، فهناك علاقة جدلية بين العلم والحياة، وبين العلم والتحرر؛ إنه السلاح الحقيقي الذي يجب التزود به، والاهتمام بما يعنيه من دلالات وتقنيات علمية، ومعرفية، وفلسفية، التي من شأنها أن تزيد من قدراتهم الضرورية لمواجهة المحتل والانتصار عليه، فالحرب مع الاحتلال هي حرب معرفية، علمية تقنية، حرب إيمان، وقوة معتقد، بصمود الحق أكثر من كونها حرب سلاح فقط[١].

حتى وإن أُرغموا على الخروج من الوطن، فهذا لا يعني خسارتهم للقضية، فخروجهم للشتات فتح لهم أبواباً كثيرة لإعادة النظر في التاريخ، وفك رموزه، والتسلح بالعلم، الذي ينير العقل ويوضّح الرؤية، ويقوي المقاومة " التحق راضي بالمدرسة، واظب واجتهد، وحاز على احترام وتقدير أساتذته، وكان متفوقاً في النشاطات اللا صفية[٢]".

---

[١] الاغتراب والمقاومة، حسن عليان، ص ١٢٣

[٢] ماء السماء، يحيى يخلف، ص ٢٥

كبر الحلم في داخله بالعودة، وأصبحت تتضح رؤيته للأحداث، محاولاً إيجاد تفسير لما يحدث في أرض الوطن، اشترك في منظمات تؤيد الوحدة القومية، ووزع منشورات، وشارك في مظاهرات مع الأستاذ رياض(١). بالأمس كان طفلاً صغيراً، وشاهداً على الخروج من الوطن، وها هو اليوم يُشارك في المظاهرات ويكون له رأيه الخاص وشخصيته المستقلة .

ركزت الكاتبة Dixiane Hallaj في روايتها Refugee Without Refuge على معاناة الطفل في الملجأ في ظل الحروب والحصار والفقر. وأطلعتنا على حياة الصغار والتحديات اليومية التي يواجهونها، وهي ما قد يعرضهم للخطر، وللموت أحياناً. ناقشت موضوع الحرب وآثاره على الأطفال من عدة نواحٍ من خلال عرضها لعدة شخصيات هم من عالم الأطفال .

كان للأطفال دورهم البارز في الرواية، كانوا على قدر كبير من المسؤولية والنضج والإدراك لما يجري حولهم، فهم يعيشون يوميات من الحزن والمعاناة والألم. فالطفلة "أمل" ينتابها الضيق من الفقر وسوء الأحوال، فهي تحلم أن تعيش كباقي أطفال العالم حياة كريمة، تحفظ لها طفولتها وتلبي مطالبها البسيطة؛ فعندما يفرض الحصار ويمنع التجول تحزن لعدم قدرتها على الذهاب للمدرسة، وتضطر للبقاء في المنزل الضيق لأيام، وربما لأسابيع، حتى يُسمح لهم من جديد بالخروج لممارسة حياتهم بشكل شبه طبيعي. تعيش أمل حياة الطفولة بين أقلامها، ودفاترها، واهتماماتها البسيطة، ولكن مع تطور أحداث الرواية نجدها تتصرف تماماً كالكبار الناضجين. ففي هذه البقعة من العالم تعلم الطفل أن يُسابق الزمن، ويكُبر سريعاً ويتخلى عن طفولته ويتحمل المسؤولية(٢).

---

(١) الرواية السابقة، ص١٧٩

(٢) Refugee Without Refuge, Dixiane Hallaj, 7

فعند وفاة والدتها تركت أمل المدرسة وبقيت في البيت، لرعاية إخوتها وإدارة شؤون المنزل، فعلى الرغم من صِغر سنها، إلا أنها بدأت تتقمص دوراً جديداً " دور الأم الصغيرة" محاولة بذلك الحفاظ على العائلة، وحمايتها والتخفيف من معاناة إخوتها الصغار. وكانت سبباً في مساعدة والدها على الخروج من أزمته النفسية، وحالة الذهول التي أصابته، إثر فقده لزوجته عند نقطة التفتيش الإسرائيلية وهي تضع مولوداً، مما أدى إلى وفاة الأم والطفل معاً.

أدركت أمل حجم المعاناة التي يعيشها الناس في المخيم، فكانت نموذجاً للكفاح والصبر والمقاومة، حلمت بالرجوع للأرض المسلوبة، فقد رسمت لهم الجدة صوراً عن جمال الأرض والبيوت والمزارع التي أُخرجوا منها[1]. لقد أوجدت حياة الغربة والشتات جيلاً ما فتئ يذكر أن فلسطين هي أرضه وملاذه، وهو وإن لم يكن قد عاش على أرضها، فهو يحلم بالعودة إليها، فهي مرسومة في وجدانه، ومنقوشة في خياله؛ إن هذا الجيل لم يفقد الذاكرة على الرغم من كل محاولات إبادة الوعي الجمعي وأصالة تراثه، عن طريق تضييق أسباب الحياة عليه حتى ينَشغل بالهموم اليومية، والصراع من أجل الحياة وينسى القضية الأهم وهي كونه شعباً طُرد من أرضه.

لم تكن الطفلة إيمان بأفضل حالٍ من أمل، فقد عاشت مرارة الحصار، والخوف والقلق عند غياب إخوتها في وقت فرض منع التجول. كانت إيمان متفوقة في المدرسة، وتحلم بإكمال دراستها في المدينة المجاورة، لعدم وجود مدرسة ثانوية في المخيم الذي تعيش فيه، لم يكسر الحصار من إرادتها وحبها للمدرسة، بل زادها ذلك شجاعة، فاشتركت مع ابنة عمها أمل في

[1] الرواية السابقة، ص ٩

مظاهرة الطلاب في يوم الأرض، شعرت بالفخر والحرية، لإحساسها بأنها تستطيع المقاومة واتخاذ موقف تعبر فيه عن رفضها للظلم من أجل فلسطين [١].

وعلى الرغم من سلمية المظاهرة، وخروج مسيرات الأطفال أمام كاميرات العالم، إلا أن هذا لم يشفع لهم عند المحتل، الذي وجه السلاح عليهم ليُفرق المظاهرة، أدى ذلك لإصابة إيمان برصاصة في قدمها وسقوطها على الأرض، أصاب أمل الذعر عندما رأت الدماء تسيل منها، ولكنها تغلبت على خوفها وحملت إيمان لأقرب منزل وطرقت بابه بشدة، ودخلت طالبة المساعدة في نقلها للمستشفى [٢]. أدركت أمل قيمة اللحظة في المخيم وسط الحصار، وأنها قد تكون كافية لقتل شخص إذا تأخر إسعافه.

لامس الكتّاب معاناة الطفل في مخيمات الموت البطيء، وإثبات قدرته على التعايش وفق ما يتطلبه منه الموقف، في إطار العلاقة الجدلية بين الحرية وقيود الذل.

شجاعة الطفل الفلسطيني :

كانت أمل نموذجاً لتحول الطفل الفلسطيني إلى بطل أسطوري لا يهاب الموت، يتحلى بالشجاعة متحدياً العدو. لقد أكسبت الحروب الطفل الفلسطيني قوة داخلية وحصانة ضد الخوف والمجهول، لم يعد يخشى الواقع والموت المتربص به. ففي وقت فرض الحصار وسكون المدينة إلا من أصوات الرصاص والطائرات، خرجت ليلاً لطلب الإسعاف لوالدتها المريضة، كانت تتنقل بين الأزقة، وتختبئ من الجنود خلف أكوام الحجارة، تحدت رغم صغر سنها الخوف والموت، كانت تُحدث نفسها "Fly like the wind " أسرعي كالريح، فهم لا يستطيعون الإمساك بالريح، أدركت حجم الموقف وخطورته، فهي في سباق مع الزمن والموت، فالجنود يُطلقون

[١] الرواية السابقة، ص ٨٧

[٢] الرواية السابقة، ص ٩٣

النار على كل شيء يتحرك، يطلقون النار حتى على ظلهم، فجأة فُتح باب منزل وامتدت يد إليها وسحبتها للداخل، حاولت الصراخ لكن الرجل طمأنها وعرض عليها المساعدة، نجحت أخيراً في مهمتها في طلب الإسعاف لوالدتها[١].

أوجدت الحروب مفارقات شتى في حياة الطفل الفلسطيني، فكان شدة حضور الجندي في يومياته، محرراً له من الخوف منه، وإدراكه بأن جرائمه الوحشية ضد الطفولة ما هي إلا دليل على ضعفه وعجزه عن انتزاع حب الأرض منه، تعلّم الطفل أن يكسر الحواجز، وأن يتجه رغم صغر سنه إلى المقاومة والتدريب. فنراه يقتحم الميادين ويحمل السلاح، ويتخيل العدو الذي سيواجهه؛ يُشارك "سعيد" أطفال المخيم ورجاله في التدريب، يقفزون عبر النار، يزحفون تحت الأسلاك ويلوحون بأسلحتهم، يواجه خصمه في الساحة ويتغلب عليه وسط تصفيق الحضور[٢].

لم تُفرق آلة الحرب الإسرائيلية بين الصغير والكبير، فلم يرحم الاحتلال الطفولة وبراءتها، بل كانت عرضة للقتل والإرهاب؛ فكثيراً ما يُترك الأطفال عند نقاط التفتيش لساعات طويلة، وهم بحاجة للذهاب للمستشفى مما يؤدي إلى وفاتهم. كالطفل" خـــالد" الذي عَرضـــت له الكاتبة Anna Baltzer في كتابها Witness in Palestine "شاهد من فلسطين"[٣].

فهي تحكي عن نماذج مختلفة تصور معاناة الطفل الفلسطيني تحت الاحتلال، فهم يُقتلون بدمٍ بارد، ويستخدمهم الجنود دروعاً بشرية لتحميهم عند الدخول للقرى والمدن للبحث عن نشطاء أو مطلوبين. وتستهجن الكاتبة استخدام الجنود الغازات السامة على القرى لتفريق

---

(١) الرواية السابقة، ص ٦٢

(٢) أم سعد، غسان كنفاني، ص ٦٨

(٣) كاتبة أمريكية زارت فلسطين في ٢٠٠٣ أرادت اكتشاف الحياة اليومية التي يعيشها الفلسطيني في ظل الحرب والحصار، وكانت مشتركه في منظمات حقوق الإنسان لرفع الظلم عن الإنسان الفلسطيني وتسليط الضوء على معاناته، وكان كتابها بمثابة مذكرات يومية عن حياتها في فلسطين .

مظاهرة، أو لسهولة الإمساك بمطلوبين، دون مراعاة لوجود الأطفال، الذين يُصابون بتشوهات خطيرة وإعاقات، كما حدث مع محمد، كان يبلغ من العمر ستة أشهر حين ألقى الجنود الغاز على منزله مما أدى إلى إعاقته[١].

وحشية الحروب وأثارها النفسية على الطفل :

الموت المجاني يوزع ولا يدري الطفل الفلسطيني لماذا يقتل، وهل يُعد من ضحايا الحرب أم من شهداء المقاومة. لقد تربى طفل الداخل الفلسطيني على صوت الرصاص والقنابل، وعاش في ظل التهديد الدائم له في مصدر قوتهِ ومكان لعبه.

نقل الكُتّاب العرب والإنجليز معاناة الطفل الدائمة بسبب الحرب الآلية والنفسية الموجهة ضده؛ وخوفه الدائم من وجود الجنود في أماكن لعبه، فهم لا يتورعون عن إطلاق النار عليه وقتله لمجرد الاشتباه به !

تقول "رندة"، في رواية "أعراس آمنة" لإبراهيم نصر الله، منذ أيام قرأت حواراً مع قناص إسرائيلي يعترف فيه بأن قيادته تطلب منه عدم إطلاق النار على أيّ طفل عمره أقل من اثني عشر عاماً، يجب أن يكون عمره أكبر من ذلك حسب التعليمات، فقالت الصحفية للجندي: "ولكن كيف تعرفون أن الطفل أكبر من ذلك أو أصغر، وأنتم هنا خلف الحواجز، أو فوق الأبراج ؟ فأجاب القنّاص: نحن لا نستطيع أن نطلب من كل طفل إبراز شهادة ميلاده قبل قتله[٢]". يكشف هذا عن رغبته الدفينة في القتل، بحجة أنه لا يستطيع تمييز الأعمار الحقيقية للأطفال، لذا فهو يطلق النار على كل طفل يُشاهده، لصعوبة توقيف كل طفل وسؤاله عن شهادة ميلاده .

---

[١] انظر: أعراس آمنة، إبراهيم نصر الله، ص ١١٨

طفل الداخل كُتب عليه أن لا يعرف حياة الأمان في تنقُلاته بين الحارات والأزقة للعب مع أقرانه، فربما كان الدافع لقتله فلسفة الوجود، فالجندي الإسرائيلي مؤمن بأهمية الحرب، أنا أُحارب إذاً أنا موجود. فقتل الغير هو بمثابة المعادل النفسي له، الذي يُشعره بأن له دوراً يلعبه غير دور الضحية، فتُعيد له هيبته وقوته.

جاءت صورة الطفولة في روايات إبراهيم نصر الله معذبة، وممزقة، لأنها افتقدت ملامح الطفولة البريئة وعوالمها، على الرغم من ذلك فهي تقاوم في سبيل حبها للحياة وتحديها للموت. طفولة تتسم بسمات الرجولة والتعامل مع المواقف الصعبة والدموية، واختراق الفضاءات المغلقة[١].

استطاع إبراهيم نصر الله في روايته "أعراس آمنة" نقل الصور التراجيدية لواقع الطفل الفلسطيني، وترجمة ما يدور في خلده من هموم وحيرة وخوف. وكيف أن مأساوية الأحداث قد غيرت من اهتماماته، فَعَزَف عن اللعب مع أقرانه وانشغل بترقب الموت وإحصاء عدد القتلى، بل أصبح حفاراً للقبور، فكأنه يدرك، وهو في بداية حياته، أن قافلة الموت قادمة لتأخذ أكبر عدد من الناس فلابد من الاستعداد لها.

يقول الطفل عزيز لآمنة:" يا خالتي صرت أخاف من نفسي وصرت حزيناً أكثر. فسألته: ولماذا يا بُنيّ؟ فقال: لأني أصبحت أحس باللحظة التي يجب أن أترك فيها أصحابي وفراشي لأحفر قبوراً جديدة. لأني أصبحت أشعر أن هناك موتاً قادماً في الطريق، وما يعذبني أكثر أنني لا أعرف أيّ طريق سيسلك لأذهب وأحذر الناس[٢]".

---

[١] انظر: الاغتراب والمقاومة، حسن عليّان، ص ١٢٢

[٢] أعراس آمنة، إبراهيم نصر الله، ص ٧٣

أصبح ترقب الموت هو هاجسه، يعيش الخوف من فقد أهله وأصدقائه وجيرانه، ينال الطفل أكبر قدرٍ من المعاناة والألم، حين تُهدر حياة من يُحب أمام عينيه، وحين تؤسر أحلامه وتُغتال على يد عدوٍ لا يرحم، فهو مُتهم بالإرهاب لإلقائه الحجارة على الجنود تعبيراً عن رفضه لهذا الواقع و هذا الظلم .

أصبح الطفل الفلسطيني يُعاني كثيراً من الأمراض النفسية والجسدية، جراء الاعتداءات المتلاحقة علية، لإشراك العدو له في حربه الوحشية، لعلمه أن فلسطين بلد يافع، وأن أكثر من نصف المجتمع الفلسطيني هم أطفال دون سن الثامنة عشرة، فقتل الأطفال هو بمثابة قتل شعب بأكمله." فقد نُشرت تقارير دولية تُندد بسوء معاملة الجنود للأطفال الفلسطينيين، واعتقالهم والاعتداء عليهم بالضرب والشتم وعدم السماح لأهلهم بزيارتهم. وإجبارهم على الاعتراف بتُهم لم يقترفوها، حتى يتم بعد ذلك نشرها لوسائل الإعلام الغربية، ليجدوا التبرير لما يقومون به[١]".

اشترك الأدب الإنجليزي مع الأدب العربي في الاهتمام بالطفل ومناقشة قضاياه، ورؤية العالم بعيني طفل كُتب عليه أن يُعاني ويلات الحروب، في محاولة للإجابة عن التساؤلات التي أرقته. فالطبيعة الإنسانية السوية تستهجن الظلم، وتعذيب الغير، فكيف إذا كان المُعذب هو طفل صغير.

كانت الطفولة حاضرة بقضاياها واهتماماتها وتساؤلاتها البريئة في رواية A Little Piece of Ground by Elizabeth Laird فقد أبدعت الكاتبة في تصوير مقاومة الطفل

[١] The Guardian ,Harriet Sherwood ,Sunday , 22,January, The Palestinian Children- alone and bewildered- in Israel Al Jalame Jail

"كريم"، وهي مقاومة من نوع يختلف عما يعرفه الكبار، عرضت حياته للخطر في أكثر من مرة، كل هذا في سبيل أن ينال حقه في ممارسة لعب الكرة التي يعشقها مع رفاقه(١).

يرى "كريم" الجنود، ويسمع القصص المفزعة عما يقومون به من أعمال قتل وتدمير في حق الفلسطينيين، ولكن سرعان ما ينسى هذا الواقع المُحزن لينشغل في ألعابه واهتماماته ولا سيما كرة القدم. فقد عَمِل مع رفاقه على إصلاح قطعة أرض خالية وتنظيفها لتكون بمثابة مكانهم السري للعب، ورسموا على جدارها علم فلسطين، وقضوا فيها أوقاتاً ممتعة، يحلق الصغار بخيالاتهم بعيداً عن الصراعات، فيتخيل كريم أنه سيصبح لاعباً مشهوراً، تصوره كاميرات المصورين ويسجل الأهداف، ولكن سرعان ما انتهى كل شيء عندما وضعته الكاتبة في مواجهه حقيقية مع الجنود وأسلحتهم، عندما فُرض الحصار فجأة وهو يلعب الكرة، فلم يستطع الرجوع للبيت، اضطر للاختباء في سيارة قديمة، يُعاني الخوف، والبرد، والجوع لأيامٍ طويلة، أخذ يُراقب فيها الجنود بغضبٍ، وقلة حيلة، عندما أخذوا يدوسون على علم فلسطين، ويسخرون منه. نقلت الكاتبة وقع ذلك عليه، فكان يريد أن يصرخ، ويطردهم من أرضه، فهذا هو مكان لعبه، ولا يحق لهم دخوله وتدنيسه وتخريبه(٢).

فهل كان حرمان الطفل الفلسطيني من مكان لعبه ومدرسته عاملاً أساسياً في جعله يُدرك خسارته للأرض ومُطالبته باسترجاعها ؟

نجا "كريم" بإعجوبه من الموت، فعندما هرب من السيارة القديمة أطلق عليه أحد الجنود الرصاص، فأصابه في قدمه، ولكنه استطاع الاختباء في أحد المباني، إلى أن وجده أخوه،

(١) A Little Piece of Ground by Elizabeth Laird ,7

(٢) الرواية السابقة، ص ١٦٣

فساعده بنقله للمستشفى[١]. هذا الموقف زاد من حب "كريم" لوطنه، وعدم رغبته في تركه، والبحث عن مكان آمن، كما فعلت أسرة صديقه، فقد أدرك ضرورة البقاء في الوطن، والمقاومة حتى النهاية .

لم تكن هذه هي المواجهة الوحيدة لكريم مع الجنود، بل كان هناك موقف أشد إيلاماً من ذلك، وهو وقوفهم وهم في طريقهم لزيارة الجد في القرية عند نقطة التفتيش، أمر الضابط الرجال بالنزول من السيارات وترك الأطفال والنساء بداخلها، ثم أمرهم جميعاً بخلع ملابسهم للتفتيش، كل هذا من شأنه أن يكسر نفوس الأطفال الذين يرون آباءهم دائماً رمزاً للقوة، ودرعاً حامياً لهم، في موقف مُهين كهذا[٢].

إن للطفولة خصوصيتها وقدسيتها التي تجعل من وصف معاناتها أمراً صعباً للغاية. ولكن الرواية استطاعت تصوير مشاعر الأطفال تجاه مختلف القضايا التي تشغلهم، وتجاه البيئة والمحيط الاجتماعي والسياسي الذي يعيشون فيه، والمُطالبة بحقهم بحياة طفولة آمنة، بعيداً عن صخب الرصاص، وقصف الطائرات، كباقي أطفال العالم، فله الحق في اللعب، فالترفيه واللعب يُعدان من حاجات الطفولة الأساسية، والحق في الأمن النفسي والسلام، والحق في التعليم، وألا تكون مدرسته عرضة للهدم والقصف. فقد حصل انفجار بالقرب من مدرسة "كريم"، أثار الرعب في نفوس الأطفال الذين وجدوا أنفسهم مرتمين على الأرض، خوفاً من قطع الزجاج المتطايرة من النافذة، جاء حراس المدرسة ليطمئنوا على التلاميذ، ويخبروهم أن الجنود قد رحلوا، طلب منهم الأستاذ الرجوع لمقاعدهم، وفتح كتبهم لمواصلة الدراسة، لم يستطع التلاميذ فتح الكتب، فلا

---

[١] الرواية السابقة، ص ١٨٨

[٢] الرواية السابقة، ص ٤٤

يزال الخوف مسيطراً عليهم، وعيونهم معلقة في النوافذ، ترقباً لانفجار جديد(١). حاول" كريم" بعدها أن يتناسى ما حدث، فقد تعلم الطفل الفلسطيني أن يمحو الآثار الكبيرة التي تذكره بفجائعه، لقدرته على استيعاب أشكال العذاب والاضطهاد التي مارسها العدو معه على مدار عقود .

يمر الطفل بمراحل متعددة من التحول النفسي بسبب الحصار والاحتلال، كما هو الحال مع "كريم"، فبعد أن كان يخاف الجنود ورشاشاتهم، أصبح مُقتنعاً أكثر بضرورة البقاء، فكأن القضية تولد من جديد مع كل جيل، يورّثها الأجداد والآباء للأبناء، ولن تنتهي مهما طال الزمن، فعلى الرغم من صعوبة الحياة تحت الاحتلال إلا أن الطفل الفلسطيني استطاع أن يقتنص لحظة انفراج وسط هذا الركام العبثي ليمارس حقه في الحياة والوجود والفرح. فقد عَزم كريم وأصدقاؤه على إعادة تنظيف الملعب، ليكون لجميع الأطفال الذين يعشقون كرة القدم، إيماناً منهم بأنهم سينجون من الجنود في كل مره .

بيّنت الكاتبة أن الطفل الفلسطيني كبير بالفعل، فقدّمت نموذج الطفل الذي ينجح ويتفوق تحت أقسى الظروف، ونموذج الطفل الذي يُعين أسرته، ونموذج الطفل الذي يواجه الدبابة، كطفل المخيم صديق كريم(٢). لم يجد الأطفال إلا الحجارة، سلاحاً صغيراً رمزياً، يحاولون فيه رد الاعتبار لأنفسهم، ولطفولتهم التي حُرموا منها .

يتعمد الجندي السخرية من الطفل، للنيل من كرامته، والحط من شأنه، رغبة منه في كسر شخصيته. سلّطت الكاتبة الضوء على استفزاز الجنود للأطفال والسخرية منهم، عندما كان طفل المخيم سامي يسير هو وأخوه أوقفتهما مجندة، وأمرتهما بإخراج هوياتهم، وعندما أعطياها البطاقة، رمتها في الطين، ثم أمرتهما بإحضارها ثانية، وعندما رفضا ذلك استدعت الجنود

(١) الرواية السابقة، ص ١٢٦

(٢) الرواية السابقة، ص ١٥٦

لإجبارهما على إحضارها، وعندما أحضراها أخذها الضابط وقال: إن المعلومات الموجودة فيها غير واضحة وأمر باعتقالهما(١).

يوجه القنّاص الإسرائيلي النار على الأطفال في أماكن لعبهم كنوع من الرياضة اليومية، يستفز الجنود الأطفال في عمر العاشرة عبر مكبرات الصوت، فيأخذ الأطفال برمي الحجارة، التي لا تتجاوز حجم أيديهم الصغيرة، ومن ثم يبدأ الجنود بإطلاق النار عليهم وفي معظم الأحيان يُقتل طفل أو أكثر(٢).

فلا غرو أن يكون الجو العاصف، والممطر بالحريق والنار، دافعاً للطفل الفلسطيني لكي يكسر حاجز الخوف، و يتجه رغم صغر سنه للمقاومة والتدرب لملاقاة العدو، أطفالاً رسمت الدماء على ملابسهم صوراً غاضبة ثائرة رغم أنها حزينة .

لم نجد في الروايات العربية والإنجليزية – محل الدراسة– ما يشير إلى الطفل الإسرائيلي وتصوير مشاعره ونقل أفكاره ومعاناته. فكل ما ورد عنه هو صورة عامة، وأنه ضحية لتلك الحرب الدائرة التي لا رابح فيها. ففي رواية AL Naqba by Barbara Goldscheider تُشير الكاتبة إلى أن أغلب ضحايا الانفجارات التي يقوم بها المقاومون الفلسطينيون هم أطفال صغار، وأمهات لا يحملن السلاح، فهو مُستهدف أيضاً بالقتل لوجوده في منطقة الحرب، لكنها صورة عامة لم تتعرض فيها للآثار النفسية التي خلفتها عليه الاعتداءات(٣).

ناقشت سحر خليفة في روايتها "ربيع حار" موضوع الطفولة في الحرب الفلسطينية الإسرائيلية من زاوية مختلفة تماماً، لقد كان الطفل أحمد يحاول أن يكتشف الآخر الإسرائيلي،

(١) الرواية السابقة، ص ١١٥

(٢) Chris Hedges Gaza Diary Harpers magazine , New York October ,2001 .1

(٣) AL Naqba by Barbara Goldscheider ,p91

متجاهلاً كل ما سمعه عنهم من والديه وأقرانه. بل أخذ يُقارن بين ما سمع وبين ما رأى. لقد رأى طفلة إسرائيلية تلعب في حديقة منزلها في إحدى المستوطنات، وكان بينهما سور حديدي، طفلة بيضاء، شعرها ذهبي، ذات نمش خفيف على الوجه، وأنفها صغير كالفستق(١). فهل كانت الطفولة التي لا تعرف الحقد والكره من كلا الجانبين قادرة على صنع السلام بينهما ؟

أراد أن يقترب منها ويتحدث إليها، وأن يعرف اسمها، واسم أبيها، وفي أيّ صف تدرس، وأبوها ذاك ألديه رشاش على كتفه، ألديه سوالف وطاقية ؟ هل يكره العرب، ويطخ العرب أم هو لطيف مثل ابنته ؟ أتخاف منه لأنه عربي؟ ماذا تُناديه وبأي لغة ؟ أسئلة بريئة أخذ يطرحها على نفسه وهو ينظر لتلك الفتاة، اقترب منها أكثر يدفعه الفضول والرغبة في اللعب معها، فهي في مثل سنه تقريباً، كانت تلعب لعبة الإكس وحدها، تقفز وتعد، آحاد، شنايم، شالوش، أرباع ... ردد معها الأعداد بصوت عالٍ، أخذت تضحك، وهو يقترب من السياج ويضحك(٢). لا تعرف الطفولة الحقد والكراهية فهي مفطورة على النقاء والبراءة، تحدى الخطر وتحذيرات والديه، وأخذ يُريها النظارة والكاميرا والساعة، لم تكن اللغة حاجزاً بينهما فكل الإشارات توحي بأنه لا يوجد خطر هنا .

تواصل الكاتبة رصد العلاقة التي لم تصمد كثيراً بسبب طبيعة الحرب، التي تُحتم عليهما أن يكونا أعداء، فلا مجال للصداقة بينهما، دخل السجن عندما تسلّل للمستوطنة محاولاً إنقاذ هرته التي حُبست فيها، فضُرب وعُذب في السجن، وخرج رجلاً في بضعة أيام، لم يعد يخاف، فبعد أن كان طفلاً وديعاً يحب الرسم والألوان والتصوير، ويحلم بمساعدة والده في الجريدة، ترك المدرسة ليعمل متطوعًا في الهلال الأحمر، ينقل المصابين والشهداء للمستشفى، حتى

(١) ربيع حار، سحر خليفة، ص ٤٣

(٢) الرواية السابقة، ص ٤٧

استشهد هو في الأخير تحت جرافة إسرائيلية، كانت تحاول هدم منزلهم لبناء الجدار الفاصل مكانه.

ناقشت كتب إنجليزية كثيرة أهمية فتح قنوات للتواصل بين الجانبين وخصوصاً بين الأطفال، لأنهم هم القادرون على تحسين الوضع يوماً ما، إذا حصل بينهم اندماج وصداقة. ومن الممكن أن يحصل بينهم تعايش وتفاهم، وبالتالي مستقبل أفضل لكلا الجانبين. هذا ما حاول الكاتب الإنجليزي" Michael Morpurgo" طرحه في كتابه The Kites are Flying الذي يحكي قصة طفل فلسطيني اسمه "سعيد"، يصنع طائرات ورقية، ويرسلها عبر الجدار الفاصل إلى الجانب الآخر، الذي يعيش فيه أطفال يهود. أراد أن يقول إن الحواجز المادية لا يمكن أن تمحو فكرة التعايش بين الطرفين، فهذا هو الطريق الوحيد كي ينعموا بمستقبل أفضل، ينتهي فيه الصراع والحرب ويقوم مقامه بناء الدولة(١).

أما الكاتبة "Debrorah Elis" في كتابها Three Wishes فقد أجرت لقاءات مع أطفال فلسطينيين وإسرائيليين تطلب منهم أن يتمنوا ثلاث أمنيات، فكانت أمنياتهم متأثرة بطبيعة الحياة التي يعيشونها. فالطفل الإسرائيلي "Artov" يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً، يتحدث عن معاناة اليهود قديماً في روسيا وكيفية انتقال والديه لفلسطين، ويتمنى العمل في الخدمة العسكرية، على الرغم من خطورة حياة الجنود فهم دائماً عرضة للقتل. وعند سؤاله عن معرفته لأطفال فلسطينيين أجاب: إن ما يعلمه عنهم قليل، لكنه يعلم أنهم يكرهون إسرائيل ولا يعرف السبب!(٢).

---

(١) Michael Morpurgo كاتب بريطاني، ألف العديد من الكتب التي تُناقش مواضيع خاصة بالطفل، وحاز على العديد من الجوائز، مُثلت العديد من رواياته في أفلام للأطفال .

(٢) Debrorahellis كاتبة كندية مُهتمة بالكتابة عن الطفل وقضاياه، وهي ناشطة للسلام، كتبت هذا الكتاب حتى يتمكن أطفال العالم من معرفة حياة الطفل في الحرب الفلسطينية الإسرائيلية، تدعو للسلام من خلال معرفة كل طرف بالطرف الآخر .

أما الطفلة الفلسطينية "نور"، فهي تبلغ من العمر اثني عشر عاماً، تعيش في القدس حياة صعبة بسبب الحصار، وبسبب إعاقتها، فهي لا تستطيع المشي، تدرس في مدرسة خاصة للمعاقين خارج المدينة، تعاني من صعوبة الوصول إلى هناك بسبب كثرة نقاط التفتيش، مما يؤدي إلى تأخرها عن المدرسة يومياً، تذكر أن والدتها تمنعها من الخروج من البيت وحدها لأن الطرق غير معبدة، وعند هجوم الجنود عليهم لا تستطيع الهرب بسرعة، رغم ذلك فهي ترمي الحجارة على الجنود وتشعر بأنها شجاعة، ولكنها تخاف منهم في الوقت نفسه.

وهناك العديد من الأمثلة للأطفال وأمنياتهم، التي غالباً ما تصور الوضع الاجتماعي والسياسي المضطرب الذي يعانونه، ولكن اللافت للنظر فيها هو كون هؤلاء الأطفال لا يعرفون شيئاً عن بعضهم، فأغلبهم بنى فكرته عن الطرف الآخر عن طريق السماع، والصور المرسومة لهم من الكبار .

لقد اهتم الأدباء منذ القدم بالرواية التي تتناول قضايا الطفل ومشكلاته، باعتبارها وسيطاً تربوياً يتيح الفرصة أمام الأطفال لمعرفة الإجابة عن تساؤلاتهم واستفساراتهم، ومحاولاتهم لاكتشاف الآخر وحضارته، ولغته، وطريقة حياته، فالرواية من أعظم وسائل الاتصال بين بني الإنسان، ولا سيما إن كانت تناقش قضية مهمة مثل قضية الحرب وتأثيرها على الطفل .

أثبت علم النفس أن مرحلة الطفولة هي مرحلة مستقلة في عمر الإنسان لها ميولها، واهتماماتها ودوافعها المستقلة عن الكبار، وازدادت المعرفة بها حين بين علماء النفس التأثيرات الحاسمة لمرحلة الطفولة في المراحل التالية لها من عمر الإنسان كله(١).

(١) أدب الأطفال، حسن شحاتة، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى ، ١٩٩١، ص١٢

لذلك وجب الاهتمام بالكتابة عن الطفل، وأحلامه، لأن حلم الطفل يمثل أحلام شعب بأكمله؛ و ينبغي ألا تركز الكتابة على ما هو تافه، أو ما كان على هامش الحياة، بل يجب أن تدخل في قلب الحياة لترسم واقعاً وتعلن موقفاً، وتدافع عن الإنسان والحقيقة.

إن الرواية تُساعد على حفظ التاريخ، وتقدمه بصورة مبسطة للطفل حتى يستوعبها، ويعرف حضارة قومه وثقافتهم، وتجعل هناك تواصلاً بين الحضارات والثقافات حين يطلع الأطفال على ثقافة الطفل في بلدان أخرى (١).

(١) Benefits of story telling to children
http://www.prokerala.com/kids/activities/storytelling-to-children.php

المبحث الرابع:

نماذج مختلفة للمحتل بين الروايتين العربية والإنجليزية :

إن الأدب الذي كتب عن القضية الفلسطينية، كان ولا يزال يُكتب في أجواء من التوتر والصراع بين العرب واليهود. فالاحتلال لا يزال جاثماً على الأرض الفلسطينية، لذا كان من الطبيعي أن تصور الروايات العربية – الإنجليزية معاناة الفلسطيني اليومية، في محاولته للتعايش المستحيل مع الآخر.

اعترف العالم بوحشية المحتل، وبطشه، و شيفونيته، فما يتردد في وسائل الأعلام يومياً من أحداث دموية خير شاهد على ذلك. فجاء الأدب – الرواية تحديداً– مصوراً، وناقلاً، وموثقاً لما يجري، عن طريق بسط الأحداث على نسق روائي، تتحرك فيه الشخصيات، لتعبر عن مشاعرها، واصفة لنا ما تتعرض له من عنف يومي على يد المحتل، ومدى انعكاس ذلك عليها، في لغة متوترة، متأثرة بلغة الحرب الدارجة على الأرض، لتنقل هذا العالم للقارئ أينما كان، ليعيش تفاصيل ذلك الحزن العادي. فهل تأثر أدباء العرب والغرب بالصورة السائدة عن اليهود في الأدب العالمي منذ القدم ؟

كانت الرواية بمثابة دائرة واسعة من دوائر الرصد والمتابعة، لأبعاد القضية الفلسطينية، وملابساتها، وتطوراتها، وتسلسلها التاريخي، فمنذ أن وطئت أقدام الإنجليز أرض فلسطين، وتزايدت الهجرات اليهودية إليها، أخذ الأدباء على عاتقهم مهمة تنبيه الناس لهذا الخطر القادم، ومحاولة رسم صورتهم، وكشف نواياهم وتحذير الناس من بيع الأراضي لهم. فكيف إذاً رسمت الرواية صورة المحتل الذي يعيش مع الفلسطيني ولا يتعايش معه كما هو مُفترض؟

في أغلب الروايات العربية والإنجليزية – محل الدراسة – تصادفنا صورة المحتل النمطية، الجندي المدجج بالسلاح، أو المحقق الذي لا يعرف الرحمة، أو المستوطن الذي يريد فرض ملكيته على البيوت الفلسطينية. شخصيته مبهمة لا يتعمق الروائيون فيها كثيراً لتحليلها، ووصف مشاعرها، ودوافعها، هي في الغالب لا تعبر عن نفسها، الجو العام للرواية يحكم عليها، ويضع لها صورة تكاد تكون ثابتة، صورة الآلة المبرمجة للقتل والإبادة. فهل المحتل "الجندي أو المستوطن" متعطش دائماً لسفك الدم وقتل الأبرياء لمجرد القتل؟

المحتل في رواية <u>A Little Piece of Ground</u> by Elizabeth Laird يحمل سلاحه المشرع للقتل دائماً، يُطارد به الصغار في الشوارع وأماكن لعبهم، يرهبهم به حتى في داخل مدارسهم(١). فكريم يشعر أنه مستهدف من الجنود، فهم لا يحتاجون سبباً لإطلاق النار عليه، كما يفعلون يومياً مع غيره .

صورة المحتل في هذه الرواية متوافقة تماماً مع ما هو معروف عنه من رغبة في السيطرة على فلسطين بطريقة الاستيلاء، والاستحواذ، ثم السيطرة على كل مقومات حياة الإنسان الفلسطيني، فهو في نظره لا يستحق الحياة التي يعيشها، ولا الوطن الذي ينتمي إليه، فنراه يستخدم وسائل أكثر حنكة ودراية لإذلال النفوس، وإرهابها، والتعدي على حقوقها. ففي وقت الحصار، يقوم الجنود بتكسير المحلات، لإلحاق أكبر ضرر ممكن بأصحابها، والاعتداء على المدارس بتكسيرها وسرقة الأجهزة الموجودة فيها، فهم بذلك يريدون بث الرعب في نفوس الصغار، وفرض أشكال من القهر والإحباط والهزيمة عليهم(٢).

---

(١) <u>A Little Piece of Ground</u> by Elizabeth Laird , 74

(٢) الرواية السابقة، ص ٣٤

مشاهد مفزعة، ومواقف كثيرة، كانت وراء خوف كريم من الجنود، فرؤيته للجنود عند نقطة التفتيش، وهم يُنزلون والده من السيارة، ويجبرونه على خلع ملابسه، لتفتيشه ترك في نفسه إحساساً عميقاً، بالكره والخوف معاً لهذا المحتل المتغطرس، الذي يتعمد إهانة الفلسطينيين(١).

نقلت الرواية صوراً بشعة، ومشوهة، للمستوطن الذي يجابه الفلسطيني بالعداء، والاعتداء، يحكي الجد "لكريم" عن معاناة أهل القرية، وتعرضهم للاعتداءات المتلاحقة من المستوطنين، فهم يطلقون النار عليهم، ويقطعون الكهرباء، ويقومون بتكسير أنابيب المياه الممتدة لبيوتهم، وتهديدهم بمختلف الوسائل، لإجبارهم على ترك القرية(٢) .

تظهر صورة مغايرة للجندي القاسي، الخالي من الملامح، الذي لا يُسمع منه إلا صوت الرصاص، عند احتجاز "كريم" في الملعب الذي قام بتنظيفه مع رفاقه، ليلعبوا فيه كرة القدم، كان مختبئاً بين الركام، يراقب الجنود، وإذا أحدهم يقترب من قطته، يُطعمها، ويربت عليها، ويلاطفها، ويضحك! راود "كريم" شعور غريب، فقد رأى في الجندي صورة أخيه جمال، فبمجرد تغير معاملة الجندي، وتصرفه بلطف مع القطة، وهو مشهد لم يعتد عليه كريم، رأى فيه صورة أخيه(٣).

فهل هذا تناقض في شخصية الجندي، العنف، والكره، والحب، والملاطفة، أم أن ظروف الحرب وما تفرضه عليه من طاعة للأوامر العسكرية جعلت من الجندي آلة حرب صماء لا تشعر ولا تسمع ولا ترحم الضحايا ؟

---

(١) الرواية السابقة، ص ٤٦

(٢) الرواية السابقة، ص ٥٦

(٣) الرواية السابقة، ص ١٧٨

تنوعت مواقف المحتل، في الروايات الإنجليزية بين مؤيد، ومعارض للحرب، فعكست بعض الروايات، رفض الجنود لأعمال العنف، ضد الفلسطينيين العزلّ، وعذاباتهم النفسية، عند تنفيذهم لأوامر قيادتهم، التي تجعل إنسانيتهم على المحك. بينما نجد صورة مختلفة كلياً في البعض الآخر، صورة الجندي السادي، الذي يتلذذ بتعذيب الفلسطينيين، ويحاول دائماً تبرير جرائمه ضدهم.

يحكي "Adam" في كتابه Lonely Soldier وهو أشبه بسيرة ذاتيه عن تجربته في العمل في الجيش الإسرائيلي، يقول: إن الجنود شخصيات إنسانية، من لحم ودم، لها مشاعرها، وعواطفها، وأفكارها الخاصة، فهو لم يكتب عنهم بناء على صورة نمطية تأثر بها من غيره، بل دخل إلى عالمهم كاشفاً عنه الستار، و مبيناً مدى انعكاس توتر الأحداث، ودمويتها عليهم، وكيفية توفيقهم بين إنسانيتهم، وواجباتهم، في حماية الدولة الإسرائيلية .

يذكر إن الإعلام يركز دائماً على صورة الطفل الفلسطيني، حامل الحجارة، في مقابل الدبابة والجندي المسلّح، ويتجاهل أن هذا الجندي هو إنسان قبل كل شيء، يدافع عن وطنه، وعن شعبه، وأنه ترك منزله، وأطفاله، وزوجته، ليقوم بدوره في حماية دولته من الاعتداءات الإرهابية، التي تستهدف التجمعات اليهودية، وتقتل الأبرياء من الإسرائيليين(١).

لا يختلف شعور الجندي – بحسب Adam – عن شعور الفلسطيني في نقاط التفتيش، فهو يكره قيامه بهذا العمل، وأمامه المئات من الرجال والنساء والأطفال، على عكس ما يظن الفلسطينيون من أنه يستمتع بهذا المنظر. يذكر أنه في أحد الأيام كان يقوم بعمله كالعادة، تقدمت امرأة نحوه وهي تصرخ وتشتم وتتذمر من هذا الوضع، فهي تريد العودة للمنزل بعد نهاية

(١) Lonely Soldier by Adam Harmon Presidio Press; First Edition edition (June 27, 2006) ولد ونشأ في أمريكا وانتقل بعد الجامعة للخدمة العسكرية في إسرائيل لأنه أراد اكتشاف الثقافة العسكرية الإسرائيلية .

عملها، وتقول له: من أنت حتى تأتي لبلدنا وتملي علينا ما نفعل، إنك تقوم بفعل ظالم وغير إنساني، غضب كثيراً فهو يعيش الوضع نفسه، ويكره وجوده هنا لإيقاف الناس وتفتيشهم، فلديه أمور أهم من ذلك بكثير، لكن هذه هي الأوامر[١].

يصف صعوبة قيام الجنود بعمليات المداهمة والتفتيش، وأثرها على نفسيتهم ، فعند دخوله مع الجنود في إحدى المرات للتفتيش عن مطلوبين، خرج الجميع من المنزل، وكان ابنهم المراهق يمشي بهدوء، وثقة، وعدم خوف، استغرب "Adam" من ذلك المنظر، فلابد أن هذا المراهق قد اعتاد رؤية الجنود وأسلحتهم، ولم يعد يخيفه وجودهم، أخذ يُقارن نفسه بهذا المراهق، فعندما كان في مثل عمره في أمريكا، لم يكن يخاف من دخول الجنود لمنزله وتفتيشه، لأن ذلك لم يحصل له أبداً في حياته، ويتصور أن هذا الأمر سيؤدي بلا شك إلى إلحاق الضرر بنفسية وسلوك هذا المراهق مستقبلاً[٢].

كان للآخر الإسرائيلي مساحة واسعة لنتعرف عليه أكثر في رواية AL Naqba by Barbara Goldscheider، حيث صورت الكاتبة تفاصيل حياته إنساناً، بعيداً عن الحرب، ونقلت أفكاره، ومشاعره، ومواقفه، تجاه الصراع الدائر بين الطرفين .

فالضابط "Neyri Ben Ner" يعيش تفاصيل يومه العملية، في تدريب الجنود، ومتابعتهم في حفظ الأمن، في هذه الفترة الحرجة "الانتفاضة الثانية". يرفض هذا الضابط سياسة حكومته، التي جرتهم لحروب طويلة مع العرب، كان دم الجنود وأرواحهم ثمناً لها[٣].

---

[١] المرجع السابق، ص ٢١٧

[٢] المرجع السابق، ص ٨٢

[٣] AL Naqba،by Barbara Goldscheider ، 6

طلبت منه قيادته الإشراف على هدم منزل لإحدى العائلات الفلسطينية، انضم ابنهم للمقاومة، وفجّر نفسه داخل باص في تل أبيب، فأدى ذلك الانفجار إلى قتل وجرح العشرات. عند قدومه للمنزل، طلب من والدي الفدائي إخلاءه، حاول عيسى إقناعه بأن هذا ليس عدلاً، فلا ذنب لعائلته في التفجير، ولا علم لها بما فعله ابنهم المقاوم، فرد عليه "Neyri": حتى أهالي الضحايا لا ذنب لهم حتى يخسروا ذويهم في الانفجار[1]". يعلم عيسى أن العقاب الجماعي هو أحد القوانين البريطانية الموروثة، التي تفتقر لأدنى المعايير الإنسانية، أخبره عيسى بأن عائلته قد طُردوا من أراضيهم قديماً وانتقلوا إلى رام الله، والآن يخسرون منزلهم للمرة الثانية، لم يستجب له الضابط وأمرهم بالخروج من المنزل فوراً.

خرج "Neyri" من المنزل لسيارته، يُفكر فيما جرى، أصبح يحتقر عمله، ولا يشعر بالفخر به كالسابق. لقد دفعته مجريات الأحداث إلى بؤرة التأزم والقلق المفزع، من الإجراءات الإدارية غير المبررة، والسلوك الذي يناقض التحضر والمدنية، فهو يُحب بلده، ومستعد للقتال في الصف الأول للدفاع عنها وحمايتها، ولكنه مؤمن بضرورة الالتزام بأدبيات الحرب، ومقاتلة أعداء مكافئين لهم في القوة، فما يحصل الآن هي حرب أحادية الجانب، الجانب الإسرائيلي يملك السلاح وكافة الإمكانيات العسكرية الحديثة، ويوجهها لشعب أعزل، أطفال ونساء ورجال لا يملكون السلاح، يكره أن يكون طرفاً في الصراع، والقتل، والعنف الذي يمتد ولا يكاد ينتهي، لعلمه أن القيام بمثل هذه الإجراءات التعسفية، تجاه أهالي المقاتلين، هو بمثابة البذرة التي ستنبت مزيداً من المقاومين انتقاماً لعائلاتهم[2].

---

(1) الرواية السابقة، ص ٦٩

(2) الرواية السابقة، ص ٧٠

يدميه هذا الواقع الآخذ في الانحطاط، فمن الضروري أن يُنهي العرب واليهود الصراع، ويتعاملون مع بعضهم على أساس إنساني، بعيداً عن القتل والعنف(١). دفعته مجريات الأحداث إلى يأس من معايشة حياة الحرب، في علاقاتها المعقدة، والمتشابكة، التي فقدت القدرة على مد جسور التفاهم والتواصل بين الطرفين. فدوامة الفوضى والعنف المتبادل، هي السمة البارزة في العلاقة بينهما على مدار عقود.

وضعت الكاتبة الآثار النفسية التي خلفتها الحروب على الجنود تحت دائرة الضوء، حتى تُمكن القارئ من معرفة حجم المعاناة والألم الواقع عليهم بسببها. يصف "Neyri" لصديقه البروفسور – بعد اشتراكه في الاعتداء على لبنان – وحشية الحرب، فيقول: إنه لا يستطيع أبداً ذكر ما جرى لأي شخص حتى لأخيه الضابط ، لبشاعة مناظر الحرب وقسوتها، فلا توجد مفردات في القاموس الإنساني يمكن أن تصف ما يشعر به الجندي. ففي الحرب تشعر أنك معزول عن الإنسانية ولا تنتمي إليها، ترى الضحايا يُقتلون بلا ذنب، فغير مسموح لك أن تفكر بمشاعرك وعواطفك، تُدفن كل هذه المآسي ومظاهر الكبت والقهر في اللاشعور، وبعد انتهاء الحرب، يعود الجميع لحياتهم يتجاوزون مرحلة الحرب سريعاً ماعدا الجنود، فهم لا يستطيعون ممارسة حياتهم بطريقة طبيعية كالسابق(٢).

للصراعات تأثير على فكر الإنسان، وسلوكه، واتجاهاته، ورؤاه، فالأفراد لا يقفون منها موقفاً واحداً، وإنما تتعدد مواقفهم، وتختلف، وتتناقض. فبعد انكسار أحلام" Neyri " ويأسه من إمكانية إيجاد نقطة يمكن للطرفين التصالح عندها، أراد الخروج من دائرة العنف والفوضى، والانسحاب إلى الظل ليعيش حياة أرادها بديلاً لواقع الحياة المعيش، الذي لم يمنحه الأمن

(١) الرواية السابقة، ص ٧١

(٢) الرواية السابقة، ص ٧٤

والاستقرار، ولم يحدث في ظله العلاقات السوية والحياة الطبيعية، يريد أن يعيش بسلام لأنه يرفض هذا الواقع وما فيه من خلل، فعمد إلى تغييره، ببدائل أكثر أمناً، قادرة على أن تمنحه الشعور بكينونته، وإنسانيته، التي أنهكتها الحروب، فقرر ترك عمله و السفر لأمريكا لإكمال دراسته فيها[١].

التقى بالباحثة الأمريكية وتزوجا، وسافرا لأمريكا ليجري عمليه جراحية بعد أصابته في رأسه. ابتعد بجسده، ولكن روحه ظلت معلقة في فلسطين، وصل لأمريكا وأعجب بالحياة الهادئة هناك، كان الناس يستمتعون بالجلوس عند النهر، وقراءة الكتب، دون شعور بالخوف أو التهديد، حياة آمنة وطبيعية من حق كل إنسان أن يعيشها، أخذ يُقارن هذا بالحياة في تل أبيب، حيث الخوف والعنف وترقب الموت، والقسوة التي تتناقض وأمنيات النفس ورغباتها في حياة هانئة مطمئنة، تذكر وفاة جده وهو في السوق، عندما فجّر أحد المقاومين نفسه وسط الزحام، ليتساقط القتلى والجرحى، كلهم مدنيون، أطفال ونساء وكبار السن[٢].

الإسرائيليون- بحسب الضابط - استطاعوا التغلب على التحديات والتهديدات، التي واجهتهم منذ القدم، فهم محبون للحياة، يتناسون أحزانهم، يدفنون موتاهم، ويعلمون أنها ليست النهاية، فهم باقون ويحلمون بمستقبل أفضل، ولولا إيمانهم بهذه الفلسفة لقُضي عليهم وانتهوا منذ القدم[٣].

انتهت حياته عند اختطاف الإرهابيين الطائرة التي كانت تقله، وتوجههم بها إلى برج التجارة، ليفجروه في الحادي عشر من سبتمبر[٤]. أرادت الكاتبة القول إن العنف ليس مرتبطاً

---

(١) الرواية السابقة، ص ٤

(٢) الرواية السابقة، ص ١٧١

(٣) الرواية السابقة، ص ٢٢٤

(٤) الرواية السابقة، ص ٢٣٨

بالحرب في فلسطين، ومصدره ليس الإسرائيلي دائماً، فالإسرائيلي- الإنسان- عرضة للقتل والإرهاب كغيره .

حطت المعارك من كرامة الإنسان الإسرائيلي وقيمته على مختلف الصعد، لافتقارها للشرعية والموضوعية، فأورثته الأمراض النفسية التي أفقدته القدرة على التواصل مع مجتمعه بطريقة سوية، فشعوره بالذنب، واحتقار الذات، أدى لانسحابه من المجتمع و اغترابه عنه بأفكاره ومشاعره.

أدى ذلك إلى تزايد الاهتمام العالمي بنقل عذابات الجنود ومشاعرهم، التي يجلّلها الحزن، وتسيطر عليها الكآبة، وتشجيعهم على كشف ما قاموا به من أعمال، كوسيلة للتكفير، ومحاولة للتصالح مع الذات. فقد كشفت الكاتبة " Anna Baltzer" في كتابها Witness in Palestine، عن جمعية إسرائيلية تطلق على نفسها اسم "Breaking the Silence" كسر الصمت، يعترف فيها الجنود بالجرائم التي قاموا بها، وهي أوامر عسكرية من قيادتهم العليا ترفضها أنفسهم، من قتل، واختطاف، وتعذيب للمساجين؛ تشجع هذه الجمعية الجنود على الانضمام إليها في محاولة للضغط على القيادة الإسرائيلية لتكف عن ممارساتها اللا إنسانية، وكشف هذه التجاوزات للرأي العام، وتجييره ضدها(١).

تعمل هذه الكاتبة في منظمة (ISM) "International Solidarity Movement" التي تضم أعداداً كبيرة من المتطوعين الإسرائيليين والأجانب الذين يعملون معاً للدفاع عن حقوق الفلسطيني، وحمايته من بطش الجنود والمستوطنين. تساعد هذه المنظمة المزارعين الفلسطينيين الذين يُمنعون من دخول مزارعهم لقطف محاصيلهم، فقد أتى أكثر من خمسين متطوعاً أغلبهم

(١) Witness in Palestine by Anna Baltzer ,16

إسرائيليون لأرض "ثامر" لمساعدته في قطف المحصول وجمعه وحمايته من المستوطنين(١).

تمتلك الشخصيات في رواية AL Naqba خبرة سياسية، ورؤية خاصة للأحداث والصراع الدائر بين الطرفين، يتضح ذلك من حوار الشخصيات الإسرائيلية في أجزاء متفرقة من الرواية .

تطرح "Jacky" سؤالاً على صديقها البروفسور "Arnie" فتقول: ماذا لو لم تعد إسرائيل تتأثر بالعمليات الإرهابية الموجهة ضدها ولم تقم بالرد عليها ؟ ما الذي سيحصل؟ هل سيتغير هذا الوضع، وينتهي التصعيد بين الجانبين ؟

يقول "Arnie": سيرى العرب أن هذا دليل على ضعف إسرائيل، وعدم قدرتها على الدفاع عن نفسها، وحماية شعبها، مما سيغريهم بالتصعيد، وزيادة القتل والنهب بلا توقف. فهذا هو سبب تأهب القوات الدفاعية الإسرائيلية، واستعدادها لحماية إسرائيل من أي اعتداء، والرد عليه مباشرة(٢).

يظن البعض – بحسب Arnie – أن إسرائيل لو غيرت من سياستها تجاه العرب، وأعطتهم حقوقهم وحرياتهم سيتوقف العنف بين الطرفين ! ، لكنه يرى أن الصراع في المنطقة اتخذ شكلاً مغايراً لأي صراع في أي مكان آخر من العالم، فقد أدمن الجانبان العنف والقتل، واعتيادهم عليه كان ربما لإبعاد الملل عن حياتهم اليومية أو لإعطائها معنى مغايراً !

فقد تكون الحرب هي القادرة على إعطاء الإسرائيليين الشعور بأن لهم هدفاً نبيلاً يسعون لتحقيقه في حياتهم، وجنوداً مستعدين للموت في سبيل الوطن، فيزيد ذلك من اعتزازهم بها. لكن حقيقة الحرب ليست كذلك عند الجنود، ولا أحد يعرف حقيقتها إلا هم، ففي أرض المعركة

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٠

(٢) AL Naqba ,Barbara Goldscheider,144

يتخلى الجندي عن إنسانيته، تضعه الحرب في مواقف مذلة في كل الأحوال، فهو إما قاتل أو مقتول، وبعد انتهاء هذه الحرب، يصبح الجنود الناجون من الموت هم أكثر ضحايا المعارك. لذلك فإن حكوماتهم تعمل بكل جهدها لتجعل العدو يحمل صورة شيطانية، حتى يتمكن الجندي من القتال دون شعور بالذنب [١].

حمل البروفسور"Arnie" شخصية متسامحة، و منفتحة على الآخر الفلسطيني، وظفته الكاتبة لتبين من خلاله عدم جدوى بحث الإسرائيلي عن السلام مع الفلسطيني، لأن السلام لا يمكن تحقيقه من جانب واحد، فقد قُتل "Arnie " في آخر الرواية على يد صديقه الفلسطيني عيسى، الذي بدا ناقماً على المجتمع الإسرائيلي كله بلا تفريق أو تمييز بين جندي ومستوطن.

تحاول الشخصية الإسرائيلية استقراء الأحداث، والتنبؤ بالمستقبل، في ظل ظروف الحرب الضبابية المحيطة بها، يرى "Omri" أن العنف بين الطرفين في تزايد، ولا يلوح في الأفق أي آمال بالتصالح، لقد أعادت الانتفاضة الحياة إلى الجحيم مرة أخرى، فالعرب لا يعترفون بحق إسرائيل في العيش في فلسطين حتى لو أعيدت لهم أراضي ١٩٦٧م، فهم سيطالبون بفتح ملف ١٩٤٨م. غايتهم الحقيقية ليست التصالح مع إسرائيل، بل إخراجها من كل فلسطين، واسترجاع كل الأراضي الفلسطينية، فالعداء بين الطرفين غير مرتبط بوجود دولة إسرائيل- بحسب Omri - بل يعود إلى ١٨٨٢م، عند بداية قدوم اليهود من أوروبا إلى فلسطين للعيش فيها، وتعرضهم للقتل والطرد والإرهاب على يد الفلسطينيين الرافضين لوجودهم فيها[٢].

فرضت قيود الذل على الفلسطيني حياة سُلب منها مفهوم الحرية وبُدد، فالجندي لا يتوانى عن اعتقال الفلسطيني، مهما كانت مكانته العلمية، لمجرد الاشتباه به، فمعاملته واحدة لكل

---

[١] الرواية السابقة، ص ١٤٥

[٢] الرواية السابقة، ص١٦٦

الفلسطينيين. أوقف الجنود عيسى، وهو عائد من منزل صديقه الإسرائيلي ليلاً، طلب أحدهم منه إبراز هويته، بينما أخذ الآخر يطرح عليه الأسئلة. تطابق اسمه مع اسم أحد المقاومين في حماس، فأخبرهم أنه أخوه، فاعتقل، تعرض للتحقيق، والتعذيب بالماء البارد والحار، والوقوف على قدم واحدة لساعات طويلة، دون تناول شيء من الماء أو الطعام، في محاولة للضغط عليه ليخبرهم عن عنوان أخيه في غزة، أربعة أيام متواصلة من التحقيق والتعذيب، انتهت بالإفراج عنه بعد التأكد من أنه ليس له علاقة بأخيه المطلوب[١]. كان وصف الكاتبة لهذا المشهد فيه نوع من التعاطف مع عيسى، ولكنها جعلت القارئ يؤمن بضرورة ما يقوم به الجنود من بحث وتحري عن المطلوبين الفلسطينيين، الذين يخططون لتنفيذ عمليات انتقامية ضد الإسرائيليين.

تحاول الكاتبة تفسير ما يقوم به الجنود من أعمال، هي من وجه نظر الفلسطينيين غير مفهومة، وغير مبررة، مثل التوقيف عند نقاط التفتيش. ففي أغلب الروايات يأتي وصف الحدث من الجانب الفلسطيني ولا يترك للجانب الإسرائيلي المجال لتبرير فعله. اتجه عيسى وزوجته المريضة إلى المستشفى لتضع مولودها، ولكنه تفاجأ بتوقف السيارات عند نقطة التفتيش، لم يستطع الانتظار فالألم يزيد على زوجته، نزل من سيارته، وذهب للضابط ليشرح له وضع زوجته الصحي، وأن الأطباء أخبروه أنها لن تُنجب مولودها إلا بعملية جراحية، لكن الضابط أخبره أن سبب هذا التفتيش هو تفجير قام به أحد المقاومين في تل أبيب، وأن الأجهزة الأمنية كلها في حالة استنفار، ولن يُسمح لأي سيارة بالعبور حتى يستتب الأمن من جديد، وينقل الضحايا للمستشفى. فإذا كان معك حالة طارئة واحدة، فهناك عشرات الحالات في مكان التفجير

[١] الرواية السابقة، ص٤٧

تنتظر الإنقاذ، أخذ عيسى زوجته لمستشفى آخر غير مُجهز لمثل هذه العمليات، توفيت الزوجة والطفل معاً بسبب تأخر إسعافهما (١).

قد يكون هذا المشهد صحيحاً، وقد يكون للجنود ما يبرر إيقافهم السيارات عند نقطة التفتيش بعد الانفجار، لكن هناك مئات القصص الأخرى التي تعكس عبثية الجنود واستهتارهم بآلام الأطفال والشيوخ، واعتراضهم للفلسطيني في حياته اليومية، لشلّ حريته وتقييدها .

أما في رواية Destined to Die by Victor Sasson يصور لنا الكاتب "توحد المحتل بالجلاد النازي" في صورته المتناقضة، التي تعكس مدى هوسه بتعذيب المساجين والتنكيل بهم، للنيل من أجسادهم وكرامتهم في الوقت نفسه.

مرّ نبيل بسلسلة من التجارب القاسية على يد الجنود، فتعرض للسجن والضرب والإهانة، والمنع من الطعام والشراب والجلوس لساعات طويلة، ثم الحبس في سجن انفرادي إمعاناً في إذلاله. تعذيب جسدي ونفسي يُراد به اغتيال لشخصيته، أرادوه أن يوقع على اعتراف بالتهم الموجهة إليه، التي لم يقترف أيّاً منها، لكنه رفض، فكانت النتيجة، أن أودعوا والده أيضا في السجن، على الرغم من كبر سنه، ومرضه، فهو يُستخدم وسيلةً للضغط النفسي عليه(٢).

أتاحت لنا الرواية التعرف عن كثب، كيف تفكر هذه الشخصية، وكيف تبني منطقها بالمغالطة، والالتفاف على حقوق الآخرين، وكيف تبرر لنفسها جرائمها، والتي ستفقدها تماسكها، وتفجر فيها موجات القلق والرعب، إن هي توقفت عنها. فالضابط القوي المستبد في السجن، يتحول لشخص آخر عند عودته لمنزله، فنرى "Majo Rosenberg" يُعاني صراعاً نفسياً ورؤية متناقضة، يعود بذاكرته إلى طفولته التي قضاها في أوروبا، ويتذكر كيفية دخول الجنود

(١) الرواية السابقة، ص ١٨٤

(٢) Destined to Die by Victor Sasson,p 104

النازيين عليهم في منزلهم، واقتياده هو وعائلته، إلى ساحة كبيرة مليئة باليهود، لم يقترفوا أي ذنب، سوى أنهم يهود!

قاموا بتقسيمهم إلى مجموعات، قسم يُطلق عليه النار، وقسم يُحرق، وقسم يُسجن، وقسم يعمل في المصانع و المزارع .أُرسل والده للقتل، بينما أُرسل هو للعمل في أحد المصانع، طلبوا منه العمل على نزع ملابس قتلى اليهود، حتى يتم إعطاؤها للمساجين، ثم رميهم في أفران كبيرة، لتحرق أجسادهم، لكنه رفض ذلك، وبسبب رفضه، تم التحقيق معه، وضربه وأهانته تماماً كما يفعل هو مع المساجين الفلسطينيين [١].

هذه مفارقة عجيبة في شخصية الجندي الإسرائيلي، فالذكريات المؤلمة، وما لقيه من اضطهاد وعنف على يد النازيين لم يجعله يتورع عن إهانة المساجين الفلسطينيين وظلمهم، بل جعلته أشد تعسفاً وأشد إجراماً؛ ونقلته من دور الضحية إلى دور الجلاد. فقد كان يستخدم عبارات المحقق الألماني مع الفلسطينيين، يرددها حتى لا ينساها، فكأنه بذلك يسترد كرامته وكرامة اليهود، عن طريق تعذيب الفلسطينيين والانتقام منهم، فهو الآن لديه دولة، وأصبح قوياً، يريد الحفاظ على ذلك حتى لا ينهار الحلم، حلم أرض الميعاد والأمان في فلسطين[٢].

عمدت الرواية العربية إلى قراءة الواقع، الذي كان للمحتل حضور وتأثير مباشر فيه على كافة نواحي حياة الفلسطيني. فكيف ينظر الأدباء العرب اليوم لليهود؟ وهل وصل العرب بعد كل هذه الحروب الطويلة مع الآخر الإسرائيلي إلى معرفة به، وبأفكاره ومعتقداته ؟ وما مدى تشابه الصورة المرسومة للمحتل في مخيلة العربي وتقاطعها مع الأدب العالمي الغربي ؟

---

[١] الرواية السابقة، ص ١٢٤

[٢] الرواية السابقة، ص ٢٥

اقتربت صورة المحتل، في الروايات العربية، من النمطية السائدة -عن اليهودي- في الآداب العالمية، لكونه سيّئ الطباع، متعالياً، تقوده أطماعه المادية إلى نسف المعايير الإنسانية وتجاهلها. وهي صورة مرتبطة عند الفلسطيني بالمعاناة، والألم، وافتقاد الأهل أسراً خلف القضبان، أو نفياً خارج الوطن، أو شهادة. المحتل الإسرائيلي ما هو إلا وجه آخر للموت، عند إبراهيم نصر الله في روايته "أعراس آمنة"؛ فهو لا يحل في مكان إلا ويخلف وراءه القتل، والدمار، والموت.

تتذكر آمنة عند زواجها "أنهم قالوا لها: عرس كعرسك لا يمكن أن يتم، مادام العريس في منطقة والعروس في منطقة وبينهما كل هذه القوات والحواجز[١]"، لم تصدق ذلك، فهي رأت بأم عينيها أكثر من عروس تعبر الحواجز، والجنود ينظرون، لبست ثوبها الأبيض، أعادوها، "وقال لها الجندي: أعراس ما في، أعراس ممنوع، فقلت لهم: وما هو المسموح به هنا ؟ حتى الجنازات تمنعونها هنا حين يكون بإمكانكم ذلك، لا تريدوننا أن نُزف لا في أعراسنا ولا في جنائزنا ؟[٢]". يضع الجندي بصمته في حياة الفلسطيني اليومية ليزيد من معاناته، وليحيل حياته إلى جحيم لا يُطاق، وليذكره بوجوده وقدرته على فرض سيطرته عليه.

عندها قرر جمال أنه هو الذي سيأتي لعروسه، ولكنها خافت عليه، قالت سيقتلونك، كما قتلوا ابن أم محمد، التي استقبلت الكل بدموعها، وزغاريدها، وغنائها، فولدها العريس، سيزف لقبره بدلاً من عروسه. لا تريد آمنة أن تتكرر المأساة، فينقلب الفرح إلى مأتم، لكنهم طمأنوها وقالوا: سيأتي في سيارة إسعاف، انتظرت وانتظرت، وخوفها يزيد، فحتى سيارات الإسعاف تُفتش، ويُطلق عليها النار. وبعد الانتظار، أخبروها أنه في المستشفى، ويريدك كما أنت،

---

[١] الرواية السابقة، ص ٤٤

[٢] انظر: أعراس آمنة، إبراهيم نصر الله، ص ٤٤

بفستانك الأبيض، احتضنته بأبيضها، الذي تلون بلون الدم، فابتسم، و حكى لها ما جرى، "قلت لي ألهمتك فكرة، دخلت إلى داخل نعش، وحملوك في سيارة الإسعاف، وعند التفتيش أراد الجنود تفتيشك، ولكنهم رفضوا، فأخذ الجندي حربته فغرسها من بين شقوق النعش إلى أن استقرت في جسدك، ثم نزعها، وغرزها مرة أخرى، ليتأكد أن من في النعش هو ميت فعلاً، ثم نزل عن النعش، وتحركت سيارة الإسعاف للمستشفى، بدلاً من مكان الاحتفال[١]".

يحاول الجندي استفزاز مشاعر الفلسطيني، يشعره ذلك بالسيادة، ويعوض ما لديه من نقص، فالعنف هو المعادل النفسي له، فبقدر ما يقتل ويحرق ويسفك الدماء، يزداد شعوره بالقوة، والقدرة على فرض السيطرة. فهو مشحون بفكرة التدمير والقهر، ولا يمل من مرأى الدماء، وقتل الأبرياء.

يوزع المحتل الإسرائيلي الموت المجاني على الفلسطينيين، فهو لا يحتاج لسبب أو مناسبة، ليبرر حفظ الكيان الصهيوني من شعب أعزل، لا يملك السلاح، فكأن وجود الفلسطيني بحد ذاته إرهاب، لابد من التخلص منه، حتى يشعر بالأمان. تقول آمنة: "لقد أطلق المستوطنون النار على مصطفى أخي: لأن السيارة التي كان فيها تحاول تجاوز سيارتهم ! أهذا سبب كافٍ كي يموت الإنسان هنا[٢]".

"يظهر المحتل هنا بهذه الصورة المروعة، صورة الآخر المحب للقتل، المتسلح بطاقة ترويع، وترهيب عالية، يقتل بسبب ومن دون سبب، انطلاقاً من الفكرة التي تلبّسته، في الإزاحة، والإزالة، والقهر، والتدمير، بوصفها الوسيلة الوحيدة للدفاع عن الأنموذج، تقول الأم وهي تحاول فض المشاحنة الدائرة بين الأخوة: مش عارفة على أيش بتتقاتلوا، ما هو، إذا كنت

---

(١) انظر: الرواية السابقة، ص ٤٦

(٢) الرواية السابقة، ص ٧٠

مع حماس إسرائيل بتقتلك، وإذا كنت مع الجهاد إسرائيل بتقتلك، وإذا كنت مع المقاومة إسرائيل بتقتلك، وإذا كنت مع أبو عمار إسرائيل بتقتلك، وإذا كنت ضد إسرائيل بتقتلك، وإذا كنت بتفتح الشباك على شان تشوف شو صاير، بيجي قناص ويقتلك، وإذا كنت ماشي في الشارع أو نايم في بيتك وبس في حالك، بيجي صاروخ من السما وبيقتلك ، وعلى إيش أنتو بتتقاتلوا والله ما آني فاهمة[١].

صورة المحتل في الرواية العربية ما هي إلا انعكاس للواقع المعيش، واقع الظلم والاستبداد وعدم تكافؤ القوى. تعددت صور المحتل في رواية" ربيع حار لسحر خليفة"، فهو الجندي القاتل، الذي يرسل النار من السماء للأجساد، ليحرقها، ويمزقها تمزيقاً يصعب معه معرفة هوية القتلى، كما حدث مع ابن غزة، الذي أصابه صاروخ فمزقه[٢].

وهو الجندي الضعيف، المغلوب على أمره، يخوض حرباً ترفضها نفسه الإنسانية، هذا الجندي اعترض سيارة سعاد والجدة وأحمد مع الضابط المسؤول، أنزل الضابط أحمد من السيارة، وانهال عليه ضرباً بكعب سلاحه، حتى ارتمى على طرف الرصيف، صاحت الجدة "حرام عليك"، ونزلت سعاد من السيارة، وبحركة سريعة قفز إليها الجندي الصغير وبيده السلاح وصاح بها: وقف، وقف، وقفت في الحال ونظرت إليه، ونظر إليها، وظل شاهراً سلاحه لا يتحرك، أرادت أن تقول له، وتحكي معه، لكنه بهذا السلاح، وبهذا اللباس، وطاقية حديد، ودبابة كان غريباً، لكنه رغم السلاح ليس مخيفاً، ورغم الكوابيس، ورغم جهنم، أحست بارتباكه وصغر سنّه، وجهه ناعم كالبنات، قليل الخبرة. أما هي فمرت بذاكرتها كلّ المشاهد منذ أن كانت

---

[١] انظر: الكون الروائي "قراءة في الملحمة الروائية لإبراهيم نصر الله"، لمحمد صابر عبيد وسوسن البياتي، ص٤٧

[٢] انظر: ربيع حار، سحر خليفة، ص ٢٦٠

طفلة، وقوف الحواجز والطوابير، اقتحام الحرم الجامعي، واعتقال الشباب، واعتقال والدها منذ أكثر من ربع قرن، وكانت ما تزال طفلة، وعاشت بلا والد كالأيتام[١].

فجأة انطلقت الرشاشات، من كل اتجاه، فاستلقى الجنديان على الأرض، وبدأت المجنزرة تضرب وتستدير لكلّ الجهات، شرقاً وغرباً، ونحو الأشجار، وصخور الجبل، والمرتفعات، والطريق المنحدرة إلى نابلس، ارتمى أحمد بين البراميل ليحمي أخاه المخبأ فيها، أحس بيد تمتدّ إليه، وتشدّه وتسحبه بعيداً عن أخيه، التفت للخلف فرأى الجندي بالطاقية، طاقية حديد، يشده للخلف ويرمي به على الأرض بجانب الجندي الآخر الصغير، التفت أحمد إلى الجندي الصغير فرآه يبكي، وكانت الدموع في عينيه وعلى وجهه وحتى ذقنه، رآه مكوراً على الأرض مثل كلب جريح، كانت لمحة، لمحة واحدة، لقطة سريعة، صورة مكبرة بالأنوار، أنوار البرق والرعود والشظايا والرصاص، ألقاه فوقه فالتحما وأحس بجسده يتشنّج من البكاء، أية مأساة، بل مهزلة! قبل لحظات كان فوق أخيه وها هو الآن فوق هذا. وجد الاثنان نفسيهما في وضع غريب، الواحد منهما يشدّ بالآخر بشكل محموم متشنّج ويبكيان بلا تحفظ، فكلاهما ينتظر الموت وسط هذا الجو العاصف بالرصاص. رفعه الكبير ورفع صديقه عيسى، دفعهما أمامه فباتا درعين بشريين للجنديين. وخلال لحظات كانا مقيدين على واجهة المجنزرة في وضع صليب، والمجنزرة تسير بهما في الطريق المريب بين الزيتون، وتلاحق أشكالاً في العتمة ، تقفز في الليل كما الأشباح [٢].

---

[١] الرواية السابقة، ص ١٨٠

[٢] الرواية السابقة، ص ١٨٧

الفصل الثالث: تقنيات فنية أم مرايا كاذبة:

المبحث الأول: عناصر الرواية

المبحث الثاني: تقنيات سردية

المبحث الأول :

عناصر الرواية

تأثرت الرواية العربية في بدايتها بالرواية الفرنسية، واقتفت أثرها، ثم ما لبثت أن بنت صرحها الروائي الخاص بها، على أسس فنية قادرة على مواكبة الأدب العالمي، والتأثير فيه، فترجمت العديد من الروايات العربية إلى اللغات العالمية الأخرى.

سارت عمليات التأثر والتأثير، بين الروايات العربية والإنجليزية، في ديناميةِ مستمرة، فأضافت للرواية تقنيات فنية مبتكرة، طورت الرواية، وأكسبتها روح التجديد، ومواكبة المتغيرات، و تمكنت من خلق الانسجام – الذي تحتاجه الكتابة السردية– بين مختلف العناصر الفنية المكونة للنص.

لقد أسهمت التقنيات الفنية في الروايات– محل الدراسة– في تشكيل عالم روائي متخيل، يُماثل العالم الواقعي، ويعكس مفارقاته وتناقضاته. فكان لها الدور في إبعاد المادة الروائية عن المباشرة المملة، باستحداث أساليب أكثر فاعلية، تخاطب عقل القارئ، ووجدانه، وتدفعه نحو متاهات الفكر المتشعبة، وتوصّل الرسائل المبطنة، التي حركت المبدع وألحت عليه عند كتابته للرواية .

الشخصية : Character

عند الحديث عن الشخصية يتبادر للذهن السؤال التالي، هل تمكّن الروائيون من خلق شخصيات قادرة على تمثيل الواقع الاجتماعي بما فيه من مأساوية وحزن بعيداً عن البكائية المباشرة؟ وهل تمكنوا من رصد الأبعاد الإنسانية المتفاوتة في شخصياتهم، وكشف انعكاسات الحرب عليها؟

أخذت الشخصيات في الروايات، محل الدراسة، من شرائح اجتماعية متباينة، لتعكس المعاناة التي يعيشها "الإنسان"، في ظل الحروب والعنف المتواصل في الأرض المقدسة "فلسطين". فكان الألم والحزن والمعاناة هو القاسم المشترك بينها، على اختلاف مستوياتها الاجتماعية والثقافية والدينية.

للشخصية أهميتها في الحكاية، فهي المحرك الأساسي للأحداث، لذلك كانت من أهم عناصر البناء الفني، في الخطاب السردي، "فهي مدار المعاني الإنسانية، ومحور الأفكار والآراء العامة. فالأفكار والقضايا العامة لا تُساق منفصلة عن محيطها الحيوي، بل ممثلة في الأشخاص الذين يعيشون في مجتمع ما [١]".

يصل القارئ إلى معرفة بالشخصية الروائية، عن طريق تعريف الراوي بها، أو من خلال ما تخبر به هي عن نفسها، أو من خلال مواقفها تجاه القضايا المطروحة في الرواية. فاختلفت بذلك طرق تقديمها للقارئ بين شكل مباشر، وآخر غير مباشر." فعندما يعرفنا الكاتب منذ البداية بشخصياته الرئيسية، يسمى ذلك "Direct Exposition" العرض المباشر، لكنه عندما يبدأ عمله السردي بالأحداث، في تطورها المتنامي، ولا يخبرنا عن الشخصيات، إلا من خلال التطور، فنحن هنا أمام العرض المؤجل "Deferred Exposition[٢]".

تقدم الروايات –بصفة عامة– أحداثاً مأخوذة من المجتمع الذي تعيش فيه، و تحاكي شخصياتها، الشخصيات التي نراها بيننا، لكنّ ثمة فرقاً بين الشخصيات في الحياة العادية، والشخصيات الروائية." فالشخصية في الحياة العادية تعيش معنا، ولكننا لا نطلع على أفكارها

---

[١] النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ص ٥٢٦

[٢] انظر: تحليل الخطاب الروائي (الزمن – السرد – التبئير)، سعيد يقطين ،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٥، ص ٧٠

وهمومها، ولا نتمكن من فهمها بالكامل، بخلاف الشخصية القصصية، التي يُطلعنا عليها الراوي، ويُعرفنا على كافة تفاصيل حياتها وأفكارها وأسرارها الخفية[١]".

لكل رواية شخصيتها أو شخصياتها الرئيسية، التي يوليها الكاتب مزيداً من العناية والاهتمام، ويهتم بنقل أقوالها، وأفعالها، وصفاتها، التي جعلت منها أسطورة، ومثالاً خارقاً في المقاومة، كأم سعد، المرأة الواعية بالقضية، على الرغم من بساطة إمكانياتها، وصعوبة ظروفها. عرفنا بها الراوي في بداية الرواية بقوله: "أم سعد امرأة حقيقية، أعرفها جيداً، وما زلت أراها دائماً، وأحادثها، وأتعلم منها، وتربطني بها قرابة ما، ومع ذلك فلم يكن هذا بالضبط، ما جعلها مدرسة يومية، فالقرابة التي تربطني بها واهية، إذا ما هي قيست بالقرابة، التي تربطها إلى تلك الطبقة الباسلة المسحوقة، والفقيرة، والمرمية في مخيمات البؤس[٢] ".

أراد كنفاني من استحضاره لنموذج أم سعد، أن يعطي القارئ صورة مركزة و مكثفة، عن "الإنسان" القابع في المخيمات المنسية. فهو يُكابد ألواناً من المشقة والعناء، لم تبعثر رياح الغربة آماله، بل علمته فلسفة جديدة للمقاومة، جعلته يبدو أقوى من أي تحدٍ يصادفه. فجاء رصده للصراعات التي عاشتها أم سعد، بلغة بسيطة – متوافقة مع شخصيتها– قدمت المعاني العميقة، وترجمت الأفكار الجانحة، المؤمنة بحتمية الرجوع للوطن.

فهي إذاً امرأة فقيرة، تعيش في مخيم للاجئين خارج فلسطين، ربما في لبنان. " دخلت أم سعد، ففوحت في الغرفة رائحة الريف [٣]". يواصل السارد تعريف القارئ بشخصيته الرئيسية، وملامحها الخارجية والداخلية. " إنها سيدة في الأربعين، كما يبدو لي، قوية كما لا يستطيع الصخر، صبورة كما لا يطيق الصبر، تعيش عمرها عشر مرات من التعب والعمل كي

---

[١] Aspects of The Novel, E M. Forster, Harcourt,Inc,1927,p 48

[٢] أم سعد، غسان كنفاني، ص ١٣

[٣] الرواية السابقة، ص ١٦

تنتزع لقمتها النظيفة، ولقم أولادها [١]". حاول أن يصور أبعادها النفسية، والجسمانية، تاركاً المجال للقارئ، لكي يتأمل في المتناقضات التي حملتها "أم سعد"، القوة والضعف، الخوف والشجاعة.

ربت أم سعد أولادها على المقاومة، فعلاً لا كلاماً، فكانت تبدو قوية، وهي تفخر بابنها المقاوم "سعد" ."قلت للمرأة التي جلست إلى جانبي في الباص، إن ولدي أضحى مقاتلاً [٢]". فهي كامرأة ثورية، كانت تدفع بهم إلى ساحة المعركة، ولكنها كأم، كان يأسرها الخوف والقلق.

فهذه ليست ازدواجية في شخصيتها، بل أراد الكاتب من ذكره تضارب مشاعرها، أن يبين أن كفة الوطن، هي الراجحة دائماً، فالأم لا تُضحي بأولادها، إلا في سبيل وطنها، وكرامتها، وكرامة شعبها. فجاء رصده للحالات النفسية، التي تمر بها أم المقاتل دقيقاً، فهي تودعه "بالزغاريد" ولكن قلبها يبكي حزناً وألماً على فراقه، وتظل مشغولة البال، تفكر فيه، وتتمنى أن تكون إلى جواره لتحميه. فهي لا تزال ترى "سعد" ذلك الطفل الصغير، الذي يحتاج لرعايتها، وحنانها، أرادت زيارته في أرض المعركة، لتأخذ إليه الطعام، ولتطمئن عليه، فقال لها الراوي، لا ضرورة لأن تزوره هناك، فهو رجل، وحتماً سيتصرف كالرجال، انتابتها الحيرة، وأنهكها التمزق فقالت: " أم تراك تستطيع أنت أن توصي رئيسه به؟ تقول له: دير بالك على سعد؛ الله يخليلك ولادك[٣]".

شخصية معذبة، ومقهورة، تمثل الطبقة المسحوقة، في مخيمات البؤس، هذه هي أم سعد، فعلى الرغم من سوداوية عالمها، وقلة إمكانياتها، تأمل بالرجوع والعودة لوطنها. رصدت الأحداث تنقلها بين مشاعر الغضب، والحزن، والخوف، والرفض الكسيح، وعدم تحمل فكرة

---

(١) الرواية السابقة، ص ٢٥

(٢) الرواية السابقة، ص ٢٧

(٣) الرواية السابقة، ص ٢٩

الموت خارج أرض الوطن ."أنا لا أبكي يا بن عمي، أود لو أستطيع، لقد بكينا أكثر مما طافت المياه في المخيم ليلة أمس، ماذا أقول يا بن عمي؟ في الليل أحسست بأنني قريبة من النهاية ...ما النفع؟ أريد أن أعيش حتى أراها، لا أريد أن أموت هنا في الوحل ووسخ المطابخ [١]".

تعددت الرموز التي دلت عليها أم سعد في الرواية، فهي رمز الإرادة والتحمل، والصوت المذكر بالقضية عبر الأجيال المتعاقبة، ممثلة بولديها سعد الذي توجه للقتال، وسعيد الذي بدأ التدريب في المخيم. و رمز للقوة التي تأبى أن تنحني لتفادي التيار، فهي إن ركعت ضاع الوطن، وأضحى الجيل اللاحق كله في مهب الريح. وهي الأم والمرأة المثالية في تفانيها وقدرتها على الإنتاج والمقاومة.

ابتدأت الكاتبة "Elizabeth Laird" روايتها A Little Piece of Ground بعرض مباشر لشخصية بطلها "كريم"، فأطلعتنا منذ الصفحة الأولى على أمنياته، وأحلامه، وعلى أكثر ما يقلق راحته، ويهدد أمنه، وهو الحصار[٢]. رسمت الكاتبة شخصية "كريم" بحرفية عالية، وجعلته أحد أهم أطراف النزاع، بل محوره الأساسي، الذي تدور كل الأحداث حوله. فجاءت شخصيته بنائية متطورة، بحيث تغيرت أفكاره و مفاهيمه، وبالتالي تغير دوره، من مجرد طفل يبحث عن ألعابه، إلى مسئول، يستشعر واجبه تجاه أرضه، ويرفض التخلي عنها.

إن صراع كريم من أجل حريته، يعد من أشد أنواع الصراع، الذي ركزت عليه الرواية، إذ تضيق دائرته، حتى ينحصر داخل حدود ذاته، يجول في عوالمها المعقدة، والوعرة، فينتج عنه تأرجح بين رغباتها ومخاوفها. فكلمة حصار تعني عنده الحرمان، من اللعب ومن المدرسة

---

(١) الرواية السابقة، ص ٣٣

(٢) A Little Piece of Ground by Elizabeth Laird, 7

ومن الحياة، فكأنه حكم بالموت، يحاول الهرب منه دائماً، دون جدوى، معرضاً حياته للخطر في سبيل الحياة، التي يتمنى أن يعيشها كباقي أطفال العالم.

استثمرت الكاتبة معطيات شخصية "كريم"، لكونه طفلاً، لم يعش تفاصيل الحرب القديمة، وإنما نشأ على نتائجها، وواقعها المؤلم، في إبراز حالة الضياع والحيرة، التي عاشها الجيل الجديد. فعند استيلاء المستوطنين على أرض جده، وطردهم له، ولأفراد عائلته، وتصويب السلاح عليهم، اعترى كريم الغضب، ليس فقط من اليهود، بل من عائلته أيضاً، الذين خرجوا من الأرض، التي يصفها الجد بأنها أرض ورثها عن أجداده، ويملك وثائق تثبت ملكيته لها، دون أدنى مقاومة. فأدى ذلك إلى اختلال في فهمه للقضية، وأصبح مشوش الذهن، غارقاً في الحزن.

بسّطت الكاتبة مفهوم القضية، بما يتناسب مع شخصيتها الرئيسية "الطفل كريم"، مبتعدةً بذلك عن المعاني الوجودية الصعبة، التي لا يستوعبها عقله الصغير. عندما ربطت بين استيلاء الجنود على قطعة الأرض "الملعب"، وبين استيلائهم على أرض "فلسطين". فكان إحساسه عند استيلاء الجنود على مكان لعبهم، هو إحساس طفل يرى أن ألعابه وأشياءه تسرق منه، ويستمتع بها طفل آخر، وهو لا يستطيع فعل شيء.

تمازجت في كريم مشاعر الخوف، والغضب، والتمرد، مكونة شخصية مضطربة، تبحث عن حريتها، ولو بالمسمى. فحين احتجازه في قطعة الأرض "الملعب السري" كانت قطته تخرج باحثة عن طعامها، غير آبهة بالجنود وأسلحتهم ودباباتهم، تغيب عنه طوال اليوم، ثم تعود في

الليل، لتطعم صغارها، وتنام معه داخل السيارة، أطلق عليها اسم "حرية"، فدل ذلك على وعيه الجديد بالقضية، وعلى فهمه لمعنى مصادرة الجنود للحريات، والحقوق، بقوة السلاح [١].

اتفقت شخصيتا " أم سعد وكريم " في الدور الملقى عليهما، في بناء الرواية، وفي طرق عرضهما للأحداث، والمشاركة فيها، على الرغم من الاختلاف البين بينهما. "فقد تتغير الشخصيات من حكاية لأخرى، بينما الوظائف التي تقوم بها تبقى ثابتة في جميع الحكايات[٢]". ومن هنا يمكن أن نقول إن الروايتين قد اشتركتا عند تصويرهما للبطل الرئيسي في عدة محاور:

أولاً: ظروف حياة الشخصية، ووضعها الاجتماعي والثقافي. فقد أشار السارد في "رواية أم سعد" إلى فقرها، وإلى سوء أوضاع المخيم الذي كانت تسكنه، وإلى عملها كخادمة في البيوت، حتى تنتزع لقمتها النظيفة بيدها، ولا تنتظر المعونة من أحد. فدل ذلك على ارتفاع معيار كرامتها التي تأبى الذل. "فرشت راحتيها أمامي، كانت الجروح تمتد فوق خشونتهما أنهراً حمراء جافة... قلت لها لا عليك إنها جروح بسيطة. قالت: هذه، طبعاً، ستمحوها الأيام، سيملؤها غبار التعب، سيتراكم فوقها صدأ الأواني التي أغسلها، وستغتسل طوال النهار بالعرق الساخن الذي أعجن فيه خبز أولادي...[٣]".

بينما عرضت الكاتبة Elizabeth Laird في رواية A Little Piece of Ground لوضع كريم الاجتماعي، فهو من أسرة متوسطة، يملك والده محلاً تجارياً، بينما تعمل والدته في الجامعة[٤]. كان يدرس في إحدى مدارس رام الله، ويسكن في حي راقٍ. لم يكن يُعاني الفقر

---

[١] الرواية السابقة، ص ١٧٠

[٢] مكونات الخطاب السردي مفاهيم نظرية، للشريف حبيلة، عالم الكتب الحديث، ٢٠١٠م، ص٧

[٣] أم سعد، غسان كنفاني، ص ٤٧

[٤] A Little Piece of Ground by Elizabeth Laird,34

والتشرد، لكنه كان يخاف من استيلاء الجنود على منزله، كما فعلوا مع صديقه سامي، وينتقل للعيش في مخيمات اللاجئين، فيذوق بذلك مرارة الفقر والحاجة.

ثانياً: تركيز الروايتين على التحديات اليومية التي اعترضت الشخصيات، فأدت إلى مرورها بمراحل من اليأس والحزن، الذي يتحول لفرح وتفاؤل وتمسك بالأرض، مع تطور الأحداث.

كانت حياة كريم بمثابة مغامرات، ومواجهات يومية مع الجنود، كشفت عن مشاركته في النضال- بألعابه- من أجل فلسطين، وتمكنه بعد مروره بتجارب أليمة، من رؤية القضية بوضوح، وفهم أبعادها، واستشعار أهمية المقاومة، وضرورة التمسك بالأرض، والسعي لتحقيق الحلم مهما كان صعباً.

تحديات أم سعد جسيمة، جعلتها تتنصل من مشاعرها الغريزية كأم، وتقاومها أولاً، قبل مقاومة المحتل. رصد الكاتب مشاعرها، وهي تأخذ شكل رسم بياني، علواً، وهبوطاً، مرتبطةً بتقدم سعد للقتال، وعودته منه. فترتفع معنوياتها في كل مرة يذهب فيها إلى فلسطين، للمشاركة في قتال العدو. يصف كنفاني ذلك الشعور بلغة معبرة فيقول :"أخذت لبرهة تفكر بسعد، وأحسته في جسدها، كما كان يوم أن ولد، يرجها بمشاعر لا تستطيع أن تعرف طبيعتها، يملؤها بنوع مذهل من الثقة بالمستقبل ومن الأمل فيه. في مكان ما، قالت لنفسها، يقف سعد الآن تحت سقف من الدخان، ثابت الساقين كما كان دائماً، كأنه شجرة، كأنه صخرة، يقبض بسلاحه ثمن ذلك الدخان كله[١]".

ثالثاً: لقد تميزت الروايتان بواقعيتهما الاجتماعية، لتمثيلهما صوت الشعب البسيط العادي، الذي زاد وعيه بعدوه، لاحتكاكه اليومي به.

---

[١] أم سعد، غسان كنفاني، ص ٤٦

فكانت الشخصيتان من شريحة المجتمع التي لا ينظر إليها عادة في الحرب لضعفها. فاللاجئ، والطفل الصغير، لا يشكلان خطراً كبيراً على المحتل، ولكن في تحول ضعفهما لقوة، مفارقة ركز عليها الكاتبان، فلم يكسرهما المحتل، ولم يُضعف من عزمهما، بل أصبحا من العوامل الفاعلة في المقاومة، والمحرضة عليه، و المنادية باستمراره.

فكان لأم سعد وكريم، القدرة على نيل اهتمام القارئ، والتأثير فيه، حتى بعد انتهائه من قراءة الرواية؛ فالشخصية هي القلب النابض لكل حكاية. والعمل الروائي غير قادر على الاستواء، بدون شخصيات تصنع أحداثه، يقول بارت: "يمكننا أن نقول إنه ليس ثمة قصة في العالم من غير شخصيات[١]". فهي أول ما يلقاه القارئ في الرواية وآخر ما يودعه، و هي المتحكمة بحركة القصة، بحكم قدرتها على دفع الأحداث، وتغيير مجراها.

تنقسم الشخصيات في كل رواية، إلى شخصيات المعقدة " Round character" وهي شخصية بنائية، مفعمة بالحركة تتركز عليها الأحداث. والشخصيات المسطحة "Flat character " هي التي تدور حول فكرة محددة، ولا تتغير حتى آخر الرواية، ويستطيع القارئ التعرف عليها بسهوله وفهمها. وهناك الشخصيات المرجعية، وهي التي تقدم للقارئ معلومات دينية، أو تاريخيه، بشكل يُفيد الإطار العام للرواية[٢].

---

[١] الخطاب الأدبي ورهانات التأويل، نعمان بوقرة، عالم الكتاب الحديث للنشر والتوزيع، ط ١ ،٢٠١٢م، ص ٣١٥

[٢] Aspects of The Novel ,E M. Forster ,p67

آمنت الشخصيات في رواية AL Naqba للكاتبة Barbara Goldscheider بجملة من الأفكار والمبادئ المتباينة، التي أدت إلى تصادم مواقفها، وتقاطع آرائها، حول القضية المحورية " القضية الفلسطينية".

أرادت الكاتبة أن تصور طبيعة الحياة الاجتماعية، في الأرض المقدسة- داخل أجواء الحرب- بتركيزها الضوء على عائلتين "فلسطينية وإسرائيلية"، و رصد معاناتهما بسبب الصراع. تكونت العائلة الإسرائيلية من الجد، الذي استطعنا منذ بداية الرواية، استنباط صورة عامة عنه، متمثلة في حبه لأرض فلسطين، ومعاناته قبل قدومه إليها، وأمله في العودة إليها، ولو في تابوت. وسعيه بعد ذلك للسلام، مع الآخر الفلسطيني، وتحليه بالتسامح، الذي ورّثهُ لحفيده الضابط، فكان حب السلام، وتقديس الحياة، هو ثقافة الشخصيات الإسرائيلية على امتداد أجيالها.

ثم الضابط "Neyri" وهو الشخصية الإسرائيلية المحورية. استمدت الكاتبة شخصيته، من شريحة المجتمع الإسرائيلي، الرافضة للعنف، والحرب الأحادية الجانب، التي سلبت الجندي الإسرائيلي إنسانيته، واعتزازه بنفسه. فصورت الرواية مدى صعوبة ما يلاقيه كإنسان، أدمت الحروب ذاته، وشوهت حياته.

انعكست اضطراباته النفسية على العمل الروائي، الذي صور بجمل متوترة حالات القلق، والغضب، و العصاب، وعدم اتضاح الرؤية، التي مر بها، ودفعته للانسحاب من دائرة العنف، والابتعاد، ليعيد الاعتبار لنفسه." فالشخصية التي تُعاني صراعاً داخلياً، تُعد شخصية مقهورة

على جميع المستويات، الأمر الذي يؤدي إلى مزيد من التوتر داخل نطاق العمل الأدبي، ومن ثم إلى ثراء واضح في تركيب الشخصية، وصيرورة الأحداث[١]".

أما شخصية الأب الإسرائيلي"Jacob Ben Ner" فهي شخصية مرجعية، لما يحمله من ثقافة تاريخيه، ودينية، وثقافية. وظفته الكاتبة لتوضح من خلاله جانباً مهماً من التاريخ الحربي الإسرائيلي. يحكي لابنه "Neyri" عن الحروب التي شارك فيها، كحرب يوم الغفران، "Yom Kippu" ويعرض آراءه فيما جرى آنذاك، فيقول:" لم تكن نجاة الإسرائيليين في حربهم مع العرب قديماً، لتماسكهم، وإيمانهم بقضيتهم فحسب، بل لتجاوب الجيش الإسرائيلي مع الأحداث، في أرض المعركة، وقدرته على تفادي الهزيمة، بارتجال الخطط الاستراتيجية، التي جنبتهم الخسائر[٢]. فهو لا يعترف بهزيمة إسرائيل أمام جيوش مصر وسوريا، ويرى أن حنكة الجيش الإسرائيلي هي التي جنبتهم الخسارة.

وظفت الكاتبة شخصية الأم" Miriam" مريم، لتُعرف القارئ على ثقافة المجتمع الإسرائيلي، وترابطه الأسري. فهي شخصية مرجعية، كان لها دور في إبراز العادات الاجتماعية، والدينية، التي تُسهم في إنشاء جيل على أسس سليمة في معتقده، وعاداته، وقيمه. ففي احتفال العائلة بعيد "Passover "،عيد الفصح، كانت تحرص على اجتماع العائلة– وفق العادات اليهودية – وتناول أطعمة معينه، وغناء "الهغادة"، "Haggadah"، وتذكر جانباً من تاريخ اليهود القديم. لم يكن اختيار اسم مريم اعتباطياً، فقد أرادت الكاتبة أن تؤكد مشاركة اليهود للنصارى في حبهم لمريم العذراء، مما يدل على تسامحهم الديني، مع كل الأديان، خلافاً لما هو معروف عنهم.

---

(١) إشكاليات الصراع الإنساني في القصص الحديث، رجاء علي، المؤسسة العربية للعلوم والثقافة، ط١، ٢٠١٠م، ص ٢

(٢) AL Naqba, Barbara ,Goldscheider,p165

اتسمت الشخصيات الإسرائيلية بالعقلانية والمنطق، وحب الحياة، ونبذ العنف، حتى في أسوأ الظروف و أحلكها. يتألم "Neyri" كثيراً لحال "الإنسان" الذي أضحى هدفه القتل، والتدمير، ونسي أنه خُلق ليستمتع بهذه الحياة، ويعيش بطمأنينة. وقع ضحية لإحدى التفجيرات، وأصيب بشظية في رأسه، لم يدفعه ذلك للانتقام، بل زاده تقديساً للحياة، ورغبة في إنهاء الصراع، حتى لا تزيد الحروب من معاناة الإنسانية .

أما "Jacky" فهي امرأة يهودية أمريكية، قدمت إلى فلسطين، لتعمل مع بروفسور إسرائيلي، في بحث علمي، عن الآثار النفسية التي خلفتها الحروب، على الجنود الإسرائيليين، في عامي ١٩٦٧و١٩٧٣[١].

ترمز"Jacky" للجانب الغربي، الذي يسعى لإحلال السلام، في المنطقة والعالم. فنراها تعمل على إيجاد نقاط توافق وتوازن، من شأنها أن تساعد على تقريب وجهات النظر، وتنهي الصراع القائم بين الجانبين. ترى أنه من الضروري إجراء الدراسات حول هذه القضية، وتوثيقها في الكتب، فمن خلال دراستها، وجدت أن أثار الحرب مازالت باقية في الجنود الإسرائيليين، الذين شاركوا في المعارك، فتقول:" لقد شعر الجنود بعد الحرب، بأنهم قد أصبحوا كباراً في السن، على الرغم من أن أعمارهم لم تتجاوز العشرين[٢]".

جميع الشخصيات "الفلسطينية والإسرائيلية" في الرواية معذبة، وإن اختلف سبب عذابها، ترك الصراع آثاره البينة عليها، و جعلها تعيش في بؤرة القلق والتأزم، فأضحى الخوف، وانعدام الاستقرار النفسي والأمني، هو القاسم المشترك بينها.

---

[١] الرواية السابقة، ص١٠٤

[٢] الرواية السابقة، ص ١٤٣

عيسى هو ابن لعائلة متعلمة، يعمل والداه في جامعة بير زيت، بينما يدرس هو في جامعة تل أبيب، ويقوم ببحث علمي مع البروفسور الإسرائيلي "David". اشترك أخواه في التنظيمات الفدائية، للدفاع عن فلسطين، وللرد على انتهاكات المحتل المتتالية داخل الأراضي الفلسطينية. بينما اقتنع هو بأهمية العلم، كطريق أفضل للمقاومة، فهو القادر على منح "الفلسطيني" المكانة التي يستحقها في العالم.

أثبتت تجاربه مع المحتل، عكس ما كان يظن، فلم يفرق الجنود بينه وبين أخويه؛ فالفلسطيني في نظر الإسرائيلي "إرهابي"، يهدد وجوده المجتمع الإسرائيلي. فمهما علت منزلته العلمية، وحمل أفكاراً للسلام والتعايش، لا يغير المحتل من نظرته له، وتعامله معه.

بعد أن عاش حياة روتينية، تحت ظل الاحتلال، يحاول التعايش مع واقعه المفروض عليه، طرأ تحول غير مفاجئ على شخصيته، بل كان متوقعاً، تنبأ به الضابط" Neyri" عندما قال: "إن ما يمارس ضد الفلسطينيين من انتهاكات، سيحولهم بلا محالة، لقنابل موقوتة، تستهدف المجتمع الإسرائيلي بكل أطيافه، وأشكاله(١)".

كان يكثر من زيارة "البدو" في الصحارى، ففيها يشعر بأنه حر طليق. أحب الفتاة "صالحة" التي تسكن الصحراء، لأنه ربطها بالحرية، تزوجها، وبعد انتقالها معه للمدينة، تغير حبه لها، لأنها ما عادت ترمز للحرية، فهي محاصرة مثله. اتسمت شخصيته بالغموض، والتناقض، والتوتر، الذي جاء انعكاساً لتوتر الأوضاع على الأرض. عانى تأرجحاً في مشاعره، ومبادئه، وقيمه، عندما أقام علاقة مع "Beth" ،علاقة عابرة لم يكتب لها الصمود طويلاً.

انعكست الأحداث المأساوية على شخصيته، فتخلى عن العقل والمنطق والحكمة، ولم يعد يميز بين الحق والباطل. تغيرت شخصيته تماماً – في جزء الرواية الثاني– فأصبح ذا دور كبير

---

(١) الرواية السابقة، ص ٧٠

ومؤثر في كل الشخصيات من حوله. فبعد مروره بسلسلة من التجارب المريرة، على يد الجنود، بدأت باعتقاله، ثم اغتيال أخيه، وهدم منزل والديه، ثم وفاة زوجته وطفله على الحاجز الإسرائيلي، قرر الانتقام لعائلته.

أعطى صديقته الأيرلندية "Beth" هدية مغلفة عند سفرها. وفي المطار، اكتشفت الأجهزة الأمنية، القنبلة الموقوتة، التي حملتها "Beth" وهي لا تعلم. اتجه في الوقت نفسه لوسط تل ابيب، ليفجر في مطعم يكتظ بالناس، وقف في صف طويل من الزبائن، كان يتأمل وجوه الناس، ولمح صديقه "David" يجلس بالقرب من النافذة، وفي غضون لحظات، تحول المكان لدخان وأشلاء متطايرة.

جاءت شخصية عيسى "شخصية نامية"، تطورت في الرواية باطراد، وتغيرت أفكارها بصورة ملحوظة، مع تقدم الأحداث. حرصت الكاتبة عند تصويرها لشخصيته، على أن لا يكون منطقياً مع نفسه، "فبلغ التصوير النفسي أقصى درجات التعقيد، بحيث يتعذر الحكم على أشخاصه، بإخضاع دوافعهم النفسية لمنطق معين(١)".

"Beth " وهي شخصية ثانوية، أفسحت الكاتبة لها المجال، لتذكر الحروب التي مرت بها دولتها قديماً، و استمرت ما يقارب المائة عام، بين الكاثوليكية والبروتستانتية. اتخذت هذه الحروب من الدين شعاراً لها، فراح ضحيتها آلاف الأبرياء. وظفتها الكاتبة، لترسل من خلالها حقائق مفادها، أنه لا رابح في الحرب، فكلا الطرفين يخسر الأرواح والممتلكات، فجدير بالإنسانية أن تتعظ وتتعلم من دروس السابقين.

الزمان والمكان: Time and Place

(١) النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، ص ٥٣٠

لكل رواية زمانها ومكانها الخاص، الذي يؤطر أحداثها، ويعطيها الأصالة في الأحداث والأقوال والأفعال، فهما عنصران أساسيان، ومحركان فاعلان في تشكيل البناء السردي، يؤدي تلاحمهما مع بقية العناصر الأخرى، إلى خلق منظومة روائية إبداعية، تحاكي المجتمع المعروف لدى القارئ.

جاء اتصال الرواية بالزمن وثيقاً، فهو جزء ضروري وحيوي من أجزاء البنية الأساسية للعمل الأدبي. عني به النقاد والأدباء منذ القدم، فوضعوا له المصطلحات التي تفسر معناه، وتوضح دوره، وتفرق بين أشكاله." فكان هناك زمن المغامرة، وزمن الكتابة، وزمن القراءة، انطلاقاً من أن الرواية فن زمني، وأن الزمن لم يعد شرطاً للإنجاز، بل أصبح موضوعاً للرواية وأحياناً بطلها[١]". تتناول الرواية أحداثاً تكون قد وقعت على مدار سنين، يكتبها المبدع في ساعات، ويقدمها للقارئ الذي قد يقرؤها في دقائق، فاختلف بذلك زمن وقوع الحدث، عن زمن الكتابة، عن زمن التلقي.

تعود الروايات، محلّ الدراسة، لأكثر من زمن من أزمنة القضية الفلسطينية. وبما أن لكل زمن خصوصيته، كان لابد من استعراضه، بشكل مكثف، في كل رواية. " فالزمن هو البطل الحقيقي في الرواية، فعندما يُحدد المبدع زمناً لقصته، فإنه يلتزم بكل الأحداث الحقيقية، ويحرك شخصياته ضمن إطارها، لتعطي القارئ تصوراً أدق عن هذه المرحلة[٢] ". لكن هل كان توزيع الزمن داخل الرواية اعتباطياً، أم أن لمختلف التبدلات الزمنية دورها الأساسي في ضبط وتنظيم مجريات الأحداث؟

---

[١] تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، ص ٨٠

[٢] Aspects of The Novel, E M. Forster,p38

يحرص الكاتب على وضع معالم زمنية بارزة، تساعد القارئ على تتبع الأحداث المتناثرة في الرواية، ووضع صورة متكاملة عنها. فأدى توظيفه للتبدلات الزمنية، إلى إكساب الرواية عناصر حيوية مطلوبة، "كالتشويق، وسرعة الحركة، والاستمرار والتتابع، الذي يربطها بدوره بالنهاية، التي سيختتم بها الكاتب روايته[١]".

تعود أحداث Destined to Die للكاتب Victor Sasson لعام ١٩٧٩م لتصف لنا أوضاع الفلسطينيين، آنذاك، في الضفة الغربية وغزة والقدس. لم تكن رواية تاريخية، لكن كاتبها استفاد من معطيات التاريخ، في بناء أحداث روايته بأسلوب فني، عمّق من ارتباطها بالزمان، والفضاء الاجتماعي الذي مثلته. فساعد مجيء الزمن في صور مختلفة، على رصد التدفق المستمر للأحداث، ليس فقط في صورتها اللحظية، بل على المستوى الأشمل للفترة التي تحكيها الرواية.

وظف الكاتب تقنيات فنية عديدة، تتسم باللعب الزمني، الذي يشوش ترتيب الأحداث وتسلسلها، مثل التلخيص، والحذف، اللذين أسهما في إثراء روايته بأبعاد زمنية، قادرة على إعطاء القارئ تصوراً أكثر عمقاً ووضوحاً، بما يمكن تسميته صراعاً وجودياً.

يلخص لنا المشهد الدرامي التالي، أحداثاً طويلة، مرت في فصول متعددة، عن أسباب اعتقال نبيل ووالده، يقول الكاتب: " صُدم "Johnson" عندما علم أن اعتقالهما، لم يكن بسبب اقتنائهما السلاح، كما كان الضابط يدعي، بل كان لعمله في حماية الآثار الفلسطينية، والعربية القديمة، وتوثيقها في الكتب والأبحاث العلمية. فهو يرى أن الآثار التاريخية، خير شاهد على رقي الإنسانية، ولا يجوز تدميرها، أو إهمالها، لأي سبب من الأسباب. عمله هذا يتعارض مع

---

[١] الزمن والرواية ،أ.أ مندلاو، ترجمة بكر عباس، دار صادر، بيروت، ط١٩٩٧,١، ص ٥٤

السياسة الصهيونية، التي تسعى لتهميش حضارة الفلسطينيين ومحوها. قرر بعد ذلك الاستقالة من منصبه، حتى يُخرج نبيل ووالده من السجن[١]".

فبعد التفاصيل المذكورة، في الفصول السابقة لهذا المشهد، عن اعتقال نبيل ثم والده، جاء هذا المشهد ليكشف عن ملابسات القضية، بشكل مختصر وموجز. فساعد ترتيب الأحداث في هذا المشهد، بعد انفصالها زمنياً، في مشاهد سابقة، على وصول القارئ لنتائج من شأنها أن تساعده في فهم الموضوع بصورة أوضح، وتكشف عن الانتهاكات الصريحة لحقوق الإنسان الفلسطيني، وتلفيق التهم الكاذبة له، والاستهتار به وبحياته.

أسهمت التعرجات الزمنية، في سهولة تنقل الشخصيات، بين الماضي والحاضر لنقل المشاهد أو تفسيرها، مما يؤدي إلى دمج الأحداث ببعضها، فتفهم النتائج بعد اتضاح أسبابها. قد ترجع الشخصية للماضي – لأهمية أحداثه – فتختار منه لحظة تملأ بها حاضرها، وتعيش تفاصيلها، محاولة الاستفادة من دروسها، فالماضي جزء لا يتجزأ من الحاضر ولا ينفصل عنه.

عاد الكاتب بالأحداث إلى الوراء، لإضاءة مشاهد كانت مهملة في زوايا العقل، لم يرد ذكرها في الرواية، "فجاءت على شكل ذكريات تطفو، لتغطي مساحة الحاضر[٢]". فيقول: "عندما سُجن نبيل، كان يفكر كثيراً في الحرب وأسبابها، عادت به الذاكرة لأيام الطفولة، فعندما كان في العاشرة من العمر، كان يرى السائحين الغربيين، و يقدم لهم الحلوى، فهذه هي طريقة الفلسطينيين، والعرب، في إكرام الزائرين، حتى لا يشعروا بغربتهم. أكرموا حتى اليهود القادمين من أوربا، وأحسنوا معاملتهم، فكان هذا هو السبب، الذي جعلهم يطمعون في أرض

[١] Destined to Die, Victor Sasson,p94

[٢] مكونات الخطاب السردي، الشريف حبيله، ص ٢٤

فلسطين ويحتلونها[١]". نتج عن ذلك عزل الفلسطينيين، في أماكن مظلمة، وشقوق صغيرة في الدولة، بعد أن كانوا هم أصحاب الأرض والسيادة.

ساعد هذا المشهد، على فهم سبب تغير موقف نبيل من المقاومة، وإصراره بعد خروجه من السجن على القتال، من أجل فلسطين وتحريرها من الاحتلال. فكان إكرام من لا يستحق، هو السبب في جعله يطمع فيما لا يملك، فلن يعود الحق المسلوب – بحسب نبيل– إلا بالقتال والثورة على المحتل.

يُسيج الكاتب كل حكاية يذكرها، بعنصري الزمان والمكان، فيضع بذلك الخلفية المناسبة، التي ستتحرك شخصياته ضمن إطارها. فيقول: "في أحد أيام "January" وتحديداً في يوم الأرض" Fatah day" قامت مظاهرة طلابية حاشدة، شارك فيها ما يقارب ثلاثمائة طالب، من جامعة بيرزيت الفلسطينية، تندد بالاحتلال، استخدم الجنود الرصاص، والغازات المسيلة للدموع لتفريق المظاهرة، وتم إغلاق الجامعة حتى إشعار آخر[٢]". إن تحديد اليوم مُهم في المشهد السياسي، والاجتماعي، الذي تحكي عنه الرواية، ففي مثل هذا اليوم من كل عام، يخرج الفلسطينيون في مظاهرات حاشدة، للمطالبة بالأراضي التي احتلتها القوات الإسرائيلية.

قد تختلف الأزمنة، ولكن يبقى المكان "فلسطين"، هو محور الصراع في الروايات العربية والإنجليزية، محل الدراسة، فهناك علاقات قوية، تربط بين الأماكن، والشخصيات، بحيث تعبر الشخصية عن شعورها الذاتي تجاهه، فتقاتل وتُضحي من أجله. " فالمكان الروائي، هو الأكثر ارتباطاً بالشخصيات، لأنها تتحرك ضمن حدوده، وداخل إطاره[٣]".

---

[١] Destined to Die, Victor Sasson,p132

[٢] الرواية السابقة، ص ٧

[٣] مكونات الخطاب السردي، الشريف حبيله، ص ٤٢

قد يأتي ذكر المكان بشكل مباشر، كما في "رواية أعراس آمنة لإبراهيم نصر الله"، أو قد يرمز إليه برموز متعددة، كما في رواية A Little Piece of Ground by Elizabeth Laird لكن ما مدى تأدية المكان الروائي لوظيفته؟ وهل كان دوره هامشياً أم أنه تجاوز ذلك إلى لعب دور مهم في تطور الأحداث؟

"المكان الروائي ببساطة هو الحيز الجغرافي، الذي تجري فيه الأحداث، ولكنه قد يتجاوز حدود هذا الحيز الضيق، ليصبح هو العنصر الأهم في الرواية؛ فعندما تكون له خصوصية معينة، فإنه يتحول من كونه عنصراً مساهماً في الرواية، إلى العنصر الأساسي الذي تدور كل الأحداث حوله[١]". وفي افتقاد الرواية لعنصر المكان، فإنها تفتقد خصوصيتها، وبالتالي مصداقيتها، فالأحداث مرتبطة بعلاقة وثيقة بمكان وقوعها.

نقلت الرواية صراع الطرفين حول الأرض الفلسطينية، ومحاولة كلٍّ منهما إثبات أحقيته بها. كانت هناك محاولات للإسرائيليين، في خلق علاقة لهم بالأرض، عن طريق طمس آثار الفلسطينيين وتراثهم، ليثبتوا بذلك أساطيرهم الدينية الموروثة، التي تؤكد أحقيتهم بالأرض. يظهر ذلك عند محاولة تلفيق التهمة لمدير المؤسسة الأمريكي، لحفاظه على الآثار الفلسطينية، وسجن نبيل ووالده، وتعيين مدير إسرائيلي جديد للمؤسسة حتى يقوم بتنفيذ سياسة دولته.

تتعدد أهمية ذكر المكان في الرواية، فقد يذكره الكاتب ليصف الساحة التي تجري فيها الأحداث، فيعطي القارئ بذلك الخلفية اللازمة، لإدخاله في عالم الرواية، أو قد يستخدمه لوصف ساكنيه، يظهر ذلك عند حديث "Joshua" مع "Johnson" في مؤسسة الآثار حيث تقول:" لقد تفرق اليهود في الأرض مئات السنين، ولكنهم عادوا أخيراً لوطنهم. وفي عام ١٩٦٧م عندما تمكنوا من استعادة الأراضي اليهودية من الفلسطينيين، صُدموا آنذاك من شكل

---

(١) The Technique of The Novel ,Thomas,H,Uzzell,p 90

حائط المبكى المقدس، فقد كان ممتلئاً بالنفايات، وبُنيت حوله البيوت بطريقة عشوائية، وكان المكان غير نظيف..[١]". أرادت بذلك أن تصف ساكنيه من الفلسطينيين، بالصفات ذاتها التي ذكرتها للمكان، بحكم أنهم كانوا موجودين فيه، قبل قدوم اليهود إليه.

نلاحظ ارتباط المقاطع المشهدية، بعلاقة عضوية، مع عنصري الزمان والمكان. إذ لم يكن من السهل ذكر هذه الحادثة، لولا ذكر مكانها، وهو مؤسسة الآثار الإسرائيلية. وزمانها، وهو في الصباح عند زيارة المرأة اليهودية لمؤسسة الآثار. وحتى في القصة التي ذكرتها في حديثها مع "Johnson" عن شكل المكان، قبل قدوم اليهود إليه، حددت فيها زمان ومكان حكايتها أولاً، حتى تُكسب مصداقية لكلامها.

وعندما وصف الكاتب زنزانة نبيل، فهو يصف سجانه أيضاً. " فهي صغيرة جداً، شديدة البرودة، ولا يوجد بها إضاءة ولا تهوية ولا نوافذ، في مكان منعزل، لا يسمع فيه، غير أصوات أنفاسه، وخطوات سجانه، لم يكن يُسمح له بمعرفة الوقت، و كان طعامه هو الخبز الناشف والماء ...[٢]". أعطى وصف المكان، انطباعا فكرياً للقارئ، عن هذا السجان الذي تفنن في تصميم السجن، بشكل يكفل تعذيب ضحيته، وحرمانها من أبسط حقوقها الإنسانية.

وفق الكاتب في استخدامه لتقنية التحول، "وهي الانتقال من مكان لآخر، ورصد انعكاس هذا التحول على النفس الإنسانية، فتتحول بدورها وتتبدل نتيجة لذلك[٣]". لاحقت كاميرا الكاتب نبيل، في تنقلاته، داخل الضفة الغربية، والجامعة، والسجن، ثم خارج حدود الوطن، في عمان،

[١] Destined to Die by Victtor Sasson,43

[٢] الرواية السابقة، ص١٣٣

[٣] بنية السرد العربي، محمد معتصم، الدر العربية للعلوم ناشرون، ط١، ٢٠١٠م، ص ٩٨

و لبنان، عند مشاركته في المقاومة. ورصد التغير الذي أصابه نتيجة لذلك، فتغيرت مفاهيمه وتبدلت واتضحت رؤيته، وزاد إصراره على القتال، وإنهاء الاحتلال(١).

دارت أحداث رواية "ربيع حار" لسحر خليفة، في الفترة اللاحقة لانهيار اتفاقية أوسلو، في فلسطين المحتلة، وما تبع ذلك من حصار، واجتياح لمدن، وقرى فلسطينية، ومذبحة نابلس، وحصار الرئيس عرفات في مقر السلطة.

أرادت الكاتبة في هذه الرواية التأريخ، بأسلوب فني، لأحداث معينة، وقعت في زمان ومكان معينين. فاستطاعت بذلك ربط أجزاء حكاياتها، وإحكامها، بخيوط الزمان والمكان، مكونة بذلك نسيجاً من المشاهد، وشبكة من العلاقات الاجتماعية بين الشخصيات، التي تتحرك وفق إطار "الزمكان" المرسوم بدقة، دافعة بالأحداث نحو التأزم.

كان للعنوان "ربيع حار" معنى زماني، ذو دلالات رمزية عميقة، اختزلت المعنى العام للرواية. فالأرض تخضر، و تُجنى ثمارها في فصل الربيع، لكن نتاج الربيع الإسرائيلي، على المستوى السياسي، كان اتفاق أوسلو الذي كشفت الأيام عن عدم نضجه وفساده، فتحول بنيران العدو إلى حرارة، جعلت الربيع صيفاً حارقاً.

تواصل الكاتبة رصد تأثير إيقاع الطبيعة "الزمان" على الأحداث، فتقول في وصف إحدى الغارات الإسرائيلية على المدن الفلسطينية: "بدأ مع الفجر، في يوم ماطر، وعواصف، وضباب كثيف، يغطي العالم بدخان أبيض مثل الثلج، فترى نفسك كالشبح يهيم في فضاء مخيف، وسط سكون مريب، ينذر بالموت(٢)". جاء إيقاع الزمن في الرواية بشكل مدروس، بحيث وظفت الكاتبة فصل الشتاء، بطريقة فنية رمزية، فهو مرتبط بالحركة والتغير والتحول، وهذه المرحلة

---

(١) Destined to Die by Victtor Sasson,177

(٢) ربيع حار، سحر خليفة، ص٢٢٥

الزمنية، في حياة الفلسطينيين، كانت مضطربة كاضطراب الشتاء، بين عواصف، و أمطار، وغيوم، و انحجاب الشمس والرؤية.

ركزت الكاتبة هنا على الثنائية الضدية بين مفردتي "الثلج والنار"، مثيرة الدهشة في نفس المتلقي، من اجتماعهما في مشهد واحد. فعلى الرغم من تضادهما، فإنهما يلتقيان على أكثر من محور، وبالتقائهما وتصادمهما وتضادهما يغنيان النص، فتتنوع دلالاته. فقد اشترك فصل الشتاء بشدة برودته، والنار، التي يرسلها الجنود على الفلسطينيين، بالفتك بالإنسان الفلسطيني، وبإثارة الاضطراب وعدم الاستقرار في المكان.

أرادت الكاتبة بذلك، أن ترسل للقارئ إرهاصات أولية مُخيفة، ليترقب وقوع أحداث، لا تقل قسوتها عن قسوة الطبيعة، و ينتظر هجوماً مفاجئاً، كهجوم العواصف، التي لا تُبقي ولا تذر، ولكن على من؟ "التفت إليه قائدهم وقال له: لا تتحرك، أنت هنا مع ثاني صف على باب الرئيس[١]". إذاً كان هذا الوصف الخارجي والداخلي، لمقر الرئيس عرفات، قبل الاجتياح. فساهم وصف المكان في إعطاء صورة حية متحركة عن انتهاكات العدو، التي طالت حتى مقر الرئاسة، وهددت حياة الرئيس، فكأن القارئ يُشاهد بعينيه كيفية تدمير المبنى الرئاسي، وقصفه دون اكتراث." بالقصف المتواصل، استطاع جنود الاحتلال إحداث ثغرات، وتمكنوا من النفاذ إلى مبنى المخابرات، وبذلك أصبحت الجهة الشرقية لمبنى الرئيس محتلة بأكملها، ولا يفصلهم عن غرف الرئيس، سوى الحائط[٢]".

" قد يُبالغ بعض الكتّاب، في وصف التفاصيل المكانية، بجميع أشيائها، للتأثير على القارئ، الذي يظل يتساءل عن المعنى المراد، من وراء إسراف الكاتب، في وصف أمكنة

---

[١] الرواية السابقة، ص ٢٢٦

[٢] الرواية السابقة، ص ٢٢٧

الأحداث[١]". فقصدت الكاتبة هنا من وراء وصفها الدقيق، لمحتويات المكان، أن تبرهن على قدرتها في جعل القارئ يرى ما تصفه، وكأنه أمامه، بالإضافة إلى رغبتها في بث المصداقية، في الأحداث التي ترويها.

اشتركت "سحر خليفة" مع الكاتب "Victor Sasson" في روايته Destined to Die في الإشارة إلى الأماكن الأثرية والتاريخية الفلسطينية، التي تتعرض للاعتداءات من الآخر الإسرائيلي. فتقول:" طالت الاعتداءات المآذن والبيوت، حتى الآثار استهدفوها بالقصف والنسف. فهاهي مصبنة تاريخية ممتدة منذ القدم، لصنع الصابون، كانت تحترق وتتوهج بنيران الزيت والصودا، وسط دخان كثيف...[٢]" . أرادت التوثيق للأماكن التاريخية، التي تشير لجانب من الحضارة الفلسطينية، التي أصبحت مستهدفة من المحتل، كاستهداف الإنسان الفلسطيني نفسه.

لقد حفلت الرواية بالمكان، لكونه العنصر الأهم الذي دارت حوله الأحداث، وترك الصراع آثاره الدامية عليه. لكن وصف الكاتبة لجمال المكان "نابلس" جاء لتهدئة التوتر في بنية السرد، فبعد تصويرها بلغة متوترة، تحمل في طياتها حزناً وغضباً عارمين، لمناظر القتل والهدم والقصف، الذي راح ضحيته المقاتلون الفلسطينيون، ومن بينهم ابن غزه، جاء وصفها لنابلس فيه شاعرية، أراحت نفس المتلقي، بالإضافة إلى كونه محملاً بالرموز والدلالات العميقة، فتقول: " كانت نابلس وما زالت كعادتها، رغم القصف والنسف والتدمير، مداخن أفران، قباباً أثرية، وحمامات، ومآذن مرتفعة، وقناطر لقصور الأمس، أين وصلنا، هذا الماضي ..هذا الحاضر .. ماذا في الغد؟[٣]".

(١) مكونات الخطاب السردي، الشريف حبيله، ص٥٦

(٢) ربيع حار، سحر خليفة، ص ٢٤٧

(٣) الرواية السابقة، ص ٣٠٧

قدم هذا المقطع تعريفاً بالزمان والمكان، للمقارنة، والمقاربة، والمفارقة، بين زمن جميل ولى بأمجاده، وزمن قبيح ذاق الناس ويلاته، فكأنها بتذكره تود الهرب إليه لتتخلص من وطأة حاضرها الكئيب، باحثة عن متنفس يعيد إليها الأمل في الحياة، فقد شوه الاحتلال حاضرها، وأضحى مستقبلها مجهولاً، لا يمكن التنبؤ به وسط هذه العواصف الهوجاء.

بدأت الكاتبة بذكر المكان في صورته الكلية، ثم ركزت على أماكن أدق في كل مدينة. ففي نابلس كان حوش العطوط، هو المكان الذي تحركت فيه الشخصيات، في مواجهة الجنود، ومساعدة المقاتلين، وتضميد جراحهم، وتقديم الطعام لهم. وفي رام الله، كان مقر الرئيس، هو المكان الذي نقلت سحر خليفة الأحداث من داخله. " كانت البوابة الداخلية للمقر تشهد معركة شرسة بين حرس الرئيس، وقوات أمن الرئاسة، والمحتلين المدعومين بالدبابات، و المجنزرات[١] ".

اللغة : Language

" إن الأدب هو عبارة عن مجموعة من الكلمات، يضم الكاتب بعضها إلى بعض، بطريقة تجعل القارئ يفكر في كيفية توظيف المبدع للغته، وتقديمه لفكرته من خلالها[٢]". فاللغة من أهم العوامل القادرة على جذب المتلقي، والتأثير فيه، فلم تقتصر وظيفتها على الناحية التوصيلية فحسب، بل تعددت وظائفها داخل النص الروائي، بين وظائف تصويرية واقعية، أو تخيلية شاعرية.

---

(١) الرواية السابقة، ص ٢٢٧

(٢) Literary Theory ,Jonathan Culler,Oxford University,Press,1997,p 24

فكان من المهم إجراء "تشخيص لغوي" للروايات محل الدراسة، على أساس تنوعها الكلامي، والوظيفي، والأسلوبي، ومعرفة مدى نجاح اللغة، في نقل واقع الصراع اليومي بين الطرفين، ورصد انعكاساته، وتأثيراته على الشخصيات.

تمكنت اللغة من تشييد كيان مميز لها، في الروايات العربية والإنجليزية، عن طريق استخدامها للغة المستمدة من أرض الواقع، وإعادة تشكيلها من جديد، لتلامس المشكلات الاجتماعية، والنفسية، التي أفرزها الصراع، فساهمت من خلال معطياتها الواسعة، في إثراء النصوص الروائية، وبث روح التجديد والتنويع فيها.

يعمد الكتّاب للغة المباشرة، عند رصدهم لأحداث تاريخية واقعية، مثل رواية AL Naqba by Barbara Goldscheier ، وقد تشحن اللغة بالرموز، عند تقديم المعاني اللا محدودة مثل رواية" أم سعد"، مما قد يخرجها من إطارها التقليدي، لكونها لغة توصيل فحسب، إلى لغة يحترم فيها الكاتب عقل قارئة، ويشركه معه في إعادة إنتاج دلالتها. "لقدرته على تجديد آفاق تلقي هذه الأعمال، والتفاعل معها، على الرغم من تقادم الزمن على إنجازها، بسبب ما يبعثه النص من طاقة إيحائية متجددة باستمرار في ذهن القارئ على مدار عصور[١]".

لقد أدى تنوع الاستعمال اللغوي في رواية Destined to Die by Victor Sasson إلى ثراء في المعاني، ورصد دقيق للأحداث، و قدرة على إيصال المادة الفكرية و الحكائية، وإصابتها لأحاسيس القارئ. حيث نقلت لنا اللغة صور التعذيب، والقهر، والبطش، التي استفزت المتلقي، وحركت نوازعه الإنسانية، تضامناً مع شخصيات الرواية المضطهدة.

---

[١] خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، رزان محمود إبراهيم، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط١ ،٢٠٠٣م، ص ١٢٣

بدأت الرواية بمشهد وصفي للضابط "Arik" ،الذي قدم لقرية سلوان الفلسطينية، حاملاً في يده قراراً من المحكمة، يقضي بهدم منزل عائلة أحد الفدائيين، فهو كما تصفه الرواية، "كطير من الطيور الجارحة، التي تحوم حول فريستها[١]"، فالسارد بهذا التشبيه، أعطى القارئ شعوراً مهيباً، وإحساسا قوياً، بأن ثمة حدثاً مؤلماً، سيحصل للعائلة الفلسطينية.

أكمل السارد رصده الدقيق للمشهد المأساوي، ففي مقابل صورة الضابط المفزعة، كانت هناك صورة للضحية، رجل مُسن، يلبس الثوب العربي التقليدي، يقف هو وأولاده خارج المنزل، ينظرون للجرافات القادمة نحو منزلهم، تجاهل الرجل الجنود وأسلحتهم، واتجه للضابط، كي يرجوه بأن لا يهدم المنزل، فليس لهم مكان سواه. رُسم المشهد بكلمات تحمل في طياتها الحزن والألم وقلة الحيلة. فبناء على هذه الحادثة، يستطيع القارئ التنبؤ بما سيتلو ذلك من أحداث، لا تقل بشاعة عنها.

انتقل السارد بعد ذلك ليصف المكان، بلغة فنية معبرة، تعطي القارئ الخلفية المناسبة، التي جرت فيها الأحداث فيقول:" تقع قرية سلوان خارج حاجز القدس، منطقة مزدحمة، ليست فاتنة كغيرها من القرى المجاورة، فأغلب المنازل قديمة جداً أو مهدمة[٢]".

جاءت الاستعارات، والتشبيهات، والرموز ذات دلالات عميقة، فكان لها دور في إخراج المتلقي من نمطية اللغة الواضحة المحددة المباشرة، واستفزاز فكره وحواسه، لمحاولة الربط بين المعاني الخفية، والتفكير فيها بعمق، فتحدث لديه اللذة العقلية المطلوبة.

اعتمد الكاتب على الرمز بطريقة لافتة للانتباه، فعند وصفه لشكل الضابط الخارجي، لم يذكر بشكل مباشر أنه ينحدر من أصول أوربية، بل قال:" كأنه إله – كناية عن غطرسته –

---

(١) Destined to Die ,Victor Sasson,p3

(٢) الرواية السابقة، ص٥

قادم من الأرض الباردة، إلى الأرض ذات الشمس الحارقة[١]". فدل عدم انسجام شكله الخارجي مع المكان، على بطلان ادعائه بأنها أرضه.

"إن الغموض في الكتابة السردية "الرمز"، يختلف عن الغموض في الشعر. فالغموض الشعري مرتبط باستعمال اللغة الرمزية، والجنوح بها إلى الاستعارة المتباعدة الأطراف، التي قد يبعد إدراكها الحقيقي، حتى بالاعتماد على المعينات اللغوية، والقرائن اللفظية. لكن الغموض السردي، مرتبط بطرائق صوغ القصة، وتكمن خلف قصدية الكاتب، وقصدية الكتابة[٢]". يقدم الكاتب الرموز، التي من شأنها أن تشد القارئ لمتابعة عملية القراءة، فيسعى لمعرفة المعاني، التي تكمن خلفها الرموز، بربطها بالأحداث القادمة، و بالنتائج التي تظهر عادة في آخر الرواية.

اكسبت التشبيهات التي وظفها الكاتب، في حوار الشخصيات، غزارة في المعاني، واقتصاداً في اللغة، فكانت ذات دلالات عميقة. يذكر "نبيل" عند حديثه مع "Joyce" الأمريكية، مدى أهمية اطلاع الرأي العام العالمي على ما يجري داخل الأراضي المحتلة، فيقول:" إن فهم العالم لما يجري هنا، مهم جداً لنا كفلسطينيين، فهو أشبه بدخول شخص ما، لنفق طويل ومظلم، فيتوه في داخله، ولا يستطيع الخروج منه. فيستولي عليه الحزن، ثم ما يلبث أن يرى نوراً يتسرب داخل الكهف، فيحاول اتباعه، ليتمكن من الخروج من هذا الكهف المظلم[٣]". فخروج القضية الفلسطينية من محيطها الفلسطيني، إلى العالم أجمع، مهم في تجلية الحقائق، وكسب رأي عالمي داعم للقضية.

اعتنى الراوي بوصف الأشياء والأحداث بطريقة فنية جمالية، وبلغة سهلة، متماهية مع ما استعملت لأجله، جعلت النص ينفتح منذ بدايته على قراءات وتأويلات محتملة، تجعل القارئ

---

[١] الرواية السابقة، ص ٣

[٢] انظر: بنية السرد العربي، محمد معتصم، ص ٦٣

[٣] Destined to Die, by Victor Sasson,26

يعيش الأحداث بخياله، ولا يود قطع الوصف، لشدة حضوره في ذهنه. كوصف الرحلة التي قامت بها "Johnson" وزوجها في القرى الفلسطينية المجاورة لمؤسسة الآثار." بينما كانت السيارة تتجاوز القرى، واحدة تلو الأخرى، كانت "Johnson" تتأمل التلال، والوديان، والأشجار، والشمس الساطعة الجميلة، كان الرجال يعملون في المزارع، تعاونهم نساؤهم، بينما كان الأطفال يلعبون في المروج الخضراء، فكأنهم ينتمون للأرض، وهي تنتمي إليهم[١]". لوحة فنية، ساعدت اللغة في إبراز جمالها وروعتها، وجعلت القارئ يرى المشهد الموصوف، ويعيش أجواءه.

رسمت اللغة الشعرية المشاهد المتنوعة، فأضحت كأنها لوحات، تلونت بريشة فنان مبدع، أمتعت القارئ بانسيابية لغتها، ودقة اختيار كلماتها. يصف الراوي القدس بلغة شعرية، مستعيناً بالدلالات الإيحائية، التي تؤديها الألوان، فيقول "إن هذه المدينة الذهبية، مقدسة عند كل الديانات الثلاث...[٢] " فكان للفظ الذهبية "Golden" دلالة واضحة على ربطها بالذهب، وهو المعدن الثمين، الذي يحرص الجميع على اقتنائه، فأعطى ذلك تصوراً للقارئ، عن مكانتها عند جميع الأديان.

قدم الكاتب نصوصاً سردية مهجنة، اختلطت فيها الأجناس الأدبية بشكل موظف، منح تعددية في المعنى والغرض، وصور مدى ثقافة الشخصيات الروائية، التي بدت حالمة بالحب، والأمل بالمستقبل، كارهة للعنف والحصار وسلب الحريات. اقتبست سميرة بعضاً من أشعار شكسبير، عند حديثها مع نبيل، طالبة منه إكمال القصيدة التي مطلعها:

Shall I compare thee to a summer’s day

---

(١) الرواية السابقة، ص ٥٥

(٢) الرواية السابقة، ص ٣٥

(٢) الرواية السابقة ،ص ١٧

Thou art more lovely and more temperate

ألا أشبهكِ بصفاء المصيف

بل أنت أحلى وأصفى سماء (٢)

فكان للاقتباسات الشعرية قيمتها، ووظيفتها الجمالية، بالإضافة إلى ما يريد الكاتب إيصاله، من خلال المعاني الكبيرة المختزلة فيها، والملائمة للموقف الذي قيلت فيه. تشعر سميرة بتميز نبيل عن بقية أصدقائها، وتكن له حباً صامتاً، تفجر بفعل الثورة، و اشتراكه في المقاومة، ومرافقتها له في لبنان.

سارت اللغة في اتجاه انفعالي متصاعد و متوافق مع الأحداث. فبعد الإرهاصات الأولى لمأساوية ما سيحصل، سجلت اللغة توتر المشاهد التي أعقبت ذلك، كالمظاهرات الطلابية، واقتحام الجامعة، واعتقال الطلاب.

يتوقف السرد الحكائي، لتبدأ الشخصيات الحوار، فالحوار ليس وسيلة لكسر الرتابة، وإبعاد الملل عن القارئ، بل له وظائف مهمة، أصبحت غاية في حد ذاتها، يستطيع بها الكاتب كشف حجم التباين، واللا تجانس في مستويات التفكير بين الشخصيات الروائية .

"إن الصوت الواحد في الرواية – بحسب ميخائيل باختين– لا يحقق المتعة للقارئ، ولا يجعل النص الأدبي موضوعياً، إذ يتضح للعيان مدى انحيازه، وتمثيله الكلي لرأي كاتبه، دون عرض الآراء الأخرى المتعارضة معه. فكان وجود عدد من الشخصيات التي لا تحمل نفس توجه الكاتب ورأيه، وسيلة مهمة، تُمكن الكاتب من إيصال رسائل مبطنة للقارئ، تجعله يفكر

بدوره في القضايا المطروحة، ويصل لاستنتاجاته الخاصة، وقراءته الشخصية، ومشاركته في عملية بناء النص، وتأويله، وتحليله[١]".

فأدى وجود الحوار بين الشخصيات، إلى إكساب النص الروائي صفة الواقعية الاجتماعية، وتمثيل الحياة، والبعد عن الانحياز للرأي الواحد. فهو يساهم – كعنصر فني– في بناء الرواية، بما يضيفه من توضيح وتفسير للمشاهد السردية المتنوعة. ويعطي الشخصيات حضوراً مميزاً، وفاعلاً، من خلال علاقة التحاور فيما بينها، بحيث تم توزيعه بما يعطي القارئ فكرة عامة، عن مدى تباين الآراء والمواقف، تجاه القضايا المختلفة، ويدفع الأحداث باتجاه التصعيد والتأزم.

يقول حسن: "دعونا نتمنى أن لا تغلق الحكومة الإسرائيلية الجامعة، لمدة ستة أشهر كالسنة الماضية. رد نبيل: إنهم سيغلقونها، إذا رغبوا في ذلك، فلا يوجد ما يمنعهم من اتخاذ أي ردة فعل على ما حدث [٢]".

عاد السارد ليعلق على الحدث فيقول: "كان عزاؤهم الوحيد الذي يقوي من عزمهم، هو توحدهم في مواجهة هذا الهم المشترك [٣]". لقد نالت الاعتداءات من المجتمع الفلسطيني كله بلا تفريق. فترك الاحتلال بصمته الدامية في ماضيه، واستمر في تشويه حاضره، مثيراً في نفسه الخوف والقلق من المستقبل.

وفي وسط الوجوم المسيطر على الشخصيات، وغرقهم في التفكير، يُقطع السرد بالحوار مرة أخرى، و يصبح وسيلة لنقل الأفكار والمشاعر بشكل مباشر، فاجأهم كمال باقتراحٍ يقول

---

[١] انظر: Language a Novel Idea by Andrew Kingstone www.dialecticoonline.word press.com

[٢] Destined to Die, by Victor Sasson,11

[٣] الرواية السابقة، ص ١١

فيه: " قد تظنون أنني مجنون، ولكن هذا هو الحل الوحيد الذي قادنا إليه العدو، لابد أن نقاتلهم حتى نحقق أحلامنا، ونسترد كرامتنا وإنسانيتنا. هزّ نبيل رأسه باستغراب، ورفض للفكرة، قائلاً: كيف سنقاتل؟ ونحن غير مستعدين وغير مجهزين للقتال؟[١]"

ساعد الحوار على نقل الأحداث من مستوى لآخر، وعلى توضيح مواقف الشخصيات، التي تغيرت مع تطور أحداث الرواية. فنبيل الذي كان يرفض فكرة مقاومة المحتل، بسبب عدم تكافؤ القوى بين الدبابة والحجارة، يتجه للمقاومة، والتضحية بمستقبله الجامعي، فيستشهد في إحدى المواجهات مع الجنود في آخر الرواية.

اشترك الكاتب "إبراهيم نصر الله" في روايته "أعراس آمنة" مع الكاتب"Victor Sasson" في الاهتمام بالمشاهد الوصفية، للأماكن، والحوادث، والأشياء. فكان وصفه مرتبطاً بالفعل والحركة، ولم يكن وصفاً ميتاً، جسد فيه غرائبية المشاهد، التي استطاعت بلغتها تصوير معاناة الإنسان في ظل الاحتلال. وقد امتاز وصفه التحليلي للشخصيات بالدقة، بحيث اعتمد فيه على الحوارات الخارجية، و الداخلية، الكاشفة لبواطن الشخصيات المحملة بشحنات الغضب، والحزن، والتحدي.

تلاعب إبراهيم نصر الله في لغة روايته، فجعلها تناسب شخصياتها المضطربة القلقة، فجاءت بداية الرواية من وسط الحكي، تلتها عودات للوراء، للتعريف بماضي الشخصيات، ثم إكمال تسلسل الأحداث بعد ذلك حتى النهاية. جاءت لوحته الأولى بعنوان " كانت واحدة من الليالي الثقيلة[٢]"، اختزل فيها المعاني العميقة، ذات الدلالات المتعددة، ليصف ليلة، دموية من ليالٍ كثيرة، اعتاد الفلسطينيون صخبها وجنونها.

---

[١] الرواية السابقة، ص١١

[٢] أعراس آمنة، إبراهيم نصر الله، ص ٦

واصلت الراوية رندة وصفها للأحداث، فتقول: "زمن طويل من القصف، قنابل، وصواريخ، ودبابات، وطائرات مروحية، وحتى مقاتلة...[١]". امتلأت الرواية بالحكايات الدموية، المصورة لإزهاق الأرواح، وتكسير الأطراف، وتشريد الأطفال، وهدم المنازل، واقتلاع الحياة من الأرض، بلغة فنية مبدعة، ابتعدت عن البكائية المباشرة، وقدمت مادة حكائيه، أمتعت القارئ، على الرغم من حزن مشاهدها.

اتكأت رندة على علم النفس التحليلي، لتشخيص الموقف أو اللقطة، بلغة صورت العبثية التي خلقها الاحتلال في حياة الفلسطيني اليومية، وأجبرته على محاولة التعايش معها، بطريقة غريبة، "كثيرون صاروا يتباهون – كما في كلّ حرب– بدقتهم في تحديد أنواع الأسلحة، وظل هذا الأمر هو الأكثر قدرة على إثارة دهشتي، فمن يستطيع أن يفرق بين طرقاتٍ قوية على باب، وبين أصوات القنابل في إغفاءة عثر عليها بأعجوبة في نهايات الليل...[٢]".

صورت رندة حلم آمنة، بلغة عكست مدى الانكسارات التي خلفها الاحتلال على الإنسان الفلسطيني، فشوهت حتى خياله و أفكاره. فكأن عمل آمنة مع الأطفال المعاقين، ومعايشتها لحالاتهم النفسية، التي نتجت عن الاعتداءات المتكررة عليهم، فطالت أجزاء من أجسادهم، قد نالت من عقلها الباطن، فجاء حلمها فجائعياً تقول": حين أسير في الشارع أظلّ أتلفّت أمامي، حولي، باحثة عنها: عيونهم! يفزعني تناثر الألوان على بعض الجدران، فأقول لعلها عيونهم. بالأمس جاءوا بعيون زجاجية، خضراء وزرقاء...، عيون صغيرة وكبيرة، عيون ميتة، فزعت وقلت لعلها بعض عيون هؤلاء الأطفال، يقتلعونها، وبعد أن يسرقوا الحياة منها، يعيدونها إليهم، اقترح طفل أن يغمض كل طفل عينه الباقية، ويتناول عيناً عن الطاولة. رفضنا ذلك، رفضنا،

[١] الرواية السابقة، ص ٦

[٢] الرواية السابقة، ص ٦

فأخذوا يبكون، فقبلنا، لكنّ الأمر تحول إلى مأساة حين فتح الأطفال عيونهم ورأينا عينا خضراء إلى جوار سوداء...، ضحكوا في البداية، لكنهم راحوا يبكون بفزع فكأنهم التقوا بأشباح صغيرة تسكنهم دون علمهم، وصحوت من نومي أكثر فزعاً[١] ".

تجسّد هذا المشهد بلغة موحية بالحزن والرعب والألم، واتسم بالإيجاز المكثف، الدال على جدية الموقف، على الرغم من كونه مجرد حلم. خاطب به نصر الله وجدان المتلقي، الذي عاش مع آمنة هذا الحلم المفزع، الذي صور واقعاً أشد مأساوية.

استخدام الحلم، لنقل بشاعة المحتل، ليس من قبيل المصادفة، بل له دلالة عميقة أراد الكاتب تأصيلها في نفس المتلقي. فالقارئ العربي يسمع ويشاهد ما يجري على الأرض، من انتهاكات يومية، عبر الوسائل الإعلامية المختلفة، لكنه لا يستطيع بذلك تخيل مدى بشاعتها، فساعد دمج الحقيقة بالخيال، على تجسيد وقائع الحلم، وعلى خروج اللغة عن شكلها التقليدي والتقريري المعهود، في نقل جرائم المحتل، ضد الأطفال. فأدى ذلك إلى التأثير في المتلقي، الذي يجد نفسه يعيش الحلم المؤلم ذاته، ويتخيل تفاصيله.

ساهمت اللغة الفلسفية في تحليل للمواقف، بطريقة عميقة، تثير معها ذهن القارئ، ليفكر في معانيها اللا محدودة. "لماذا يحلم الناس؟[٢]" تفسر الجدة هذه العبارة عند حوارها مع رندة، بطريقة فلسفية، اكتسبتها من الحياة الطويلة، المليئة بالتجارب "الاستثنائية"، بعبارات مقتضبة تحمل في طياتها مرارة الحرب والحصار، وترسم صوراً بليغة تحلق بالقارئ بعيداً، ليفكر في جدلية الموت والحياة، بمنظور مختلف. فتقول:" لأنهم لا يشبعون من الحياة، يحلمون حتى

[١] الرواية السابقة، ص ٣٥

[٢] الرواية السابقة، ص٨٠

يتخيلوا أنهم ليسوا نائمين، بل مستيقظون، وأن شيئاً لم يضع عليهم[١]". أضحت حياتهم قصيرة، بسبب الغارات والقصف، الذي يحصد في الأرواح بلا هوادة، يموت فيه الأطفال والشباب والكبار، الذين لم يصلوا لتحقيق أهدافهم بعد. فكان لابد من البحث عن بدائل لتعويض هذا القصر، فكان الحلم هو القادر على إضافة عمر وهمي إلى جانب العمر المسروق.

وظف الكاتب الأسماء في نصه بطريقة تخدم الفكرة التي يود طرحها، تقول آمنة:" قلت لهم يجب أن يكون اسمك رحمة، وليس رندة، فقالت لي: أولاً أنا اسمي لميس، ثم هل هناك مكان يمكن أن تعيش فيه الرحمة هنا؟ كنت سأموت قبل أن أولد. انظري إليهم، إنهم يقتلون كل شيء، أتعرفين لماذا؟ لأنهم قتلوا الرحمة أولاً[٢] ". استخدم الكاتب الأسماء لتمرير أفكاره وآرائه، من خلال مناقشة الشخصيات لمعانيها، فالرحمة عنده ليست مجرد عاطفة عارضة، أو وقتية، بل هي بطبيعتها يجب أن تكون خلقاً ثابتاً للإنسانية، وفي ظل هذا الصراع، ووحشية الحروب، فإن أول شيء قتله المحتل هو الرحمة، قتلها في نفوس جنوده، فأضحوا آلات للقتل والإبادة. فالإنسان يكون قد قتل الرحمة في قلبه أولاً، قبل أن يقوم بقتل إنسانٍ آخر.

---

[١] الرواية السابقة، ص٨٠

[٢] الرواية السابقة، ص ٨٦

المبحث الثاني: تقنيات سردية: "Narrative techniques"

موقف الراوي: "Narrator"

إن الرواية هي سرد للحياة، يحاول كاتبها أن يجعل الأحداث تسير بطريقة تلقائية، كتلقائية الحياة نفسها، بعيداً عن التكلف والاصطناع المقيت. يزاوج فيها الروائي بين متخيله السردي، والواقع المرجعي الذي يكتب عنه، بلغة أدبية قادرة على رصد أفكاره، ومناقشة القضايا الإنسانية المختلفة.

فالرواية هي "الإطار، من حيث هي وعاء يحتضن الحكايات، فلا تقتصر الرواية على حكاية واحدة تُبنى وفق قواعد الحبكة والمدخل والحل[(١)]". فهي عبارة عن مجموعة من القصص الصغيرة المكونة للوحة الكبيرة العامة، وما يُسهل تداخلها وانسجامها، وربما غرائبيتها، هو السارد، الذي يتنقل من حكاية لأخرى، ويعرض الأحداث والشخصيات، بطريقة تُضفي طابعاً مميزاً، على الحكاية التي يسردها. ولكل حكاية راويها، الموجود في كل زمان ومكان، لا يموت بموت كاتبها، جاهز لسرد حكايته بمجرد فتح القارئ لصفحات الرواية الأولى، "فنفتح الرواية على الراوي/ الشاهد ونغلقها به أيضاً[(٢)]".

[(١)] الرواية السياسية، طه وادى، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ص ١٣١

[(٢)] تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، ص٢٠٧

تطور مفهوم الراوي، مع تطور الفن الروائي نفسه، واتخذ عدة أشكال ومسميات، تختلف باختلاف الطريقة التي اتخذها في نقل حكايته. "فقد يكون راوياً مشاركاً، أي أحد أبطال الرواية، أو راوياً كلي العلم، أو الشاهد على الأحداث، أو قد يعتمد الكاتب على أكثر من راوٍ، يروي كلّ منهم جزءاً معيناً من الرواية[١]". فكان اختلافهم يكمن في قربهم أو بعدهم من الأحداث والأقوال التي يقدمونها.

إن الرواية هي مجموعة من الأحداث، المرتبطة بعضها ببعض، والمتعلقة بشخصيات تتفاعل فيما بينها. لكن صيغة السرد هي: "الطريقة التي يعرض بها الراوي قصته، وتقوم على صيغتي العرض والسرد. فعندما تتكلم الشخصيات تسيطر صيغة العرض، ويكون الأسلوب مباشراً، أما إذا تداخل صوت الراوي مع أصوات الشخصيات فإنه يجمع بين صيغتي العرض والسرد[٢]".

للراوي قدرات خفيه، تمكنه من تقديم رأيه، بطريقة غير مباشرة، بغية إقناع المتلقي بأمر معين، وفكرة محددة. فلا يقتصر عمله على تقديم العالم الخيالي- الذي صنعه المبدع- والموازي للعالم الواقعي، الذي يعيشه الناس، بل يعمل على استفزاز عقل المتلقي، الذي يشعر باللذة عند توصله للمعاني المخبأة بين السطور، وفهم الرموز الغامضة، التي ينطوي عليها النص.

عينت سحر خليفة في روايتها" ربيع حار" راوي كلي العلم، قادر على وصف الجو الخارجي والداخلي للأحداث والشخصيات. نقل لنا صورة الجندي الإسرائيلي، بعيني سعاد عبر المونولوج الداخلي، عندما أوقفها في إحدى نقاط التفتيش. "نظرت إليه ونظر إليها وظل شاهراً

---

[١] المرجع السابق، ص ٢٨٦

[٢] مكونات الخطاب السردي مفاهيم نظريه، الشريف حبيلة، ص ١٧

سلاحه لا يتحرك. أرادت أن تقول له و تحكي معه، لكنه بهذا السلاح، وبهذا اللباس، وطاقية حديد ودبابة كان غريباً[١]". جاء ذكر الجندي على لسان سعاد مقتضباً، يحمل دلالات ومعاني عميقة جداً. فإشارته لسلاح الجندي ولباسه لم يكن اعتباطياً، فقد أوحى الوصف، أن الطاقية الحديد، أصبحت عنصراً محورياً في شخصية الجندي الذي أخذ شكل الآلة الحديدية، فأصبح غريباً عليها وعلى الإنسانية.

نلمس انحياز السارد الكلي لقضيته – قضية الإنسان الفلسطيني المعذب – من خلال رصده لدموية الأحداث، التي تركت أثرها السلبي على الشخصيات، فأصابتها بتحولات نفسية كبيرة، كالتحول الذي أصاب أحمد ومجيد بسبب تأزم الأوضاع.

كشف السارد عن الأسئلة الوجودية، التي تزاحمت في نفوس الشخصيات، بسبب ظروف الصراع، بطريقة إبداعية، قامت على طرح الشيء ونقيضه. فناقش مفهوم الحرب والسلام، والوطن والتضحية. وعرض للحب الذي يعصف بقلب المرأة، حتى في أسوأ ظروفها، وحالاتها، وعلاقتها المتغيرة مع الرجل، في المراحل التاريخية المختلفة للقضية، وبحثها الدائم عن حريتها وحرية وطنها.

تنوعت الضمائر المُستخدمة في الرواية، فكان ضمير الغائب هو الأكثر استخداماً، عند رصد الأحداث، يليه ضمير المتكلم عند حوار الشخصيات، بحيث يتنحى السارد تاركاً المجال للشخصيات لتعبر عن نفسها بشكل مباشر .

"استفاق على خشخشة، وحركة غريبة، صدمت عينيه المغبشتين بغمام النوم لمبة شحيحة. كانت اللمبة في الخارج، في ممر الحديقة، خلف الدار. وهذا يعني أن باب الغرفة مفتوح ولهذا

---

(١) ربيع حار، سحر خليفة، ص ١٨٠

يحس بهذا البرد...[١]". نُقل المشهد بواسطة السرد الوصفي، واستعمل ضمير الغائب، ليصف حالة أحمد، في ليلته الأولى في رام الله، وقد ساعد استخدام هذا الضمير في الفصل بين زمن الحكاية وزمن الحكي، فالسارد نقلت لنا الأحداث بعد وقوعها .

أما إذا أراد السارد التوغل في أعماق النفس وتعريتها، وكشف أفكارها واعترافاتها، فإنه يلجأ لضمير المتكلم، فيقدم الشخصيات كما هي لا كما ينبغي أن تكون. "سأل والد مجيد أبو سعاد قائلاً: يا أبو سعيد مين أحسن للناس والقضية، نفقد النص أو نفقد الكل؟ صاح المحامي بعصبية: يعني الوطن ذبيحة تنباع بالرطل والكيلو و الوقية؟ الوطن غالي ما ينباع . لكن قادتنا البياعين قاعدين يفصلوا على مقاسهم. هز والد مجيد رأسه وقال بأسى: هو في الحقيقة ما ظل ولا شيء، أخذوه كله. لكن لو تعلمنا نشتغل مظبوط ونتكتك صح كان ممكن ناخذ شيء منهم...[٢]".

نقل السارد هذا الحوار، ليكشف حجم التباين في الآراء والمواقف، بين من عاشوا تفاصيل الاحتلال اليومية، وبين من يُنظّر ويتحدث باسم القضية والشعب، وهو أبعد ما يكون عن معاناتهم. يعمل المحامي سعيد في الأردن، فابتعد عن الناس وآلامهم ولم يعد يشعر بهم. فهو يرمز لشريحة من المجتمع الفلسطيني، الذين يدافعون عن الوطن قولاً لا فعلاً، و يختبئون وراء إنجازات غيرهم، وينسبونها لأنفسهم.

فاقتصر دور السارد هنا على نقل الحدث، مفسحاً بذلك المجال للشخصيات، لتطرح أفكارها مباشرة، وتصدر أحكامها الشخصية على ما يجري. "فعند نقل الحوارات، فإن الراوي

---

[١] الرواية السابقة، ص ٧٤

[٢] الرواية السابقة، ص ٣٣٩

يسرد من منظور الشخصية، فتأخذ الرؤية السردية، طابعاً ذاتياً داخلياً[١]". فيسهل عليه، أي الكاتب، تمرير أفكاره للقارئ، بصورة تكاد تكون خفية، ومقنعة، لصدورها من الشخصية ذاتها .

قدم السارد نوعاً آخر من الحوارات، " يطرح فيها أقوال الشخصيات، إلى جانب تأطيرات الراوي[٢]". فالسارد لم ينقل حوار الشخصيات كما هو بل نقله بتصرف. " قال الوالد: خير إن شاء الله ليش طلياني؟ قال مجيد: في السوق بوط طلياني يأخذ العقل"، وهو يريد أن يبهرهم، فالغناء الجميل لا يكفي، ولجنة التحكيم ستلاحظ كل التفاصيل. "وتلاحظ البوط الطلياني؟ سأل الوالد" لم يجب مجيد وظلّ يحدق في أصناف الأكل من دون أن يلمس شيئاً[٣]".

أما السارد في رواية A Little Piece of Ground by Elizabeth Laird فقد كان منحازاً للإنسانية بصفة عامه، مركزاً على قسوة الحرب، التي سرقت عمر الطفولة، ورمت به في غياهب العنف و المعاناة والحصار. رصد بدقة آثار كل ذلك على الفلسطينيين، لكنه لم يبرئ ساحتهم تماماً، فهم مشاركون في أسباب الحرب، من خلال ما يقومون به من تفجيرات، مستهدفين بها التجمعات الإسرائيلية.

نقل السارد اعترافاً على لسان الجد يقول فيه: "إن الإسرائيليين كباقي البشر، يحملون الصفات الإنسانية، بكافة تبايناتها وتناقضاتها. فيهم الجيد والرديء، والمحب للسلام والساعي للحرب. لكن ظروف الحرب هي التي تُجبر الإنسان على إظهار أسوأ ما فيه، و يتخلى عن إنسانيته، لعلمه أن لا مجال للتعاطف، فلو تتبدل الأدوار، ويصبح الفلسطيني هو الأقوى فسيفعل

---

(١) تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، ص٢١٥

(٢) المرجع السابق، ص٢٦٩

(٣) ربيع حار، سحر خليفة، ص ٥٤

كما يفعل الإسرائيلي[١] ". تضمن هذا الحوار البسيط أفكاراً عميقة، نقلها السارد إلينا تاركاً بذلك الحرية للقارئ ليفسر ويؤول ما يُحكى له.

لم تضع الكاتبة تقييمها الخاص للأمور بطريقة مباشره، بل لجأت إلى طرح الأفكار بلسان الشخصيات، بحيث يختبئ تقييمها الشخصي خلف كلماتهم، ليصل المتلقي بعد ذلك إلى الحكم الذي تبنته. "فالكاتب الجيد يستطيع إقناع قارئة بوجهة نظره بطريقة ذكية بعيدة عن المباشرة[٢]".

يواصل السارد عبر لغته الوصفية، ذكر همجية الجنود، واعتداءاتهم المستمرة، التي بثت الرعب في نفوس الأطفال فيقول: "حدث انفجار في مكان ما، بالقرب من المدرسة، سرت في جسده قشعريرة، أصبح معتاداً عليها، لكثرة المواقف المخيفة، التي يتعرض لها، تطاير الطلاب عن مقاعدهم، أصابتهم قطع الزجاج المتطاير بجروح، و أثارت الرعب في نفوسهم[٣] ". صور بلغته الواضحة، أجواء الأزمة النفسية، التي يتصارع فيها حلم الطفولة الجميل، مع الواقع الصادم المحبط.

اشترك السارد هنا – من حيث تنويعه في الضمائر– مع السارد في رواية سحر خليفة. فاستخدم ضمير الغائب والمتكلم، بحسب المشهد أو الفكرة التي أراد نقلها. بالإضافة لكونه كلي العلم، يرى شخصياته، وينقل تحركاتهم بصورة متقنة، ويسمع خلجاتهم، وتضارب مشاعرهم.

"يمشي كريم ببطء بعد خروجه من المدرسة، ثمة أطفال يسيرون أمامه، تبعهم فابتعد شيئاً فشيئاً عن منزله، لأول مره يبتعد عن المنزل بهذا القدر، مشى حتى صعد لرأس التلة المطلة على المخيم، لقد مر أكثر من نصف قرن، منذ إخراجهم من بيوتهم، و قيام دولة إسرائيل على

(١) A Little Piece of Ground, Elizabeth Laird, p63

(٢) Aspects of The Novel, E. M .Forster, p79

(٣) A Little Piece of Ground, Elizabeth Laird, p126

أرضهم. يتذكر كريم ما قالته أمه عن سكان المخيمات، غالبيتهم بلا عمل، زاد الاحتلال من معاناتهم، فعاشوا في بيئة عشوائية، تفتقر لأدنى المقومات الإنسانية[١]". نقل لنا المشهد بضمير الغائب، فهو محيط بالأحداث، عالماً بها، لم يكتفِ بنقل تفاصيل المشهد الدقيقة، بل علق عليه، فتميز صوته عن صوت كريم عندما قال: "لقد مر أكثر من نصف قرن، منذ إخراجهم من بيوتهم، و قيام دولة إسرائيل على أرضهم"، مع محافظته على العلاقة بينه وبين قرائه، داخل فضاء النص.

نقل السارد التفاصيل الداخلية والخارجية للمشهد التالي، بلغة الخوف، التي نقلت حالة الفزع والصمت، والوحدة والاختباء، والارتباك والضعف. فكأن شعور كريم الداخلي المضطرب، قد انعكس على الجو الخارجي، فأضحى شديد البرودة لا يرحم. "كان الجو بارداً جداً، وجد كريم ملابس لصديقه جوني، مخبأة في السيارة فلبسها، لعلها تمد جسده الصغير بالدفء، وعندما اشتد به الجوع، أكل من بقايا الطعام، الذي أحضره قبل بضعة أيام، ليطعم به القطة وصغارها[٢]".

أشار السارد في ومضة سريعة خاطفة، إلى الجندي الذي لاطف قطة كريم وضحك. "عندها أحس كريم أنه يشبه أخاه جمال...[٣]" لم يبدي السارد وجهة نظره مباشرة، حول موقف بعض الجنود الرافضين للحرب، أو من يحملون موقفاً محايداً، ضد ما يحدث، اكتفى بوصف لمظهره الخارجي كإنسان، مستعملاً بعض الكلمات التي ترسل للقارئ ما يريد هو قوله، بصورة غير مباشرة.

---

[١] الرواية السابقة، ص ٢٦

[٢] الرواية السابقة، ص ١٧٨

[٣] الرواية السابقة، ص ١٧٩

الساردان في الروايتان، لم يكتفيان بتقديم الحدث كما هو، بل تعمّدا ترك انطباع لدى المتلقي، من شأنه أن يعمّق من إدراكه للقضية، مبتعدان بذلك عن الأساليب التقليدية المباشرة. فأحالا الشخوص والأحداث والأشياء إلى رموز، ووسيلة هذه الرموز، وأداة تلاحمها مع بعضها، هي اللغة الوصفية المنسابة، القادرة على جذب المتلقي، وشد انتباهه.

بدأت رواية "ماء السماء" ليحيى يخلف، بتصوير الهجرة الفلسطينية عام ١٩٤٨م. حيث بدأ الراوي، وهو الطفل راضي، بسرد حكاية الخروج –التي كان شاهداً عليها– من القرية الآمنة المطمئنة "سمخ" إلى العراء، ثم التوجه بعد ذلك إلى المخيمات في إربد. أثاره الفضول من زوايا متعددة، ونالت الغربة النفسية منه، وألح عليه القلق، لمراقبة الحياة من حوله، علّه يجد ما يُهدئ خاطره، عندما يجد من يشاركه المصاب نفسه.

وعى الراوي "راضي" شخصيته، بالإضافة إلى وعيه بالشخصيات المشاركة معه. فتمكن من الدخول لعوالمها، وتحليلها، وتقديمها للقارئ بما تحمله من آلام وآمال، و تناقضات، ومفارقات، كانت نتيجة طبيعية، أفرزها ذلك الواقع الرديء.

" في الليل، يعد راضي النجوم، على الرغم من أن العمة حفيظة حذرته من ذلك، فهي ترى أن من يعد النجوم، تظهر على بدنه الثآليل بعدد النجوم ...[١]". هذا المقطع يدل على أن الراوي هو الكاتب نفسه، وأن هذا الموقف مقتطع من مخزون ذاكرته، المحملة بذكريات الخروج، التي ألحت عليه حتى بسطها في رواية، تعتبر سيرة شخصية، وإن لم تكن كل الأحداث متماثلة تماماً مع ما عاشه، فامتزج فيها الواقع بالخيال.

اعتمد السارد على ضمير الغائب، الذي يسوق الحكي للأمام، انطلاقاً من الماضي. فكان سرده يمتاز بالصدق والعفوية والسلاسة، وأحداث روايته جرت في أماكن عرفها جيداً، كسمخ،

---

[١] ماء السماء، يحيى يخلف، ص ٩

وبحيرة طبرية، والأغوار ثم المخيم في إربد. وقد ساعده صغر سنه، على رصد كل الحوادث الدقيقة من حوله، دون أن يلحظ وجوده أحد.

صهلت الأصيلة بصوت مفزع في إحدى الليالي، ودقت بسنابكها الأرض، محدثة ضوضاء في الحظيرة، فزعت العمة حفيظة وبدرية و فطيمة، فاتضح بعد ذلك أن حشرة القراد قد حطت بكثافة على جلدها. تذكر راضي أن أحداً لم يغسل هذه الأصيلة منذ أكثر من شهر، أخذتها العمة لتغسلها في النهر. "أثناء غسل الأصيلة عملت بدرية بنشاط، وحاولت أن تعبث وتلعب، دون أن تلاحظ المرأتان، وحده راضي لاحظ كيف كانت تملأ كفيها بالماء، وتدلقه على جسد الفرس، وتترك قليلاً من الماء يندلق على صدرها، كأنها هي بدورها تريد أن تتعرى و تتبرد، كأن شيئاً من الصهيل على وشك الانفجار داخل جسدها.. [١]".

نقل السارد المشهد الخارجي، بتفاصيله الدقيقة، وقدم تحليلاً نفسياً، يفسر سلوك الشخصيات المبهم. فخروج بدرية من ديارها، ومكوثها في العراء، ولد في داخلها صهيلاً يشبه صهيل الفرس، فأرادت أن تتحرر من غربتها، وتحطم كل قيودها لتعود للوطن.

رصد راضي إحساسهُ، كلاجئ صغير، مرّ بمراحل مترعة بالحزن والأسى، أخرجته من طفولته، ليجد نفسه بين ليلة وضحاها، رجلاً مسئولاً عن والدته وأخيه ومن يطلب المساعدة من اللاجئين. " لم يودعه الحاج حسين، وإنما قال له فقط: منذ الآن أنت رب هذه الأسرة، وعليك أن تتصرف كرجل. قالها بحنان بالغ، أو بقسوة جارحة. المهم تلفظ بكلمات كان عليه أن يتخيل كم هي كبيرة...[٢]"

---

[١] الرواية السابقة، ص ٢٢

[٢] الرواية السابقة، ص ١٢

إن السمة البارزة في الرواية، هي عزفها على الوجع الإنساني، وجع اللاجئين، الذين فرقتهم هبوب رياح الاحتلال، وألقت بهم في المكان الجديد - الخيام والعراء- الذي استوعبهم بعد ضياع الوطن.

فكانت التحديات الجديدة، والصعاب، هي الرفيق اليومي، الذي لازم كل شخصيات الرواية. فحرص الراوي- بحسب السلطة الممنوحة له- على كشفها، و تقديم وثائق نفسية عنها. كان يجلس على هامش المجلس، يستمع للمقاتلين، العائدين من الحرب، لم يُشعر أحداً بوجوده، فهو حاضر غائب، يراقب ويسجل كل ما يراه ويسمعه.

" اندس راضي بينهم ليسمع، بدأ حديثهم بوصف الأهوال والمصائب وخيانة الحكام... منذ الآن ستأكل الغربة طبقات من أقدامهم، منذ الآن سيعرفون مذلة الغربة، ومرارة الشتات ... من الآن يتبدد أهالي بلدنا ويتوزعون في المنافي ... هكذا قال الحاج حسين بصوت يشبه الندب، فكأنه يؤبن نفسه، ويعلن عن وفاة كل ما مر به من جمال وفرح[١]".

قدم السارد هذا المشهد، عن طريق الوصف التسجيلي التحليلي، ليكشف من خلاله المستويات النفسية للشخصية، وما أحدثته الحروب فيها. فقد حملت كلمات الحاج حسين، رؤيته، لما سيحصل للفلسطيني، بعد حياة العز في بلاده. فالحاج حسين كان عزيزاً في قومه، ومن أصحاب الأملاك والثراء، تغيرت حياته بشكل كبير بعد الخروج من الوطن، فعاش الذل بعد العز، فأصبح حارساً لحديقة أحد الأغنياء الذين يسكنون بالقرب من المخيم.

عني السارد برصد المشهد الفلسطيني كله، بأبعاده، ودلالاته، ورموزه، متخذاً من العائلات الفلسطينية، التي ركز عليها عدسته، نموذجاً مصغراً، لملايين اللاجئين، الذين عاشوا المعاناة

[١] الرواية السابقة، ص ٢٧

نفسها. فرصد الحدث اليومي الطازج، الذي عاشته الشخصيات، والعذابات النفسية، التي طالتهم. واقع كريه، لكن عليهم التأقلم معه سريعاً، وعدم الالتفات للماضي أو البكاء عليه.

"كان رأي الحاج حسين أن يذهبوا إلى المدينة بحثاً عن عمل، لم يقل أحد ما يخالف هذا الرأي...(١)". ربما أراد الراوي بذكره التفاصيل المؤلمة لهؤلاء اللاجئين، أن يُذكر القارئ بأن هؤلاء ليسوا أبطالاً خارقين، قاتلوا العدو، ورابطوا، وبعد خروجهم من الديار، تأقلموا مع الحياة، ونسوا! . فاللاجئ إنسان قبل كل شيء، عانى ويلات الخروج، و تناسي العالم له، قاتل على جبهات متعددة، تحدياته اليومية لا تنتهي، يحمل في داخله أمنيات وأحلاماً بالرجوع، يهرب دائماً من لحظته الآنية للماضي، لكنه لا يمكث فيه كثيراً لصعوبة حاضرة .

صور لنا الراوي قصة اللجوء بتفاصيلها الحزينة، لكونها فاجعة لم تنل من الإنسان الفلسطيني فحسب، فكل شيء ينتمي للفضاء الفلسطيني شهد تحولاً، وذاق مرارة الاحتلال. فلم تسلم الأرض من الحرق والنسف، ولم يسلم الحيوان من ملاقاة المصير نفسه.

ذاق الكلب أبو فروه مرارة الغربة والذل، خارج الوطن، فتغيرت حياته وتبدلت. "لم يكن يُعاشر الكلاب الضالة، كان كلباً للزينة والتباهي، لم يُطوق عنقه، ولم يُربط بسلسلة، كان المدى الفسيح مضماره، وحياة أهل البيت مجاله...كان ذلك في زمن البلاد الجميل، ولى ذلك الزمن وصار الذيب أبو فروه لاجئاً مع اللاجئين(٢) ". نجح السارد في توظيف "الاستباقات بطابعها المستقبلي التنبئي(٣)"، التي من شأنها أن تُثير فضول القارئ، وتجعله يتوقع منذ البداية، مأساوية ما سيحصل، بلغة تراجيدية، مكتوبة بحرفية عالية، أعملت خيال القارئ، وأثارت وجدانه.

(١) الرواية السابقة، ص ٤٥

(٢) الرواية السابقة، ص ٤٦

(٣) تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، ص٢٦

كان للسارد القدرة على نقل الأجواء الحميمة بين الشخصيات، التي استطاعت بحرارتها، أن تذيب ثلوج الغربة المحرقة. ففي ليلة باردة، تنبأ الجميع بتساقط الثلوج، "كانت خديجة تفكر بالحاج حسين، وهي تعمل، كيف سيتدبر أمره في هذه الليلة، التي ليس لها قلب، كانت تفكر فيه حين طرق الباب، قلما يطرق الباب في مثل هذا الوقت، فتح راضي الباب، أطلت بدرية، ومن ورائها الحاجة أم إبراهيم، أطلت تسبقها ضحكتها العالية، المليئة بضجيج الحياة، انتشرت في البيت رائحة الفرح، وعلى الرغم من صوت بابور الكاز، فقد كان صوت بدرية يعلو على كل صوت[١]".

كان لغناء بدرية بحواسها، وجوارحها، الأثر في جعل خديجة وحفيظة والحاجة أم إبراهيم يُحلقن بعيداً، فيعبرن الصحارى والتلال والوديان ويعدن للوطن. "غنت، واحتشدت في عينيها الدموع، فكأنها تغني لحالها، وترثي سنوات عمرها، وتتحسر على زمن حلو رحل ولم يعد[٢]". عرف الراوي/ راضي، ما يدور في خواطر هؤلاء النسوة، وماذا تخيلن، فقد أدرك أن التداعيات، والذكريات الحزينة، رغم كل الجمال الموجود فيها، قد انهالت كالمطر، وأن عواصف الأشواق والحنين قد عصفت بقلوبهن، فعاشت كل واحده منهن في منفاها الخاص. "لعلهن تذكرن الأحباب الذين رحلوا، والبيوت التي هجرنها، والشرفات، التي كن يطللن منها، على السماء والبحيرة..[٣]".

اكتفى الراوي – في بداية الرواية – بنقل الأحداث، ومحاولة التعليق على بعضها، وترك بعضها الآخر للقارئ، ليفسرها بطريقته الخاصة. تغير دوره بعد ذلك، فأصبح مشاركاً في الأحداث، وصاحب رأي واضح، وموقف محدد.

---

(١) ماء السماء، يحيى يخلف، ص ٧٨

(٢) الرواية السابقة، ص ٨٦

(٣) الرواية السابقة، ص ٧٨

"ظل راضي موزعاً، مرتبكاً، يبحث عن يقين، وعن سكينة روح، وراحة نفس، ظل خلال الأسبوع الأول شارد الذهن، يقرأ السطور في كتابه ولا يفهمها، كان يخجل من جبنه وتردده، لم يستوعب فكرة أن ينضم لعمل سياسي بعد[١]".

اتضحت رؤيته بعد أن شارك في الأحزاب المنادية بالقومية. وصف المظاهرات التي شارك فيها، ومدى الخيبات المتتالية، التي يتعرض لها إنسان المخيم، في كل مرحلة من المراحل التالية لعام النكبة. كان لكلامه مصداقية عند القارئ، لأنه عاش هذه الأحداث، وكان شاهداً عليها.

أسندت الكاتبة Barbara Goldscheider مهمة سرد روايتها AL Naqba لراوٍ عليم، أودعته في نصها، فاستطاع رصد أهم الأحداث، في حياة الشخصيات الرئيسية. فوصفهم بهندسة محكمة، وإيقاع موظف، يدفع بالأحداث نحو التأزم، قاصداً بذلك إقامة المقارنة والمفارقة، بين رؤية وفكر الشخصيات، تجاه الأوضاع الدموية، التي يرزخ تحت نيرها الطرفان منذ عقود.

إن العلاقة بين النصين الأدبي والسياسي معقدة جداً، فهو تضارب بين ضدين، لكن الكاتبة أبدعت في التوفيق بينهما، بلغة أدبية جميلة، متخذة من الأحداث السياسية، في زمن محدد، وهو الانتفاضة الثانية، مرتكزاً لها، محاولة بذلك رصد آثار الحرب والعنف على كلا الجانبين.

أضفت الكاتبة الحيوية والواقعية على روايتها، فتعددت أنماط الرؤية "Viewpoints" في الرواية، فلم يقتصر سرد الأحداث على الراوي فقط، بل ساهمت الشخصية الرئيسية في نقل بعض الأحداث وتحليلها." فقد يعتمد الكاتب عند نقله الأحداث، على الراوي كلي العلم

---

[١] الرواية السابقة، ص ١٤٢

"Omniscient"، أو يعتمد على الشخصية الرئيسية، فينقل الحدث من خلال وجهة نظرها النفسية Psychological Angle"[١]".

بدأت الرواية بسرد عن الشخصية الأولى، وهو الضابط "Neyri". يصف السارد القاعدة العسكرية التي يعمل بها، ويصف لباسه العسكري، ثم يُقطع السرد بالحوار، عندما توقف "Neyri" عند البوابة، "فسأله الموظف: هل تريد زيارة أحد في القاعدة الأخرى؟ فأجاب الضابط: بأنه يريد رؤية أخيه " Omri" قبل انصرافه[٢]".

وصف الراوي المكان الخارجي الذي دارت فيه الأحداث، ثم أخذ يُقرب عدسته من الشخصيات، لينقل المشهد بدقة تمكن القارئ من معرفة علاقة الضابط بعمله، وتفانيه في خدمة وطنه. يتضح ذلك من خلال ذكره عدم التقاء الأخوين، لمدة تزيد عن الشهرين، بسبب انشغال "Neyri" بعمله في تدريب الجنود في المعسكر[٣]. فاعتنى بالسرد والوصف معاً، بشكل يحقق نوعاً من التكامل والانسجام، في المشهد الروائي، دون أن يختل النظام العام للنص.

كان للسارد هدف غير معلن، من وراء اهتمامه بوصف التفاصيل الخارجية للبطل "Neyri". فكان لوصف لباسه، وعرض منكبيه، ووسامته، وحسه الإنساني، الأثر في تشكيل انطباع إيجابي عنه عند المتلقي، فيتمكن من رؤية "الجندي" بشكل مغاير لما هو معروف عنه.

تمكن الراوي من ذكر التفاصيل الداخلية والخارجية للشخصيات، عبر تقنيات السرد والمونولوج والبوح والاعتراف والحوار. انتقل من وصف خارجي للضابط وأخيه في القاعدة العسكرية، ليدخل في عالم الشخصية " Neyri" أكثر، راصداً نوبات القلق والتوتر التي أرهقته،

---

(١) The Technique of The Novel,Thomas,H.Uzzell p164

(٢) AL Naqba by Barbara Goldscheider ,4

(٣) الرواية السابقة، ص ٤

فذكريات الحرب تأسره، وتناقضات أبجدياته زادت من معاناته. يقارن في مونولوج داخلي بين ما كان عليه، وبين ما أصبحه اليوم، فعدم التزام حكومته بأدبيات الحرب، جعله يقرر ترك العمل، ليبتعد ويخرج من دائرة العنف[١].

صور الراوي تماسك الأسرة الإسرائيلية، عند ذكره العلاقة القوية التي تربط الجد بحفيده. فقد كان "Neyri " ينال محبة واهتماماً من جده، منذ أن كان طفلاً. تعلم منه حب الحياة، والأمل في المستقبل، وتجاوز المصائب بالصبر، ومقاومة اليأس، والتمسك بالحياة على الأرض المقدسة.

لا تزال ملامح الحزن المرتسمة على وجه الجد، عند موت ابنه في الحرب اللبنانية الإسرائيلية، حاضرة في ذهن "Neyri"، مشهد مؤلم، وشعور غريب بالفقد، تمنى" Neyri" أن لا يتكرر أبداً، لكن تفاصيل الحزن عادت مرة أخرى في حياته، عندما وقع الجد ضحية انفجار، استهدف وسط المدينة.

أبدع السارد في نقل كافة التفاصيل الصغيرة ليوم الحادث، بلغة وصفية منسابة قادرة على شد المتلقي، وجعله يتوقع حدوث شيء ما، فكأنه مشهد سينمائي محكم الإخراج والتصوير. بدأ باستيقاظ الجد في الصباح الباكر، واستمتاعه بشرب قهوته كالعادة. انتهى من رسم لوحته – لوحة القدس الشريف– و تركها على طاولة الطعام لتجف. كان يفكر في حفيده Neyri ، فقد رسم هذه اللوحة ليهديها له. خرج من منزله يمشي بهدوء، يتأمل الشوارع والأبنية، يتنفس الهواء النقي بعمق، يملأ به كل جزء من أجزاء بدنه، ثم ذهب للسوق، لشراء بعض

(١) الرواية السابقة، ص ٦

المستلزمات. كان ينظر للمدينة المقدسة، من خلال نافذة المحل الزجاجية، كان هذا آخر منظر رآه، قبل أن تنفجر قنبلة، لتودي بحياته وحياة العشرات ممن كانوا معه في نفس المكان [١].

استطاع السارد أن ينقل حجم معاناة الإسرائيلي في تلك الفترة. أمان مفقود، نتجت عنه الاضطرابات النفسية المختلفة، التي أدت إلى تفاقم المشكلات الاجتماعية الأخرى، كالطلاق، والبطالة، وتدهور الأوضاع الاقتصادية والتعليمية.

أراد السارد من نقله معاناة الإسرائيليين، أن يُكسب أعمال الجنود الشرعية، فما يقومون به من إجراءات أمنية، هدفها حماية دولتهم وشعبهم. فقد كانوا على استعداد دائم، لمنع أي عمليات "إرهابية" قد تستهدف المجتمع الإسرائيلي." تكتظ الشوارع في أوقات الأعياد الإسرائيلية بالجنود، لحماية المدنيين من عمليات التفجير، التي قد تستهدفهم في أماكن تجمعهم واحتفالهم، مما يحرم الجنود من مشاركة عائلاتهم الاجتماع والاحتفال[٢]".

تنوعت طرق العرض القصصي في الرواية بين الرسائل، و الوثائق التاريخية، والسرد، وتيار الوعي "المنولوج الداخلي"، فكان لها الأثر في خدمة النص، وإضفاء الحيوية عليه. " إن عرض الراوي للرسائل المتبادلة بين الشخصيات، يسمح بمعرفة أحاسيسها الغامضة، ويُمكنها من التعبير عن مواقفها بحرية وانطلاق، و توقع النتائج قبل حصولها[٣]". كالرسالة التي كتبها "Neyri" لصديقه "Dived" يصف فيها إحساسه العميق بالحزن والأسى، بسبب تزايد العنف، وانتهاك الإنسانية، فهو لا يتوقع هدوء الأوضاع واستقرارها لذلك قرر الابتعاد

[١] الرواية السابقة، ص ١٧

[٢] الرواية السابقة، ص ١٨

[٣] مناهج تحليل النص الأدبي، إبراهيم السعافين وآخرون، جامعة القدس المفتوحة، ط١، ١٩٩٣م، ص ٢٩٣

والسفر[١]. ساعد استخدام ضمير المتكلم في الرسالة، على إضاءة الأحداث، وتقديمها بشكل يشرح موقف الشخصية، وتوقعاتها المستقبلية لصيرورة الأحداث.

لم يقتصر دور الراوي على تقديم الأحداث كما هي، بل علق عليها، فتميز صوته عن أصوات الشخصيات الأخرى. كعلو صوته على صوت "Jacky" عند حديثه، "عن جمال القدس بتنوعها الديني، و روحانيتها، التي شوهتها أصوات التفجيرات، وكسرت سكونها[٢]".

يملك أيضاً وظيفة التنسيق بين الشخصيات في الظهور، بحيث يستطيع – بحسب السلطة الممنوحة له– أن يُكثف من ظهور الشخصية التي يكون منحازاً لها ولآرائها، فيعطيها مجالاً أكبر لتعبر عن آرائها، وتصف معاناتها. لا يسرد كافة تفاصيل حياتها، أكلها، وشربها، لكنه يختار أفضل ما فيها، ويبرزه بصورة مكثفة، وبأكثر من طريقة. فكان منحازاً للشخصيات الإسرائيلية، جاعلاً لها مساحة أكبر في الرواية، ليؤكد على حبها للسلام والتعايش مع الفلسطينيين.

ركز السارد هنا على ثنائية الثابت والمتحول، من خلال تأصيله العلاقة التي تربط الإسرائيلي بأرضه "فلسطين"، فهي علاقة ممتدة منذ القدم، لن يتنازل عنها مهما تعاظمت خسائره. يتضح ذلك عند مقارنة الجد عبر "المونولوج الداخلي" بين حياته خارج فلسطين وداخلها، فقد عاش في ألمانيا، حياة امتلأت بالحزن والألم، جعلته يسير تائه الخطى بلا هدف، إلى أن وصل لأرض فلسطين، فتغيرت حياته، و تجدد أمله، واتضحت رؤيته، وزاد إيمانه بأنه لا يملك شرعية للعيش في أي مكان غير "وطنه" فلسطين.

---

[١] AL Naqba, Barbara Goldscheider,p87

[٢] الرواية السابقة، ص ١٠٨

انتقل الراوي للحديث عن أثر الاحتلال على الذات الفلسطينية، متمثلة في "عيسى"، الذي بدا واعياً بالقضية، متكيفاً مع ظروفها، ومقتنعاً بعدم جدوى العنف مع الآخر الإسرائيلي، لأنه يُستخدم كذريعة، تعطيهم الحق في رد أقوى، يدفع ثمنه الفلسطينيون الأبرياء.

يصف السارد– وهو العليم بكل شيء– شكل عيسى الخارجي ولباسه عند ذهابه لمنزل صديقه البروفسور الإسرائيلي "David". صوّر الشوارع بدقة بالغة، فكأنها مألوفة لديه و يعرفها جيداً. رصد بعد ذلك مشاعره المتضاربة بين الانتماء والاغتراب فيقول: "كان يسير في شوارع القدس، أنعش النسيم العليل روحه، وأيقظ حبه المدفون للأرض المقدسة. مرّ بجوار "فيلا" لأحد السكان العرب، منزل كبير به حديقة جميلة، محاصر بالبنايات الإسرائيلية من كل جانب، عاد بذاكرته للوراء، حين طرد الجنود عائلته من منزلهم القديم في القدس، ليحل المسرح الإسرائيلي للفنون محله[١]". يشعر عيسى بغربته داخل أرضه، لقد صادر الاحتلال أراضيهم، وغيّر مبانيهم وشوارعهم، فأصبحت لا تتفق مع نسيج المكان المعهود. لكن حبه للمكان لم يتغير، رغم كل محاولات تهويده وتغييره، فرائحة الأرض تشده إليها.

خلقت الكاتبة مواقف غريبة التقت فيها الشخصيات، لتشكل بذلك بيئة حوارية، تسمح بطرح وجهات النظر المختلفة، حول موضوع الحرب، وتساعد المتلقي على فهم أسباب هذا الصراع بين الطرفين. فنقل السارد هذه اللقاءات بصورة مكنت القارئ من التعرف على الشخصيات بصورة أكبر.

كان اللقاء الأول بين عيسى و"Neyri" في منزل والدي عيسى، عندما جاء"Neyri" ليشرف على هدمه، بناءً على قرار من المحكمة، لقيام ابنهم بتفجير باص في تل أبيب. وصف السارد صعوبة هذا القرار وقسوته على كلا الطرفين، و نقل تنبؤ الضابط بما سيكون عليه مسار

---

[١] الرواية السابقة، ص٣٢

الشخصية الفلسطينية "عيسى" مستقبلاً. فهو يعلم أن العقاب الجماعي الذي تتبعه حكومته مع الفلسطينيين يغذي المقاومة، ويمد سلسلة العنف. لكنه رغم صراعه الداخلي، وتعاطفه مع الفلسطينيين كان يحترم قوانين دولته، ويعمل على تنفيذها. ثم كان لقاؤهما الثاني في منزل البروفسور "Dived" صديق الضابط قديماً، ويعمل مع عيسى في بحثه في جامعة تل أبيب.

يقول عيسى إن الصراع العربي الإسرائيلي، قد بدأ قبل وجود دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م، فهو يعود إلى عام ١٩١٦م، عند إعطاء وعد لليهود بإقامة وطن لهم في فلسطين، وقد ذكرت مصادر تاريخية مختلفة أن اليهود كانوا ينوون التوجه لأوغندا....

قاطعه "David" قائلاً: إن اليهود ليس لهم أرض إلا فلسطين، ولا مكان مقدس ينتمون إليه إلا أورشليم، وحائط المبكى، فكيف يتجاهل العرب حق الإسرائيليين في أرض الميعاد المعطاة لهم من الرب.

إن الصهيونية لم تخطط – بحسب "Neyri" – لطرد العرب من فلسطين، لتقوم بتأسيس دولتها على أنقاض دولتهم. لقد حملوا السلام والتعايش، لكن ما يحدث على الأرض جر الطرفين للعنف المتبادل، فيجب أن لا ينساق الشعبان للأهواء السياسية التي لا تفكر كثيراً في مصالح شعوبها[(١)].

نقل لنا السارد ما فكرت فيه "Jacky" – المونولوج الداخلي– عند عودتها لمنزلها، بعد هذا اللقاء بين "عيسى" و"Neyri" و "David" والذي يظهر أنه صوت الكاتبة، التي تخفّت خلف الشخصية، وجاءت بكلامٍ يستدعيه السياق والمناسبة، تقول:" أصابها الحزن، لم تستطع النوم في تلك الليلة، لقد مر على قيام الدولة الإسرائيلية التي حلم بها كل اليهود ثلاث وخمسون سنة، زمن طويل، لم تحقق فيه الدولة أمنيات شعبها، فنيران الكره والحقد لم تنطفئ، بل زاد لهيبها بين

(١) الرواية السابقة، ص ١٣٤

الطرفين، لقد استطاع اليهود النجاة من المحرقة، ولكنهم توجهوا الآن لمحرقة أكبر وأبشع، فلم تنته معاناتهم وحزنهم بل امتدت جيلاً بعد جيل[١].

تعكس نهاية الشخصيات التي نقلها الراوي مدى انحيازه للجانب الإسرائيلي. فقد صور موت الضابط بعبارات تجعل القارئ يتعاطف معه، ويحزن لموته. فلطالما دافع عن الإنسانية، وعن وطنه، رغم كل آلامه وعذاباته. رَفَض الظلم، ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وخرج من وطنه باحثاً عن السلام والاستقرار، ليبتعد عن القتل والعنف. لكنه وقع ضحية تفجير برج التجارة الأمريكية. اختارت الكاتبة هذه الحادثة لاستفزاز مشاعر المتلقي الغربي، لتشعره بوجود صلة ما بينه وبين الإسرائيلي في فلسطين، فكلاهما ضحية! أو مستهدف من "الإرهابي العربي" في أي مكان وتحت أي ذريعة. بينما يموت الفلسطيني عيسى "قاتلاً" أو ضحية ولكن بمعنى مختلف، ضحية ضعفه، وعدم قدرته التعايش مع واقع الحرب الذي أخذ منه زوجته وطفله.

الفلاش باك:Flashback

"الرواية في شكلها العام، هي مجموعة من الأحداث، مرتبة بطريقة معينه[٢]". لكنها لا تسير في سرد أحداثها على وتيرة واحدة، بل يتقطع التسلسل الزمني، لتُقحم أحداثاً حدثت في وقت سابق، غالباً ما تأخذ شكل ذكريات، وهو ما يسمى "بالفلاش باك". لكن ماذا يُمكن أن يُقدم الفلاش باك للرواية؟ وكيف وظفه الروائيون في الروايات العربية والإنجليزية محل الدراسة؟

"يتمكن الكاتب عند استخدامه للفلاش باك، من بدء قصته من نقطة متقدمة من الأحداث، فيتجنب بذلك الرتابة في ترتب الأحداث، حسب تسلسلها الزمني، و يُبقي القصة في الزمن

[١] الرواية السابقة، ص ١٣٦

[٢] Aspects of the Novel, F. M F.orster , p30

الحاضر، وهذا هو الهدف الأهم[١]". ويساعد الكاتب في جعل حكايته متماسكة، إذ لا يمكن للحكاية أن تكتمل، بدون الرجوع للأحداث الماضية، فتتصل بالماضي، اتصالها بالمستقبل، وتتداخل الأزمنة وتتشابك ولكن يبقى الحاضر هو عمودها الفقري.

لذلك أصبحت تقنية "الفلاش باك" إحدى أهم التقنيات، التي ارتكزت عليها الرواية، بشكل عام، في إضافة بعد زمني، يستعين به الكاتب في إضاءة أحداثٍ من شأنها أن تطلع القارئ على ماضي الشخصيات، فتفسر سلوكاً غامضاً، تعمد الروائي إخفاءه حتى وقت لاحق.

كانت رواية "أعراس آمنة" لإبراهيم نصر الله، عبارة عن مذكرات، تناوبت الشخصيات على روايتها، من مخزون ذاكرتها. فلم تأت الأحداث بشكل متتابع، بل قامت على الانتقائية الموظفة لخدمة الحكاية بصفة عامة، ولإلقاء الضوء على الجوانب الخفية للأحداث والشخصيات.

تستدعي آمنة – بأسلوب شائق– ذكرياتها مع زوجها، عن طريق الرجوع للماضي "فلاش باك" لتُكمل بذلك المشهد العام للرواية، وهو رصد لواقع الحصار المفروض على غزة. فتقول: "كنا نسترق لقاءات حبنا، ترسل إلي إشارة صغيرة، تقول لي فيها اخرجي من البيت فقط، وسيري في أي اتجاه تريدين، سأختار اللحظة التي نلتقي فيها، كنت أمشي وأحس أنك "غزة" بأكملها، من شمالها لجنوبها، ومن شرقها لغربها ...[٢]".

تمكن الكاتب من مزج الزمنين بحرفية عالية، عن طريق استخدامه لهذا التكنيك السينمائي، حيث أوقفت الشخصية الزمن الحاضر "زمن السرد" لتعود للماضي" زمن وقوع الحدث"، تستدعيه بكل تفاصيله الحزينة، لتكمل به حكايتها المتجددة مع المعاناة والألم على يد الاحتلال. لكن المفارقة تكمن في أنها تصوغه بنوع من الطرافة، التي من شأنها أن تجعل

---

(١) انظر : What Flashback in a Story, www. Britannica.com

(٢) أعراس آمنة، إبراهيم نصر الله، ص ٦٥

القارئ يعيد التفكير في الموقف، ليكتشف مدى الحزن الذي يحمله بين عباراته. " في كل مرة ألتقيك كنت على هيئة مختلفة، كنت أفزع في البداية، وأقول لنفسي ما الذي يفعله الاحتلال بك يا آمنة، إنه يقذف بجسدك في كل مرة إلى ذراعي شخص ترينه للمرة الأولى، أتذكر عندما نهرتك ذات يوم، حين قلت لك: يا عيبك، عجوز بعمرك يلاحق بنتاً بعمر ابنته. وعندها رحت تضحك، ولو لم تضحك لما عرفتك أبداً![١]".

كل موقف مرتبط بمشاهد تعود بالقارئ للوراء، تطلعه فيها على أحداث معينة، حفرت في قلوب الشخصيات الخوف والقلق. فساعد استحضارها على تفسير سلوك الشخصية، الذي يبدو للوهلة الأولى، غير منطقي وغير مفهوم.

منع الجنود آمنة في يوم زواجها، من عبور الحاجز للوصول إلى المدينة التي يقيم فيها زوجها، عندها قرر أنه هو الذي سيأتي إليها، فقالت له:" لأ دخيلك، أتريدهم أن يقتلوك ؟ – فكان هناك ما يبرر رفضها لفكرة قدومه – أتتذكر أم محمد التي حدثتك عنها، تلك المرأة التي ذهبت لأبارك لها بزفاف ابنها، واستقبلتني وهي تزغرد وتغني، وحين راحت تبكي قلت في نفسي: هذا البكاء ليس بكاء فرح يا آمنة، فقالت لي المرأة التي بجانبي لقد استشهد قبل ساعتين، قبل ساعتين من عرسه تصور![٢] ". فكان للاسترجاعات " الفلاش باك" وظيفة سد الفجوات التي لم تذكرها الرواية عبر حركة الزمن المتسارع، فساعد الرجوع إليها في فهم الموقف بصورة أوضح.

لم يسر السرد في رواية Destined to Die by Victor Sasson على وتيرة زمنية واحدة، بل امتلأت الرواية بالإحالات الزمنية للماضي "الفلاش باك"، فكانت عبارة عن مشاهد وأحداث متداخلة زمنياً، لم يُحدث تداخلها أي خلخلة في معمار الرواية الفني، بل ساهم في تحليل

---

(١) الرواية السابقة، ص ٨٨

(٢) الرواية السابقة، ص ٤٤

نفسية الشخصيات، وكشف الدوافع الخفية التي تُحركها." فمن المهم أن يعود الروائي لنقاط معينة، وأحداث قديمة تركت آثارها النفسية على الشخصيات، ليُمكن قارئه من معرفة السبب وراء قيامها بأفعال معينة(١)".

شاركت سميرة مع أصدقائها في مظاهرة "يوم الأرض" التي انطلقت من الجامعة. وفي وسط الضجيج والهتافات، انفصلت عن عالمها وعن أصدقائها، لتعود بذاكرتها – فلاش باك- للعام الماضي، حين استشهد صديقها "أحمد" برصاص الجنود في نفس هذا اليوم، عاد إليها المشهد بكل تفاصيله الحزينة، استشهد قبل زواجه فأصبح عريسا لفلسطين، أقسمت سميرة يومها أن تنتقم، وتقاتل العدو من أجله، وأجل كل فلسطيني قُتل بلا ذنب(٢).

تهرب الشخصيات الفلسطينية المعذبة – في الرواية- من حاضرها المؤلم للماضي، علّها تجد فيه ما يخفف عنها حزنها ومعاناتها. بقيت أم نبيل وحيدة بعد وفاة زوجها، واشتراك نبيل في المقاومة. كانت تستمع لأغنية "كل من وليفه معه وأنا وليفي راح ..." بقيت بجسدها في منزلها بسلوان، لكن روحها عادت للقدس، حيث البيت المبني من الحجارة الفلسطينية العتيقة، خرجوا منه في عام النكبة ١٩٤٨م على أمل الرجوع إليه بعد هدوء الأوضاع، مرت الأيام برتابة وثقل، مات الزوج وتفرق الأولاد في البلاد وبقيت هي وحيدة، أسيرة الذكريات(٣).

نجح الكاتب في توظيفه لتقنية الفلاش باك، فاستطاع كشف الجوانب الخفية التي تفسر الاضطرابات النفسية للشخصية، يظهر ذلك عند تصويره الدقيق للصراع النفسي الذي يُعاني منه الضابط "Rosenberg" فهو يتلذذ بتعذيب نبيل في السجن، ويظهر في حواره معه أنه يحاول الانتقام منه لسبب ما، يتضح هذا السبب، عند رجوعه بذاكرته إلى حياة الخوف والظلم

---

(١) Aspects of the Novel, E. M. Forster , p82

(٢) Destind to Die by Victor Sasson ,9

(٣) الرواية السابقة، ص ٩٦

التي عاشها في ألمانيا على يد النازيين، فتركت آثارها النفسية عليه. يربط بين العرب والنازيين، فكلاهما – بحسب الضابط – عدو لليهود ولإسرائيل، ولا بد من التخلص منهما. فهو يريد بذلك أن يبرر لأعماله اللا إنسانية، ويكسبها الشرعية، التي من شأنها أن تخفف عنه وطأة الشعور بالذنب والقلق، الذي أقضّ مضجعه[١] .

نجحت الروايتان السابقتان في توظيفهما لتقنية الفلاش باك، فأدى إدراج القصص الصغيرة، داخل سياق الحكاية الأساسية، إلى إضافة عناصر أكثر حيوية، وإزالة الغموض الذي يلف الأحداث والشخصيات، بإعطاء القارئ معلومات عنها، تساعده على القراءة الإيديولوجية والاجتماعية حيناً، والنفسية حيناً آخر.

النهايات المفتوحة والمغلقة:

للنهاية أهمية كبيرة، لكونها أكثر ما يترك أثراً في نفس القارئ، فتبقى صورة المشهد الأخير مرسومة في ذهنه، محققه له نوعاً من المتعة المتوقعة، أو الألم الصادم. لكن هل يوجد علاقة بين بداية الرواية ونهايتها؟ وهل يمكن للنهاية أن تعكس مدى وعي كاتبها بما يجري حوله فيحملها بتنبؤ معين لأحداث يراها مستقبلاً؟

يحرص الكاتب على تحميل نهايته بالرموز، والدلالات المتنوعة، بحيث يجعل القارئ يعيد قراءة الرواية بذهنه، ويفكر في كل جزئياتها بعمق، ويتتبع كل الإرهاصات الخفية التي نبأت بهذه النهاية.

تباينت النهايات في الروايات – محل الدراسة – بين نهايات متفائلة سعيدة، وأخرى دموية حزينة، وبقي لبعضها نهايات مفتوحة، يكملها كل قارئ بطريقته الخاصة. فعندما تصل الأحداث

[١] الرواية السابقة، ص ١٢٢

إلى ذروتها، يكون القارئ قد وضع عدة فرضيات للنهاية، وفي أغلب الأحيان تنتهي الرواية بطريقة مُفاجئة لقرائها.

رصدت رواية "ماء السماء" ليحيى يخلف، تفاصيل الخروج من البلاد، والتوجه للشتات. بداية مؤلمة، شدت المتلقي لمتابعة ما عانته الشخصيات، التي عذبتها حياة اللجوء والتمزق في المخيمات، ومصارعة الموت يوماً بيوم، و محاولة التغلب على قسوة الغربة، التي قلبت موازين الحياة وجعلت أعزة أهلها أذلة.

حملت النهاية تفاؤلاً كبيراً، على عكس ما بدأت به. فعلى الرغم من مسحة الحزن والألم الذي تلونت به أجزاء الرواية، وموت العديد من الشخصيات التي طالما حنت للرجوع، يتجدد الأمل؛ فماء السماء وماهر هم أبناء النكبة، وقادة الثورة القادمة، التي ستنطلق من المخيمات لترد الوطن المسلوب.

حرص الكاتب على استعمال الكلمات بشكل دقيق في نهاية الرواية، "قال أبو حامد بصوت لا يخلو من شجن: هذا الذي ينزل علينا ليس مطر الغيوم، إنه الغيث، إنه ماء السماء[١]". وردت كلمة المطر في القرآن الكريم بمعنى العذاب و الأذى،(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ)[٢]. أما ماء السماء، فهو الماء الطاهر المرسل رحمة للناس، والذي يتغير به وجه الأرض، (وَاللّهُ أَنزَلَ مِنَ الْسَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)[٣].

[١] ماء السماء، يحيى يخلف، ص ٢٨٥

[٢] سورة الشعراء، ١٧٣

[٣] سورة النحل، ٦٥

وكذلك يضع القارئ احتمالات كثيرة لمصير الطفل "كريم" في رواية A Little Piece of Ground by Elizabeth Laird بسبب تعرضه الدائم للأخطار الجسيمة، فيظل يتساءل وهو يقرأ هل سينجو؟ أم سيموت...؟

تمثل النهاية بنية مهمة من بنيات العمل الروائي، ولها علاقة وثيقة بعنوان العمل، وسير الأحداث، فهي تقدم خلاصة تجارب الشخصيات في عالمها التخييلي الروائي، التي تشترك بشكل أو بآخر مع تجارب معينة عند القارئ، فتكون بذلك قادرة على التأثير فيه. "فكان من الضروري أن تحتوي النهاية على الكلمات المحددة، والمعاني ذات الدلالات العميقة، المتصلة بفلسفة الحياة المعقدة[١]".

جاءت النهاية سعيدة، نجا فيها كريم من الموت بأعجوبة، بعد تعرضه للإصابة من أحد الجنود في الملعب. يتحدث في المقطع الأخير لصديقه جوني عن رغبته في إعادة تنظيف الملعب، ليكون لكل الأطفال الذين يُحبون لعب الكرة.

نهاية مفتوحة، تحمل أكثر من إشارة، و تُنبئ بدورة جديدة من المواجهات التي سيعيشها كريم وأصدقاؤه. فهي بذلك تخلق عالماً من التكهنات والتوقعات، والتي ستبنى وفقاً لأحداث الرواية. "فالنهايات المفتوحة تترك لخيال القارئ فرصة إكمالها بحسب ما يراه من سيرتها الروائية[٢]".

حفلت رواية سحر خليفة "ربيع حار"، ورواية Destined to Die للكاتب Victor Sasson بنهايات دموية مفزعة. إذ كانت المشاهد الأخيرة عبارة عن تقارير إخبارية، مقدمة من

(١) Aspects of The Novel, E. M. Forster,p39

(٢) خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، رزان محمود إبراهيم، ص ١٣٣

قلب الحدث، فهيمن عليها مناخ كابوسي، بسبب تصاعد الأحداث بشكل متسارع و متوتر، فجاءت النهاية مختلفة كلياً عن البداية الهادئة الرتيبة.

تغيرت البداية الهادئة كلياً في رواية "ربيع حار لسحر خليفة" بعد انهيار اتفاقية أوسلو، وزيادة التهديدات بالاجتياح الإسرائيلي للمناطق الفلسطينية. انعكست دموية الأحداث وقسوتها على الشخصيات فغيرتها، وأكسبتها ميولاً واتجاهات مخالفة لطبيعتها، واتجاهاتها، وتفكيرها. فأحمد الذي يصفه والده في بداية الرواية بأنه "ولد رقيق، ولد حساس، ولد ناعم مثل البنات[١]" لم يكن له أي دور يذكر في البداية، أصبح يلعب دوراً أساسياً ومهماً، بل تركزت كل الأحداث عليه – في جزء الرواية الثاني– وعلى التغير الذي أصابه والدور الجديد الذي يمثله، خرج عن طبيعته وتحول لرجل في بضعة أيام، تائه الخطى يبحث عن دليل.

جاءت النهاية مأساوية، عند موت أحمد في سيارة الإسعاف التي عرفه الناس بها، يسعف المصابين وينقل الموتى. أراد إنقاذ الفتاه الأمريكية، التي دهستها الجرافة الإسرائيلية، عندما وقفت أمامها، لتمنع هدم منزل والده، حملها في سيارة الإسعاف، فرأى السائق في الجرافة يقترب ولا يبدي فهماً أو عطفاً فقط يمشي." صاحت ميرا ارجع ارجع[٢] "، رجع للخلف فرأى الجنود في مواجهته، رأوه يقترب من الحاجز، قاموا بتصويب رشاشاتهم عليه، فانكسر الزجاج وتطاير. "صوَر الأحداث مثل السينما شاشة سريعة، فيلم معطوب، وهو يصور من غير صور داخل عقله، اندفع بكامل سرعته نحو العسكر، لم يعد يميز. اختل العقل، ثم تأرجح، الروح تطير كطّيارة فصاح الوالد: ابني استشهد ! في اليوم التالي سمعنا الخبر قالوا إرهاب ...[٣]".

---

[١] ربيع حار، سحر خليفة، ص ٩

[٢] الرواية السابقة، ص ٣٧٤

[٣] الرواية السابقة، ص ٣٧٤

نلاحظ تسارع وتيرة الأحداث، وتوتر اللغة، و براعة وصف الجو الذي لفه إعصار القلق والخوف والصراع، مع الذات ومع الآخر. فكان الانفلات من قبضة المنطق سمة أساسية، أرادت الكاتبة ترسيخها في ذهن القارئ، الذي يُعيد بدوره ربط الأحداث ببعضها، فيرى أن كل ما حدث كان سببه انتهاك المحتل لحقوق الإنسان الفلسطيني، وتماديه في ذلك حتى أخرجه عن طبيعته، ثم وصفه "بالإرهابي"، وهي الكلمة الرنانة التي يستخدمها المحتل دائماً لتغطية جرائمه أمام العالم.

ولا تختلف النهاية التي اختارها الكاتب Victor Sasson لروايته Destined to Die عن سابقتها، فكانت نهاية دموية بامتياز، فيها نوع من مفاجأة القارئ، الذي عاش الأحداث مع الشخصيات، وخُيل إليه أنه عرف طباعها وأفكارها، من خلال ما ذكرته هي عن نفسها، ليفاجأ بعد ذلك بأفعالها، والنهاية التي آلت إليها." فالرواية الجيدة لابد أن تحمل عنصر المفاجأة للقارئ، بحيث تصدمه بالنهاية التي آلت إليها الشخصيات، فتحقق لديه بذلك اللذة العقلية[١] ".

جاءت الرواية ممتلئة بالكثافة، وموغلة في الغموض، باغتت المتلقي بعنوانها "الطريق للموت" وولدت في نفسه الغرابة والحيرة من هذا الاسم. ليكتشف بعد ذلك حضوره في كل أجزائها، إلى أن جاءت النهاية التي قادت الأبطال إلى الموت.

لم يؤيد نبيل أعمال المقاومة ضد الإسرائيليين، لعدم تكافؤ القوى بين الطرفين، فلا توجد مقارنة بين الحجارة والرصاص. لكن موقفه تغير، وتولد لديه شعور بضرورة الثورة على المحتل، بعد تعرضه للسجن والإهانة، وبعد موت أبيه على يد الجنود. "فالأحداث وحدها هي التي تكشف سلوك الشخصيات، وتفكيرها، وتغير مشاعرها[٢]". ترك فلسطين، ليلتحق بالمقاتلين

[١] The Technique of The Novel, Thomas H Uzzell, p23

[٢] المرجع السابق، ص ١٠٣

في لبنان، اشترك في القتال على الحدود اللبنانية، استشهد بعد معارك عنيفة مع الجنود الإسرائيليين، لحقت به سميرة في مواجهة أخرى مع الجنود في وسط بيروت.

جاء المقطع الأخير بعد ذلك ليكشف عن تولي مدير إسرائيلي جديد لمؤسسة الآثار. بدأ بتجهيز حفل ينوي إقامته، أعطى السكرتيرة "Fadia" قائمة بأسماء المدعوين، كان اسم "Tikva Katz" من ضمنهم، وهو الإسرائيلي الذي دبر التهمة لنبيل ووالده، واتهمهما بإخفاء السلاح في حديقة المؤسسة، وكان غرضه من هذا أن يقيل مدير المؤسسة السابق الأمريكي" Janson " لحمايته الآثار الفلسطينية ومطالبته بتوثيقها[١].

أراد بهذه النهاية أن يجعل القارئ يفكر في الدور الجديد للمؤسسة، الذي سيناقض بطبيعة الحال دورها السابق، بل سيعمل في الاتجاه المعاكس له. ممهداً بهذه النهاية لدورة جديدة، من حرب الهويات، و مصارعة الحياة، وسط مفارقات لا يسيجها منطق غير منطق الغرابة.

تسريد العنوان حكائياً:

عند قراءة الروايات يتبادر للذهن سؤال مهم وهو: هل هناك علاقة بين عناوين الروايات – العربية الإنجليزية– وبين مضامينها؟ بمعنى هل العنوان بنية شكلية فحسب أم أنه يحمل معنى دلالياً موظفاً ؟

" إن العنوان هو عبارة عن رسالة لغوية ذات خصائص تعبيرية وجمالية، تتحكم في دلائلية النص، وفي التأويل الأدبي له[٢]". وهو المدخل الرئيسي لتلقي العمل، فكان من المهم أن ينطوي على كفاءة التفاعل مع النص، بما يكفل له القدرة على القيام بوظائفه المتعددة. وقد حملت

---

[١] Destined to Die by Victor Sasson ,252

[٢] الخطاب الأدبي ورهانات التأويل، نعمان بوقرة، ص ٣٣٩

عناوين الروايات – محل الدراسة – مضامين لغوية مرتبطة بالنص، تتميز ببساطة العبارة، وكثافة الدلالة، ولها القدرة على إعادة إنتاج نفسها داخل النص.

لا يوجد حجم ثابت للعنوان، "فقد يكون جملة مكونة من عدة كلمات، أوقد يتضاءل إلى حد تشكله في كلمة واحدة[١]"، بحيث تكون قادرة على تمثيل النص، فتكون مرآة لنسيجه الروائي، الذي يساعد القارئ على اقتحام عوالم النص، وكشف مضمراته وأسراره.

"إن أول ما تتطلبه الرواية هو العنوان الجيد، الذي يغري القارئ بالقراءة، فقد يُلامس الموضوع المختار تجارب المتلقي، فيرى أحاسيسه ومشاعره مكتوبة في الرواية [٢]". فلا يمر عليه مروراً سريعاً متوجهاً للنص، بل يقف عليه طويلاً، ليفكك بنياته، ثم يربطها بالعمل نفسه.

يُعد العنوان من أهم العتبات النصية، "عرّفه هويك: بأنه مجموعة من العلامات اللسانية، التي تظهر على رأس نص ما، قصد تعيينه، وتحديد مضمونه الشامل[٣]". فالعنوان هو النص في صورته المختزلة جداً، عني به الروائيون والنقاد عناية فائقة، لأهميته في كشف مضمرات النص، وسبر أغواره. "فتعددت وظائفه بين وظائف إيحائية، وصفية، رمزية، إغرائية تهدف لجذب القارئ، فيكون هدفها تجارياً بحتاً[٤] ".

انزاحت بعض الروايات– محل الدراسة– عن الاندراج تحت عنوان مباشر، بينما مالت الأخرى إلى حمل عنوان متواصل سردياً مع النص، ودال عليه بطريقة مباشرة، كرواية أم سعد

---

[١] انظر: العنوان وسميوطيقا الاتصال الأدبي ، محمد فكري الجزار، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٨م، ص ٢٥

[٢] The Technique of The Novel ,Thomas H.Uzzell, p 17

[٣] عتبات ج. جنيت "من النص إلى المناص"، عبد الحق بلعابد ، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ٢٠٠٨، ص ٧٤

[٤] المرجع السابق، ص ٨٧

لغسان كنفاني. فقد حملت الرواية اسم الشخصية الرئيسية في العمل، فصورت معاناتها، ومقاومتها، التي جعلتها نموذجاً لصوت الشعب في الملاجئ الغارقة في العجز والفقر والانكسار.

وضعت الكاتبة Barbara Goldscheider عنواناً يوحي بأنه مباشر، ويحمل مضموناً يرتبط به بشكل أو بآخر AL Naqba ، النكبة، كلمة ارتبطت بخروج الفلسطينيين من ديارهم في عام ١٩٤٨م على يد الاحتلال. استعارت الكاتبة الاسم، لتبين النكبة التي عانى منها الآخر الإسرائيلي في الانتفاضتين الأولى والثانية، ولتسلط الضوء على ما ألحقته الحروب الطويلة فيهم، التي قلما يلتفت أحد لمناقشتها بحسب الكاتبة. فعندما يُذكر اسم النكبة، يتبادر للذهن الفلسطينيين النازحين من بيوتهم، ولا يُذكر الإسرائيليون، الذين شاركوا في دفع ضريبة الحرب، من أرواحهم وأرواح جنودهم، ولم ينعموا بالأمن، بسبب التفجيرات المتواصلة التي نالت من المجتمع الإسرائيلي كله بلا تفريق.

لقد وطدت الكاتبة علاقة العنوان مع المعنى الخارجي المتعارف عليه من جهة، وربطته من جهة أخرى، وبطريقة جديدة، بمعنى مستحدث، وهو نكبة الإسرائيليين، فنجحت في جعل المعنيين يتلاقحان شكلاً وفكراً ." فالعنوان عبارة عن علامات سيميوطيقية، تقوم بوظيفة الاحتواء لمدلول النص، كما تؤدي وظيفة تناصية، تخدم الرواية [(١)]".

أما عنوان رواية "ماء السماء" ليحيى يخلف، فهو ذو دلالة رمزية، ويحتاج لقارئ يستطيع أن يفك شفرته، و يربطه بالنص. فالعنوان يحمل في طياته معنيين: أحدهما ظاهر بين، وهو الماء النازل من السماء، والآخر مندس بين الكلمات، وهو الأمل المبشر بتغير الحال، والرجوع للوطن.

[(١)] تحليل الخطاب الأدبي، الشريف حبيله، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٢، ص ٣١٧

ماء السماء هي الطفلة، التي وجدها أبو حامد، على قارعة الطريق، وقت نزوحه من سمخ، فكأنها تعبر عن الحادثة الجديدة، التي ولدت في المشهد الفلسطيني، وهو ترك الوطن، والتوجه للغربة. فرصدت الرواية محاولة الشخصيات للتعايش مع واقعهم الجديد، المفروض عليهم. استمر العنوان في الحضور، عبر مسار الحكي، حتى آخر الرواية، حيث تغيرت دلالته، فاتخذ معنى متفائلاً يبعث على الأمل .

حملت رواية A Little Piece of Ground by Elizabeth Laird اسم المكان الذي صنعته الكاتبة، لأغراض التخيل الروائي. فهيأت بعنوان روايتها القارئ لتلقي العمل، فيربط بينه وبين النص، ويحاول من خلاله فهم فكرة العمل الروائي كله. فقطعة الأرض الصغيرة، ما هي إلا أرض فلسطين، التي دارت أحداث الرواية فيها.

بدأت إرهاصات العنوان بالحضور، منذ مطلع الحكي. فكانت قطعة الأرض، فلسطين/ الملعب، هي أساس الصراع، في حياة الكبار والصغار. بدأت الرواية بتصوير معاناة الفلسطينيين بسبب الحصار، وتضييق أسباب الحياة، وبث الرعب في نفوسهم. لينتقل الصراع بعد ذلك لدائرة أصغر، وهو ملعب الأطفال، فيدل على معنى أوسع، وهو استيعاب الأطفال للقضية، وانتقال المقاومة إليهم. فأصروا في آخر الرواية على التمسك بأرضهم، وإعادة تنظيفها، ليمارسوا فيها لعبتهم المفضلة. ففي ذلك رسالة مبطنه، تدل على مدى تمسك الفلسطيني بأرضه، ومحاولته الاستمتاع بهواياته، التي حولت حياته إلى مغامرة، يحاول الفوز بها دائماً.

جاء العنوان في رواية Refugee Without Refuge للكاتبة Dixian Hallaj محملاً بدلالات متعددة، تتسم بالغرابة، التي من شأنها أن تجعل القارئ يحاول عند قراءاته النص، أن يفهم كيف يمكن أن يكون هناك لاجئ بلا ملجأ أو مأوى. ليصل بعد قراءته الرواية، إلى المعنى الذي اختزله العنوان، وهو صعوبة حياة الفلسطيني في المخيمات. فلم يكتف المحتل بطرد

الفلسطيني من منزله، بل سجنه في سجن جماعي كبير، محاط بالدبابات، ونقاط التفتيش، ونغصّ عليه يومه بالحصار، والاعتقال لأتفه الأسباب. فأصبح هذا اللاجئ لا ملجأ له ولا ملاذ، حتى في المكان الذي سمي "بملجأ".

الخاتــمة

يعد هذا البحث جزءًا من الدراسات الأدبية المقارنة حول القضية الفلسطينية، التي حركت الوجدان العالمي، فنتج عن ذلك أدب كثير لا يمكن الإلمام به في هذا الحيز الضيق. ويمكن إيجاز أهم النتائج التي توصل إليها الباحث فيما يلي:

١. تمكنت الرواية العربية من توثيق الأحداث، ورصد الآثار، التي يحاول المحتل محوها وإزالتها وتهويدها، فجاء ذكرها في الرواية دربًا من دروب الحفاظ عليها، ورسمها في خيال القارئ، حتى تظل صورة فلسطين حاضرة في ذهنه. فخدمت الرواية بذلك القضية الفلسطينية، إذ عكف الكتاب على تعريف العالم بقضيتهم، وإعادة سرد الحقائق، وكشف اللبس الذي يحاول الآخر الإسرائيلي خلقه حول فلسطين.

٢. جاء توظيف الرمز في الرواية العربية مفيداً في تعددية القراءة، إذ يمكن لكل فرد أن يلج بنفسه لعالم النص ليكشف خباياه. فخدم بذلك الأدب القومي والأدب العالمي الذي يُترجم له، إذ أكدت الرواية على تمسك الفلسطيني بأرضه ومقدساته، ومحاربته لكل أشكال التهميش والتهويد وانتزاع الهويات.

٣. لم تتعرض الروايات العربية للشخصية اليهودية إلا لماما، ولم تحاول كشف مكوناتها النفسية والعقلية وطريقة تفكيرها، ولعل مرد ذلك إلى رفض الأديب العربي أن يعترف بوجود الآخر الإسرائيلي، ولكن وجودهم أصبح واقعاً مفروضاً فكان من الضروري أن يحاول الأدباء تعريف القارئ العربي بهذا العدو.

٤. تمكنت هذه الدراسة المقارنة من كشف التيارات الفكرية للأدباء بصفة عامة، التي تجلت بوضوح في رواياتهم، فقد تناولوا موضوعاً واحداً هو "القضية الفلسطينية" ولكن الأفكار التي

ركزوا عليها تباينت وتقاطعت وتشابهت. ركزت الروايات العربية على مناقشة محاور عدة، أبرزها كان ضرورة فهم أدوات المقاومة الحديثة وتطويرها لمقاومة المحتل. بينما لم تناقش الرواية الإنجليزية أسباب الحرب، بل صورت أنه لم يعد من المجدي معرفة من هو المخطئ، ومن هو المصيب، فكلا الطرفين عانى ويلات الحرب، ولابد من إنقاذ الإنسان الذي دمرت الصراعات حياته .

٥. تجاوز الأدباء العرب مرحلة البكاء، وتذكر الأمجاد المفقودة، إلى محاولة تحليل أسباب الهزيمة، للوصول إلى مخرج من ذلك كله، ومن تلك الأسباب القيادات المتواطئة والانتهازيون والعملاء.

٦. تشابه الروايتين العربية والإنجليزية في توظيفهما للعناصر الأساسية للرواية. واستغلال أشكال اللغة المختلفة، فجاءت اللغة مشحونة بمسافات التوتر. وتوظيف اللغة الرامزة التي عنيت بتعددية المعنى ودخول التأويل.

٧. تصوير الروايتين ارتباك الشخصيات وانعكاس الصراع عليها، فتتابعت عليها الكوابيس، وعاشت تائهة تبحث عن حلّ ودليل يرشدها للخلاص.

٨. تركيز الروايات على تصوير الصراع الداخلي للشباب الفلسطيني، الذي يرفض الاستسلام للعدو ويصرّ على العودة للوطن مهما طال الزمن.

٩. ثمة روح مشتركة بين الروائيين العرب والغرب، وهي تعاطفهم مع الفقراء والمسحوقين وضحايا الحرب، والتركيز على أهمية الوعي الإنساني الذي يرفض كل أشكال هدر الإنسانية وامتهانها.

١٠. ظهور المكان في كلتا الروايتين العربية والإنجليزية ركيزة أساسية تدور كل أوجه

الصراع عليه.

١١. ظهر في الروايات العربية ما يُسمى بنقد الذات، الذي يهدف منه الأدباء الوصول إلى الأسباب التي قادت لهذا الواقع الدامي. بينما وجد في الروايات الإنجليزية ما يُسمى بعقدة الذنب.

١٢. ظهر أدب المقاومة العربي نتيجة للصراع بين الطرفين. بالإضافة إلى تلون الرواية بالمفردات الدموية، وإن كانت تقل في الروايات الانجليزية مقارنة بالروايات العربية.

١٣. اشتركت الرواية الإنجليزية و العربية في إبراز الهوية الفلسطينية بطرق مختلفة، فدلت على حب الفلسطيني لأرضه وإيمانه بالعودة إليها. ولم تغفل الرواية الإنجليزية ذكر الهوية الإسرائيلية ومحاولة تعريف القارئ بها .

١٤. تباينت وظائف الزمان في الروايات، واختلفت على حسب الفكرة التي أراد الروائيون طرحها.

١٥. تفاوتت النهايات في الروايات محل الدراسة بين نهايات متفائلة وأخرى حزينة، ونهايات مفتوحة تحمل أكثر من تأويل.

١٦. جاءت عناوين بعض الروايات ذات دلالة مباشرة على المضمون، بينما يحتاج المتلقي في بعضها الآخر إلى إمعان النظر، والتفكير في المعنى الرمزي الذي تحمله.

المصادر والمراجع العربية

أولاً : المصادر العربية:

١. أعراس آمنة ، إبراهيم نصر الله، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩م.

٢. أم سعد، غسان كنفاني، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٤م

٣. ربيع حار، سحر خليفة، دار الآداب للنشر، بيروت ، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

٤. ماء السماء، يحيى يخلف، عمان، دار الشروق ،٢٠٠٧ م.

ثانياً : المراجع العربية:

١. أبحاث مختارة في القومية العربية، أبو خلدون ساطع الحصري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،١٩٨٥م .

٢. أدب الأطفال ، حسن شحاتة ، الدار المصرية اللبنانية ، الطبعة الأولى، ١٩٩١م .

٣. لأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨م – ١٩٦٨م ، غسان كنفاني ، الطبعة الثالثة، مؤسسة الأبحاث العربية .

٤. .الأدب المقارن، محمد غنيمي هلال، نهضة مصر للطباعة والنشر، ط٩ ، ٢٠٠٣م .

٥. الأدب المقارن من منظور الأدب العربي، مقدمة وتطبيق، عبد الحميد إبراهيم، دار الشروق، ط١ ،١٩٩٧م .

٦. أدب المقاومة، غالي شكري ، دار المعارف ، ١٩٧٠م .

٧. إشكاليات الصراع الإنساني في القصص الحديث، رجاء علي ، المؤسسة العربية للعلوم والثقافة، ط١، ٢٠١٠م .

٨. الاغتراب والمقاومة، حسن عليان، سلسلة كتب ثقافية تصدرها وزارة الثقافة الأردنية، ٢٠٠٥م.

٩. الالتزام والشرط الجمالي، أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري، مطابع الفرزدق ، ١٩٨٧م .

١٠. الالتزام في الشعر العربي، أحمد أبو حاقة، دار العلم للملايين، بيروت،١٩٧٩م .

١١. الإنسان: الروح والعقل والنفس، نبيه عبد الرحمن عثمان، مؤسسة الاهرام، مصر، ١٩٨٧م

١٢. أوراق مطوية من تاريخ الأدب المقارن في الوطن العربي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩٧م .

١٣. بنية السرد العربي ، محمد معتصم، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ٢٠١٠ م.

١٤. تحليل الخطاب الأدبي، الشريف حبيله، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٢م .

١٥. تحليل الخطاب الروائي (الزمن – السرد – التبئير)، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٥ م .

١٦. تحليل مضمون الفكر القومي ، السيد ياسين ، مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٨٠م .

١٧. تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم، محمد بوعزة، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط ١، ٢٠١٠ م .

١٨. تطور صورة الشرق في الأدب الإنجليزي، ناجي عويجان، ترجمة تالا صباغ، مركز دراسات الوحدة العربية ، المنظمة العربية للترجمة ، ٢٠٠٨ م .

١٩. حركات ومذاهب في ميزان الإسلام، فتحي يكن، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٩٧٩م .

٢٠. حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكبة ، عبد الرحمن ياغي ، المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت، ١٩٦٨م .

٢١. الخطاب الأدبي ورهانات التأويل، نعمان بوقرة، عالم الكتاب الحديث للنشر والتوزيع ، ط ١ ،٢٠١٢م .

٢٢. خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، رزان محمود إبراهيم، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط١ ، ٢٠٠٣م .

٢٣. الرواية السياسية ، طه وادي ، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م .

٢٤. الزمن والرواية ،أ.أ مندلاو، ت: بكر عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م

٢٥. سرحات فلسطينية ، رجا شحادة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٠م .

٢٦. الصهيونية غير اليهودية (جذورها في التاريخ الغربي)، ريجينا الشريف، عالم المعرفة، الكويت ، ١٩٨٥م .

٢٧. صورة العرب والمسلمين في مدارس إسرائيل، علي بن صالح الخبيتي ، العبيكان، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩م.

٢٨. عتبات ج. جنيت "من النص إلى المناص"، عبد الحق بلعابد ، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ٢٠٠٨م .

٢٩. العقد النفسية، روجيه موكيالي، منشورات عويدات ، بيروت،١٩٨٨م .

٣٠. العنوان وسميوطيقا الاتصال الأدبي ، محمد فكري الجزار، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٨م

٣١. فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام، صالح بن عبد الله العبود، دار طيبة للنشر، الرياض، ١٤٠١ه .

٣٢. في الأدب الصهيوني، غسان كنفاني، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٧م .

٣٣. الكون الروائي ، "قراءة في الملحمة الروائية ،الملهاة الفلسطينية ، لإبراهيم نصر الله "، لمحمد صابر عبيد وسوسن البياتي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٧م .

٣٤. مدارس الأدب المقارن، سعيد علوش، المركز الثقافي العربي، ط١ ١٩٨٧م .

٣٥. المرأة في الرواية الفلسطينية ، حسّان رشاد شامي، اتحاد الكتب العربية ، ١٩٩٨م .

٣٦. المرأة وعلاقتها بالآخر في الرواية العربية الفلسطينية ، حسين مناصرة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م .

٣٧. مفاهيم نقدية، رنيه ويلك، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، ١٩٧٨م .

٣٨. مكونات الخطاب السردي مفاهيم نظرية، للشريف حبيلة، عالم الكتب الحديث، ٢٠١٠م .

٣٩. مناهج تحليل النص الأدبي، إبراهيم السعافين وآخرون، جامعة القدس المفتوحة، ط١، ١٩٩٣م .

٤٠. النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال ، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ٢٠٠٥م .

٤١. نقد الذات في الرواية الفلسطينية، مصطفى عبد الغني، سينا للنشر ، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

٤٢. اليهود في الأدب الإنجليزي من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين، رمسيس عوض الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦م .

المجلات والمواقع العربية :-

١. دور الأدب الإسرائيلي في صنع النفسية العدوانية ، محمد توفيق الصواف ، مجلة نور الأدب ، العدد التاسع www.dahsha .com .

٢. مدارس الأدب المقارن .
http//abdulkareemakelan.maktoobblog

المصادر الإنجليزية:

1. Hallaj, Dixiane. Refugee Without Refuge. copyright 2011
2. Goldscheder, Barbara. AL Naqba. Frog, Ltd, Berkeley, California,2005
3. Sasson, Victor. Destin to Die. iuniverse ,inc ,2004 .
4. Laird, Elizabeth. A Little Piece of Ground. Haymarket Books, 2003 .

المراجع الإنجليزية:

1. Baltzer, Anna. Witness in Palestine. Paradigm Publishers ,2007.
2. Halper, Jeff. An Israeli in Palestine. Pluto press,2008
3. Tolan, Sandy. The Lemon Tree. Bloomsbury, USA, 2006
4. Cleary, Joe. Literature Partition and the Nation state culture and conflict in Ireland and Israel and Palestine. 2004
5. H.L.B.Moody. Literary appreciation. longman house, 1981
6. Harmon, Adam. Lonely Soldier. Presidio Press; First edition, 2006
7. Forster, E. M. Aspects of the Novel. RosettaBooks, 2010
8. Culler, Jonathan. Literary Theory. A Very Short Introduction, Oxford,1997
9. Thomas, H,Uzzell. The Technique of the novel. Velikovsky Press,2010
10. Elis, Debroah. Three Wishes. Foreword copyright,2006

مواقع الانترنت الأجنبية:

1. www. Britannica.com,what flashback in astor
2. .Benefits of story telling to children

http://www.prokerala.com/kids/activities/storytelling-to-children.php

3. Palestine-Israel Journal ,2011,www.pij.org
4. www.deliberation.info/women-activism-in-palestine
5. .Chris Hedges Gaza piary Harper Magazine , New York ,2001
6. Literature of war , www.litofwar.wordpress.com
7. Language a Novel Idea by Andrew Kingstone
   www.dialecticoonline.word press.com
8. The Palestinian Children- alone and bewildered- in Israel Al Jalame
   Jail The Guardian ,Harriet Sherwood ,Sunday , 22,January
9. http://abdulkareemokelan.maktoobblog مدارس الأدب المقارن

فهرس المحتويات